حضارة وادى النيل

جزء ثانى

تأليف

دكتور محمد على

مراجعة

د/ منى سعد المشكلط



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

أسـم الكتاب : حضارة وادى النيل (جزء ثانى)

المـــــؤلف : دكتور/ محمد على

رقـم الإيـداع : ٢٤٦٥/ ٢٠١٥

الطبعة الأولى ٢٠١٥

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميـدان حليـم خلـف بنـك فيصـل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

اهـــــداء

أهدي هذا الجهد المبذول في ذلك المُؤَلَّف إلى روح أبي الحبيب وأمي الغالية وكل أفراد أسرتي وأبناء قبيلتي وإلى شهداء ليبيا الأبرار وكل شهداء الوطن العربي .

كما أود أن أتقدم بالشكر لكل من عاونني في انجاز هذا العمل واخص بالذكر الدكتورة منى سعد المشكلط على مجهودها في مراجعة هذا الكتاب ، والكابتن طيار عادل عبد الكافي على تشجيعه الدائم لي ، راجياً من الله عز وجل أن يكون علماً ينتفع به .

المقدمة

إن حضارة وادي النيل هي حضارة قديمة في الشمال الشرقي لأفريقيا

.تركزت حضارة القدماء المصريين على ضفاف نهر النيل في ما يعرف الآن بجمهورية مصر العربية .

بدأت الحضارة المصرية في حوالي العام ٣١٥٠ ق.م، عندما وحد الملك مينا مصر العليا والسفلى في دولة واحدة مركزية ، وقد تطورت بعد ذلك على مدى الثلاث ألفيات اللاحقة .

ضمت تاريخياً سلسلة من الممالك المستقرة سياسياً، يتخللها فترات عدم استقرار نسبي تسمى الفترات المتوسطة .

بلغت مصر القديمة ذروة حضارتها في عصر الدولة الحديثة ، وبعد ذلك دخلت البلاد في فترة انحدار بطئ. هوجمت مصر في تلك الفترة من قبل العديد من القوى الأجنبية، وانتهى حكم الفراعنة رسمياً حين غزت الإمبراطورية الرومانية مصر وجعلتها إحدى مقاطعاتها.

يعود نجاح الحضارة المصرية القديمة إلى القدرة على التكيف مع ظروف وادي نهر النيل. وقد ساعد التنبؤ بالفيضانات والسيطرة على أضرارها في إنتاج محاصيل زراعية وافرة أسهمت في التنمية الاجتماعية والثقافية.

وقامت السلطات مع توافر المواد اللازمة باستغلال المعادن الموجودة في منطقة الوادي والمناطق الصحراوية المحيطة به، وقامت بوضع نظام كتابة مستقل، ونظمت البناء الجماعي والمشاريع الزراعية، بالإضافة للتجارة مع المناطق

المحيطة به، وتعزيز القوى العسكرية للدفاع العسكري ضد العدوان الخارجي وتأكيد الهيمنة الفرعونية على البلاد.

وقد كان تنظيم تلك الأنشطة وتحفيزها يتم من خلال نخبة من من البيروقراطيين والزعماء الدينيين والإداريين تحت سيطرة الفرعون الذي حرص على التعاون والوحدة للمصريين في سياق نظام محكم للمعتقدات الدينية .

تضمنت إنجازات قدماء المصريين أيضاً استغلال المحاجر، المسح وتقنيات البناء التي سهلت بناء الأهرامات الضخمة والمعابد والمسلات، بالإضافة لنظام رياضيات عملي وفعال في الطب. وأنظمة للري وتقنيات الإنتاج الزراعي، وأول ما عرف من السفن، والقيشاني المصري وتكنولوجيا الرسم على الزجاج، وأشكال جديدة من الأدب، وأول معاهدة سلام معروفة .

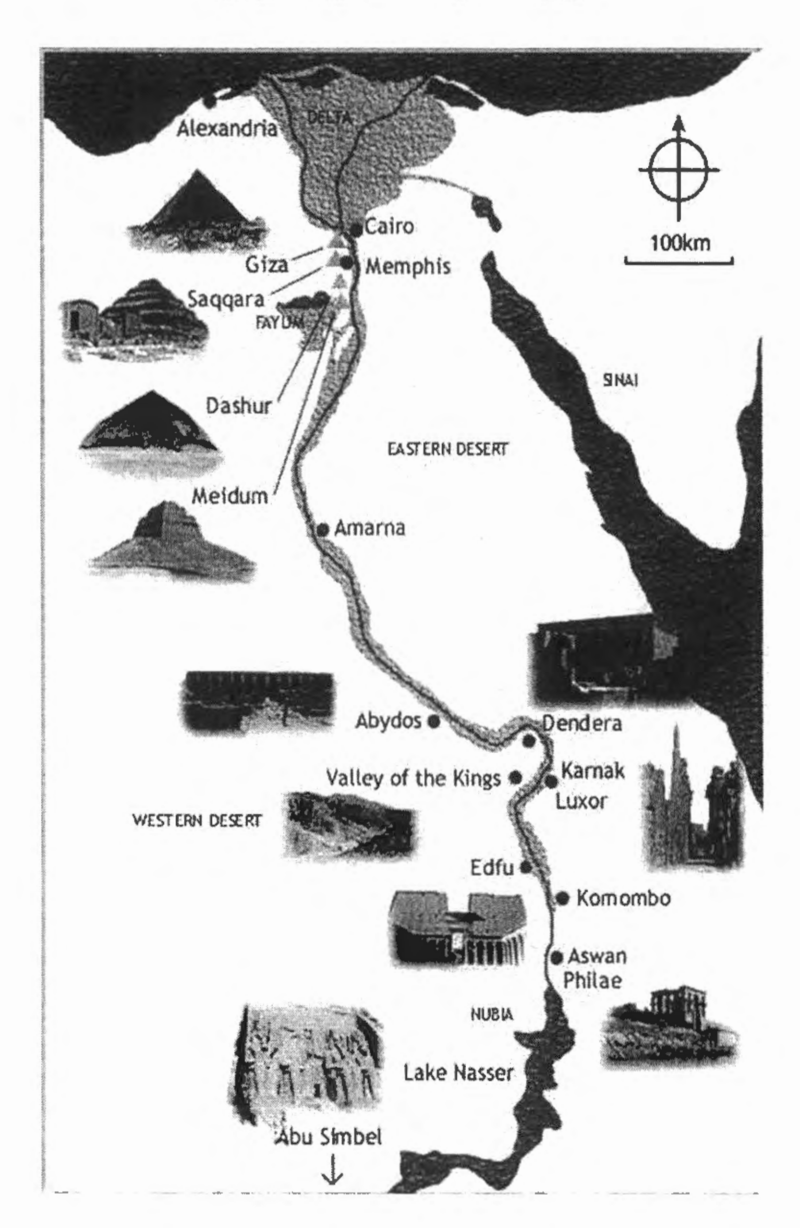
تركت مصر القديمة إرث دائم. ونُسخت وقُلدت الحضارة والفن والعمارة المصرية على نطاق واسع في العالم، ونقلت آثارها إلى بقاع بعيدة من العالم. وألهمت الأطلال والبقايا خيال المسافرين والكتاب لعدة قرون، وقد أدت الاكتشافات في مطلع العصر الحديث عن آثار وحفريات مصرية إلى أبحاث علمية للحضارة المصرية تجلت في علم أطلق عليه علم المصريات .

لقد استعرضت من خلال جزئي هذا الكتاب حضارة وادي النيل منذ مولد الحضارة ونشأتها- منذ أقدم العصور – وحتى نهاية الأسر الفرعونية ، وتناولت عصور الازدهار والاضمحلال التي مرت على وادي النيل عبر التاريخ، وراعيت التيسير على القارئ فزودت الكتاب بالصور التي توضح هيئة بعض ملوك الفراعنة.

د. محمد على

تمهيد

ترتيب الأسرات المصرية تاريخياً



الأسـرات المـصرية

عـصر الأسـرات المبكر أو العـصر العـتيـق :

٣٢٠٠ - ٢٧٨٠ ق.م.

الأسرة الأولى : ٣٢٠٠ - ٢٩٨٠ ق.م.

(الملك) منا - (حورس) نعرمر .

(الملك) إتى الأول - (حورس) عحا .

(الملك) إتى الثانى - (حورس) چر - أكثر من ١٩ سنة .

(الملك) إتى الثالث - (حورس) واچيت .

(الملك خا ستى) - (حورس) دن .

(الملك) مريبى با - (حورس) عچ - إب - أكثر من ٢٠ سنة .

(الملك) إرى - نتر - (حورس) سمرخت - ٩ سنوات .

(الملك) قاع سنى - (حورس) قا - ع .

الأسرة الثانية : ٢٩٨٠ - ٢٧٨٠ ق.م.

(الملك) حوتب - (حورس) حتب - سخموى .

(الملك) نوب - نفر - (حورس) رع . نب .

(الملك) نى - نتر - (حورس) نى - نتر أكثر من ٢٢ سنة

(الملك) ونج ١٩ سنة .

(الملك) پرى - إب - سن (ست) پرى - إب - سن

(حورس) خع سخم.

(الملك) حتپ - نبوى - إمف (حورس وست) خع سخموى .

١٧ سنة .

الدولة القديمة : (الأسرات ٣ - ٦)

٢٧٨٠ - ٢٢٨٠ ق.م.

الأسرة الثالثة : ٢٧٨٠ - ١٦٨٠ ق.م.

(الملك) زوسر الأول - (حورس) إرى خت نثر - ١٩ سنة .

(حورس) سخم خت .

(الملك) زوسر الثانى - (حورس) سانخت .

(الملك) تتى (؟) - (حورس) خع با .

(الملك) نب كاور

(الملك) حونى	حكم ٢٤ سنة

الاسرة الرابعة : ٢٦٨٠ - ٢٥٦٠ ق.م.

سنفرو	حكم ٢٤ سنة
خوفو ، خنوم خوفو ى ، (كيوبس) ٢٣ سنة .	
جدف - رع	٨ سنوات .
خفرع (خفرن)	٢٥ - ٢٩ سنة .
..... (حور ددف ؟)	١ - ٥ سنوات .
..... (با - أف - رع ؟)	١ ٥ سنوات .
منكاورع	٢١ - ١١ سنة
سبسكاف	٤ سنوات
..... (جدف - بتاح ؟)	سنتان (؟)

الأسرة الخامسة : ٢٥٦٠ - ٢٤٢٠ ق.م.

أوسركاف	٧ سنوات .
ساحورع	١٤ سنة .
نفر إر كارع	١٢ (؟) سنة .
شبسسكارع	٧ سنوات .
نفرف - رع	٤ (؟) سنوات
نى - وسر - رع	أكثر من ٣٠ سنة - ٣٢ (؟)

منكاو حور	٨ سنوات .
چد كارع (إسيسى)	٢٨ سنة .
أوناس (ون – إس)	٣٠ سنة .

الأسرة السادسة : ٢٤٢٠ – ٢٢٨٠ ق.م.

تتى ١٢ (؟) سنة .

أوسر كارع ٤ (؟) سنوات .

ببى الأول ٢٥ سنة .

مرنرع (مرى – إن – رع) الأول	١٠ سنوات .
ببى الثانى	٩٤ سنة .
مرنرع الثانى	سنة واحدة .
منكارع – نيت إقرتى (نيتو كريس)	سنتان .

عصر الفترة الأولى : (الأسرات ٧ – ١٠) :

٢٢٨٠ – ٢٠٥٢ ق.م.

الأسرة السابعة : ٢٢٨٠ ق.م. سبعون ملكاً حكموا سبعين يوماً حسب رواية مانيتون .

الأسرة الثامنة : ٢٢٨٠ – ٢٢٤٢ ق.م. (حسب ترتيب هيز لملوك هذه الأسرة)

نفر كارع (الأصغر)	٤ سنوات وشهران
نفر كارع – نبى	
چد كارع – شماى	
نفر كارع – خندو	
مرى – ان – حور	
نفر – كا – مين	سنتان وشهر
نى – كا – رع	
نفر – كا – رع – تررو	

نفر – كا – حور

نفر كارع – پپى سنب

نفر – كا – مين – عنو

قا كارع – إبى — سنة وثمانية شهور

واج – كا – رع — أكثر من ٤ سنوات

نفر كا حور (حورس) نثرى – بارو

نفر إر كا رع (حورس) دمج – إب – تاوى

الأسرة التاسعة : ٢٢٤٢ – ٢١٣٣ ق.م.

أختوى الأول – مرى – إب – رع

....

نفر كا رع

أختوى الثانى

ستوت

أختوى الثالث

مرى ....

شد ....

خـ ....

....

....

....

....

الأسرة العاشرة : ٢١٣٣ – ٢٠٥٢ ق.م.

مرى حنحور (؟)

نفر كا رع

أختوى الرابع – واح كا رع

مرى كا رع

أختوى الخامس – نب كا رع

وهناك أربعة ملوك آخرون لا يمكن التأكد من مكان أى واحد منهم فى أى أسرة من هذه الأسرات الثلاث وهم « إتى » وقد عثر على نقش له فى وادى الحمامات و « إيمحوتپ » وعثر على اسمه فى وادى الحمامات أيضاً و« سخم كارع » وقد ورد اسمه فى بردية عثر عليها فى ألفنتين وملك رابع وهو چسر – نوب (؟) وقد ورد اسمه فى نقش من عصر الرعامسة عثر عليه فى سقارة .

الدولة الوسطى – (الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة)

٢١٣٤ – ١٧٧٨ ق.م.

الأسرة الحادية عشرة : ٢١٣٤ – ١٩٩١ ق.م.

إنيوتف (أنتف) الأول (سهر تاوى)	(٢١٣٤ – ٢١٣١) .
إنيوتف الثانى (واح – عنخ)	(٢١٣١ – ٢٠٨٢) .
إنيوتف الثالث (نخت نب تپى نفر)	(٢٠٨٢ – ٢٠٧٩) .
منتوحوتپ الأول (سعنخ – إب – تاوى)	(٢٠٧٩ – ٢٠٦١) .
منتوحوتپ الثانى (نب – حپت – رع)	(٢٠٦١ – ٢٠١٠) .
منتوحوتپ الثالث (سعنخ – كارع)	(٢٠١٠ – ١٩٩٨) .
سنوسرت وآخرون	(١٩٩٨ – ١٩٩٣) .
منتوحوتپ الرابع	(١٩٩٣ – ١٩٩١) .

الأسرة الثانية عشرة : ١٩٩١ – ١٧٧٨ ق.م.

أمنمحات الأول (سحتپ – إب – رع)	(١٩٩١ – ١٩٦٢) .
سنوسرت الأول (خپر – كا – رع	(١٩٧٢ – ١٩٢٨)

(منها ١٠ سنوات حكمها شريكاً فى الملك مع أبيه) .

أمنمحات الثانى (نوب - كارع) (١٨٩٥ - ١٩٣٠)

سنوسرت الثانى (خع - خپر - رع) (١٨٧٩ - ١٨٩٨)

سنوسرت الثالث (خع - كا - رع) (١٨٤١ - ١٨٧٩)

أمنمحات الثالث (نى - ماعت - رع) (١٧٩٢ - ١٨٤١)

أمنمحات الرابع (ماعت - خرو - رع) (١٧٨٢ - ١٧٩٢)

سوبك نفرو (سوبك - كا - رع) (١٧٧٨ - ١٧٨٢)

عصر الفترة الثانية - (الأسرات ١٣ - ١٧)

١٧٧٨ - ١٥٧٠ ق.م.

الأسرة الثالثة عشرة : ١٧٧٨ - ١٦٢٥ ق.م. عاصمتها طيبة ويعرف من أسماء ملوكها ما يقرب من ستين ملكاً اختار منهم هيز الملوك الآتية أسماؤهم من حكم منهم:

(١) سوبك حوتپ الأول (سخم - رع ، خوتاوى أمنمحات)

وقد حكم أكثر من خمس سنوات .

(٢) أمنمحات سنبف (سخم كارع) حكم أكثر من ٣ سنوات .

(٤) أمنمحات (سحتب إب رع) سنة واحدة .

(٦) أمنمحات (سعنخ إب - رع ، أمونى إنيوتف) .

(١١) سوبك حوتپ الثانى بن منترحوتپ أكثر من سنتين .

(١٣) حور (أوا - إب - رع) ٩ شهور .

(١٤) أمنمحات (سچفا - كا - رع - كاى) .

(١٥) وجاف (خو - تاوى - رع) سنتان وأربعة شهور .

سنوسرت الرابع (سنفر - إب - رع) .

(١٦) خنچر الأول (وسر - كا - رع) أكثر من ٤ سنوات .

(١٧) سمنخ كارع أكثر من ٣ سنوات .

(١٨) نفر كارع

(١٩) ؟ خنجر الثانى (نى خع نى ماعت رع) .

(٢٠) سوبك حوتب الثالث (سخم - رع - سواز - تاوى)

٣ سنــوات وشهريـــن .

(٢١) نفر حوتب (خع - سخم - رع) ١١ سنة .

(حوالى ١٧٤٠ - ١٧٢٩ ق.م.) .

(٢٣) سوبك حوتب الرابع (خع - نفر - رع) .

(٢٤) سوبك حوتب الخامس (خع - حوتب - رع) ٥ سنوات وتسعة شهور .

(٢٥) أيع - إبى (واح - إب - رع) ١٠ سنوات وتسعة شهور .

(٢٦) إيى (مر - نفر - رع) ١٣ سنة وتسعــة شهـور .

(٣٦) دودى - مس الأول (جد - نفر - رع) حــوالى عام ١٦٧٥ ق.م.

نب جد رع

نفر عنخ رع

نفر خپر رع

(٥٢) نحسى

(٥٤) نب - فاو - رع سنة وخمسة شهور .

الأسرة الرابعة عشرة : (عاصمتـهـا فى سخـا) ١٧٧٨ - ١٥٩٤ ق.م. وعدد ملوكـهـا ٧٦ مـلكاً حكمـوا ١٨٤ سنة كـمـا ذكـر الأفـريقى فـيـمـا نقله عن تاريخ مانيتون وذكرت بردية تورين ٧٢ من أسمائهم .

الأسرة الخامسة عشرة : ١٦٧٥ - ١٥٦٧ ق.م. الهكسوس

ششى (مع - إب - رع) ٣ سنوات .

يعقوب - هر (مر - وسر - رع) ٨ سنوات .

خيان (سا - أوسر - ان - رع) .

إپيپى الأول ، أبو فيس ، (عا - أوسر - رع) أكثر من أربعين سنة .

إپيپى الثانى (عا - قنن - رع) .

خامودى (عا – سح – رع) .

الأسرة السادسة عشرة : ١٦٧٠ (؟) – ١٥٦٧ ق.م. الهكسوس .

عنت – هر

سمقن

خع – أوسر – رع

ا – حوتپ – رع

سخع – أن – رع

عامو

أبيبى الثالث (؟) (نب – خبش – رع) .

الأسرة السابعة عشرة : ١٦٦٠ (؟) ١٩٥٧ ق.م. الأسرة الطيبية

رع – حوتپ (سخم رع – واح – خاعو) .

إنيوتف الخامس (سخم رع – وپ – ماعت) ٣ سنوات .

إنيوتف السادس (سخم رع – حرو – حر – ماعت) أقل من سنة .

سوبك أم ساف الثانى (سخم رع – شد تاوى) ١٦ سنة .

تحوتى (سخم رع – سمن – تاوى) سنة واحدة .

منتوحوتپ الخامس (سعنخ – إن – رع) سنة واحدة .

نب – إرى – إر – أوت الأول (سواج – إن – رع) ٦ سنوات .

نب – إرى – إر – أوت الثانى (نفر كارع (؟) أقل من سنة .

سمن – نفر – رع

سا – أوسر – إن – رع ١٢ سنة .

شد واست (سخم رع)

وربما كان حكمهم بين ١٦٦٠ – ١٥٦٧ ق.م.) .

إنيوتف السابع أكثر من ٣ سنوات .

سنخت – إن – رع

سقننرع (تاعا الأول - « الأكبر »)

سقننرع (تاعا الثانى - « الشجاع »)

كامس (واج - خپر - رع)

الدولة الحديثة : (الأسرات ١٨ - ٢٠)

١٥٧٠ - ١٠٨٠ ق.م.

الأسرة الثامنة عشرة : ١٥٧٠ - ١٣٠٤ ق.م.

أحمس الأول (نب - پحتى - رع)	(١٥٧٠ - ١٥٤٦)
أمنحوتب الأول (چسر - كا - رع)	(١٥٤٦ - ١٥٢٥)
تحوتمس الأول (عا - خپر - كا - رع)	(١٥٢٥ - ١٤٩٥)
تحوتمس الثانى (عا - خپر - إن - رع)	(١٤٩٥ - ١٤٩٠)
حتشپسوت (ماعت - كا - رع)	(١٤٩٠ - ١٤٦٩)
تحوتمس الثالث (من - خپر - رع)	(١٤٩٠ - ١٤٣٦)
أمنحوتب الثانى (عا - خپرو - رع)	(١٤٣٦ - ١٤١١)
تحوتمس الرابع (من - خپرو - رع)	(١٤١١ - ١٣٩٧)
أمنحوتب الثالث (نب - ماعت - رع)	(١٣٩٧ - ١٣٦٠)
أمنحوتب الرابع - إخناتون (نفر - خپرو - رع)	(١٣٧٠ - ١٣٤٩)
سمنخ كارع (عنخ - خپرو - رع)	(١٣٥١ - ١٣٤٨)
توت عنخ أمون (نب - خپرو - رع)	(١٣٤٨ - ١٣٣٧)
آى (خپر - خپرو - رع)	(١٣٣٧ - ١٣٣٤)
حور محب (چسر - خپرو - رع)	(١٣٣٤ - ١٣٠٤)

الأسرة التاسعة عشرة : ١٣٠٤ - ١١٩٥ ق.م.

رمسيس الأول (من - پحتى - رع)	(١٣٠٤ - ١٣٠٣)

سيتى الاول (من – ماعت – رع) (١٣٠٣ – ١٢٩٠)

رمسيس الثانى (أوسر - ماعت – رع) (١٢٩٠ – ١٢٢٣)

منفتاح ، مرى – إن – بتاح ، (با – إن – رع) (١٢٢٣ – ١٢١١)

أمون مس – سى (من – مى – رع) (١٢١١ – ١٢٠١)

سيتى الثانى (أوسر خپرو – رع) (١٢٠٧ – ١٢٠٢)

تا – وسرت (سيت – رع ، مريت – أمون) (١٢٠٢ – ١١٩٥)

سى – پتاح (آخ – ان – رع ، مرى – إن پتاح) (١٢٠٢ – ١١٩٥)

الأسرة العشرون: ١١٩٥ – ١٠٨٠ ق.م.

ست نخت (أوسر – خعو – رع) (١١٩٥ – ١١٩٢)

رمسيس الثالث (أوسر – ماعت – رع : مرى – أمون)

(١٩٩٢ – ١١٦٠)

رمسيس الرابع (خف – ماعت – رع) (١١٦٠ – ١١٤٥)

رمسيس الخامس (أوسر – ماعت – رع : سخپر – إن – رع)

(١١٥٤ – ١١٥٠)

رمسيس السادس (نب – ماعت – رع) (١١٥٠ – ١١٤٥)

رمسيس السابع (أوسر – ماعت – رع : آخ – إن – أمون)

(١١٤٥ – ١١٤٤)

رمسيس الثامن (أوسر - ماعت - رع : مرى – أمون)

(١١٤٤ – ١١٣٧)

رمسيس التاسع (نفر – كا – رع) (١١٣٧ – ١١١٨)

رمسيس العاشر (خپر ماعت – رع) (١١١٨ – ١١١٠)

رمسيس الحادى عشر (من – ماعت – رع : ستپ – ان – پتاح)

([illegible] ١٠٨٠)

العصر المتأخر : (الأسرات ٢١ – ٣٠)

١٠٨٥ – ٣٣٢ق.م.

الأسرة الواحدة والعشرون : ١٠٨٥ – ٩٥٠ ق.م.

سمندس (نسو بانب جدت) فى تانيس حريحور ..... فى طيبة
(١٠٨٥ – ١٠٥٤)

بسوسينيس (پاسبا خع ان نيوت) فى تانيس بينزم .... فى طيبة
(١٠٥٤ – ١٠٠٩)

أمنمأوبت (فى تانيس) (١٠٠٩ – ١٠٠٠)

س – أمون (فى تانيس) (١٠٠٠ – ٩٨٤)

بسوسينيس الثانى (فى تانيس) (٩٨٤ – ٩٥٠)

الأسرة الثانية والعشرون : ٩٥٠ – ٨١٧ ق.م.

شاشانق الأول (٩٥٠ – ٩٢٩)

أوسوركون الأول (٩٢٩ – ٨٩٣)

تكلوت الأول (٨٩٣ – ٨٧٠)

أوسوركون الثانى (٨٧٠ – ٨٤١)

شاشانق الثانى (٨٤٧)

شاشانق الثالث (٨٢٣ – ٧٧٢)

پامو (٧٧٢ – ٧٦٧)

شاشانق الخامس (٧٦٧ – ٧٣٠)

الأسرة الثالثة والعشرون : ٨١٧ (؟) – ٧٣٠ ق.م. (تل بسطة)

پدى باست ٨١٧ (؟) – ٨٦٣ (؟)

شاشانق الرابع ٧٦٣ (؟) – ٧٥٧ (؟)

أوسوركون الثالث ٧٥٧ (؟) – ٧٤٨ (؟)

تكلوت الثالث (٧٤٨ (؟) – ٧٣٠)

أمون رود (٧٤٨ (؟) – ٧٣٠)

أوسوركون الرابع (٧٤٨ (؟) – ٧٣٠)

الأسرة الرابعة والعشرون : ٧٣٠ – ٧١٥ ق.م. (صا الحجر)

تف نخت (٧٣٠ – ٧٢٠)

بكوريس (باك إن رنف) (٧٢٠ – ٧١٥)

الأسرة الخامسة والعشرون : ٧٥١ – ٦٥٦ ق.م. (الأسرة الكوشية)

بعنخى (٧٥١ – ٧١٦)

شاباكا (٧١٦ – ٧٠١)

طهرقا (٦٨٩ – ٦٦٣)

شبتاكا (٧٠١ – ٦٨٩)

تانوت أماني (٦٦٣ – ٦٥٦)

الأسرة السادسة والعشرون : ٦٥٦ – ٥٢٥ ق.م.

پسمتك الأول (٦٦٣ – ٦٠٩)

نكاو (٦٠٩ – ٥٩٤)

پسمتك الثانى (٥٩٤ – ٥٨٨)

پوريس (واح إب رع) (٥٨٨ – ٥٦٨)

أحمس الثانى (أمازيس) (٥٦٨ – ٥٢٦)

پسمتك الثالث (٥٢٦ – ٥٢٥)

الأسرة السابعة والعشرون : ٥٢٥ – ٤٠٤ ق.م.

قمبيز (٥٢٥ – ٥٢٢)

دارا الأول (داريوس) (٥٢٢ – ٤٨٥)

حشيارشا (كسركسيس) (٤٨٥ – ٤٦٤)

أرتخشاشا (ارتكسركسيس) (٤٦٤ – ٤٢٤)

دارا الثانى (٤٢٤ – ٤٠٤)

الأسرة الثامنة والعشرون : ٤٠٤ – ٣٩٨ ق.م.

أمون حر (أميرتايوس) (٤٠٤ – ٣٩٨)

الأسرة التاسعة والعشرون : ٣٩٨ – ٣٧٨ ق.م.

نفريتس الأول (نايف عاو رود) (٣٩٨ – ٣٩٢)

هكر (أكوريس) (٣٩٢ – ٣٨٠)

پى ساموت (پساموتيس) (٣٨٠ – ٣٧٩)

نفريتس الثانى (نايف عاو رود) (٣٧٩ – ٣٧٨)

الأسرة الثلاثون : ٣٧٨ – ٣٤١ ق.م.

نختنبو الثانى (نخت حر حب) (٣٥٩ – ٣٤١)

الغزو الفارسى الثانى : ٣٤١ – ٣٣٢ ق.م.

(ويطلق بعض المؤرخين على هذه الفترة اسم الأسرة الحادية والثلاثين)

أرتخشاشا (أرتكسركسيس) الثالث ، أوخوس ، (٣٤١ – ٣٣٨)

أرسيس (٣٣٨ – ٣٣٥)

دارا الثالث فى مصر (٣٣٥ – ٣٣٢)

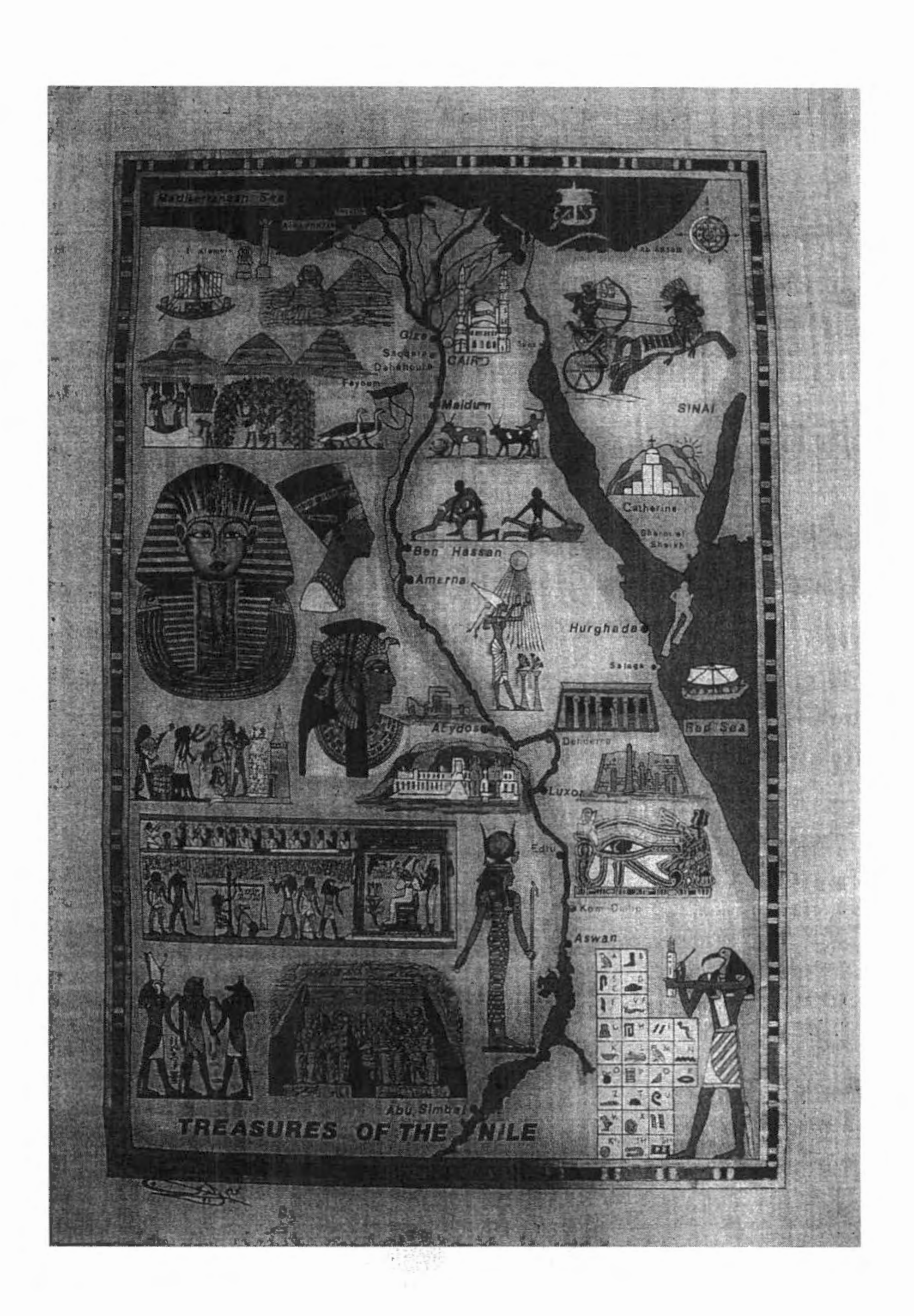
الإسكندر الأكبر فى مصر : ٣٣٢

العصر البطلمى : ٣٣٢ – ٣٠ ق.م.

العصر الرومانى : ٣٠ ق.م. – ٣٩٥ ميلادية

العصر البيزنطى : ٣٩٥ – ٦٣٨ ميلادية

الفتح العربى : ٦٤٠ ميلادية


Giza
Saqqara
CAIRO
Fayoum
Maidum
SINAI
Catherine
Ben Hassan
Amarna
Hurghada
Abydos
Red Sea
Luxor
Edfu
Aswan
Abu Simbel
TREASURES OF THE NILE

الفصل الأول

مولد الحضارة ونشأتها

- منذ أقدم العصور حتى بدء الأسرة الأولى حوالي عام ٣٢٠٠ ق.م.



خريطة مصر القديمة، تبين المدن الرئيسية وأماكن من عصر الاسر (ج)٣١٥٠ قبل الميلاد إلى ٣٠ قبل الميلاد

مولد الحضارة ونشأتها

طبيعة أرض مصر - أقدم العصور والحضارات - أهم المصادر لدراسة تاريخ مصر الفرعونية

(منذ أقدم العصور حتى بدء الأسرة الأولى حوالى عام ٣٢٠٠ ق.م.)

عند ملتقى آسيا وإفريقيا وأوروبا ، وحيث يتصل البحران الأبيض والأحمر يجرى نهر النيل ، ذلك النهر الكريم الوهاب ، وعلى شاطئيه يعيش المصريون منذ آلاف السنين يزرعون الأرض الخصبة المباركة .

ومن آلاف السنين أيضاً بدأ المصريون يخطون نحو المدنية ، وكانت خطاهم وئيدة فى البداية ، ثم أخذوا يسرعون فى تلك الخطى وكونوا حضارة هى ما نسميه الحضارة المصرية التى نشأت وترعرعت فى وادى النيل ، ولم يقتصر خيرها على المصريين وحدهم بل كان لها فضل غير قليل على من اتصل بالمصريين من الشعوب. ومن الخطأ أن يعتقد إنسان أن المصريين عاشوا فى وحدة ولم يتصلوا بغيرهم ، أو أنهم لم يتأثروا بمن كان يعيش فى ذلك الحين من شعوب الشرق القديم ، ولكن ذلك الاتصال كان محدود الأثر . ويمكننا أن نتتبع تطور تلك الحضارة على مدى الأجيال ، ولكن قبل أن نتكلم عن تاريخ مصر الفرعونية وحضارة المصريين القدماء منذ أقدم العصور يحسن بنا أن نقف قليلاً لنلم ببعض ما يجب الإلمام به عن طبيعة وادى النيل ، وبخاصة الجزء الأسفل منه ، وهو ما يسمى بأرض مصر .

طبيعة أرض مصر :

يرتبط تاريخ أى شعب إرتباطاً كبيراً بطبيعة أرضه ، ولهذا وجب علينا أن نلقى نظرة على طبيعة الأرض المصرية لنعرف مدى أثرها على حضارة تلك البلاد ، إذ أن لطبيعة الأرض أثراً عظيماً على تطور حضارتها ، بل أن هذا الأثر ما زال مستمراً إلى يومنا هذا ، وله وزن كبير فى تطور أحداثها التاريخية .

وإذا ألقينا نظرة على خريطة الإقليم المصرى فى الجمهورية العربية المتحدة لوجدنا أن مصر تتكون من سبع مناطق جغرافية وهى [1] :

١ – وادى النيل ، بما فيه الدلتا والصعيد .

٢ – محافظة الفيوم . ٣ – منطقة قنال السويس .

٤ – الصحراء الغربية ٥ – الصحراء الشرقية .

٦ – شبه جزيرة سيناء ٧ – جزر البحر الأحمر .

ومجموع مساحتها كلها حوالى مليون كيلو متر مربع ، منها ٣٧,٠٠٠ كيلو متر مربع تقريباً ، هى الوادى الآهل بالسكان ، أما الباقى فهو صحارى ، وبعبارة أخرى لا تزيد مساحة الجزء العامر من الأراضى المصرية عن ٤ ٪ من مساحة مصر ، أما الباقى فهو صحارى تكاد تكون خالية من الزراعة .

ويسكن ٩٩ ٪ من المصريين الذين يبلغ عددهم زهاء خمسة وعشرين مليوناً فى هذا الجزء البسيط من الجمهورية أى بمعدل أكثر من ٧٠٠ شخص للكيلو متر المربع الواحد بينما لا يسكن فى الجزء الباقى وهو ٩٦ ٪ من مجموعة المساحة أكثر من ١٣٠,٠٠٠ أى أن متوسط السكان فى الصحراء هو أكثر من سبعة كيلو مترات مربعة للشخص الواحد .

ولهذا يسهل علينا أن نفهم قيمة نهر النيل لمصر ، إذ لولا وجوده لكانت تلك الأراضى المزروعة التى يعيش فيها أكثر السكان ، صحراء مثل تلك التى على يمينها وعلى يسارها ، والتى تمتد من المحيط الأطلسى حتى بلاد العرب ؛ لأن هذه المنطقة أصبحت الآن (أى خلال الستة آلاف سنة الأخيرة) قليلة الأمطار ولا يزيد متوسط كمية الأمطار فى بعض جهات شاطىء البحر الأبيض عن ٢٠ سنتيمتراً فى السنة ، وفى القاهرة ٣ سم وفى أسيوط نصف سنتيمتر ، أى أنه لا يمكن أن تكفى لزراعة أى محصول بعيداً عن الشاطىء ، إذا كان الاعتماد على المطر وحده .

وطول الإقليم المصرى من الشمال إلى الجنوب ١٠٧٣ كيلو مترا ، وعرضه ١٢٢٦ كيلو مترا ، أى أن مساحة مصر تزيد على مساحة أى دولة فى أوربا ما عدا الاتحاد السوفيتى ، ولكن الصحراء تكون الجزء الأكبر منها كما سبق القول .

ويشق النيل طريقه فى واديه ، فيسير بين هضبتين يختلف اتساع الوادى بينهما من آن لآخر (طول وادى النيل بأكمله ٦٦٧١ كيلو مترا منها ١٥٣٠ فى الأراضى المصرية) ، وهذا الوادى ضيق جداً بين الشلال الثانى وأسوان وعلى جانبيه بعض الصخور الجرانيتية ، ولكنه يبدأ فى الاتساع بعد ذلك . ويضيق أحياناً أخرى ، هو فى المتوسط ١٠ كيلو مترات منها ٣/٤ كيلو متر للنيل نفسه ، أما الدلتا فهى مكونة من

طمى النيل ، وتخلو من الجبال ومسطحها نحو ٢٢,٠٠٠ كيلو متر مربع ولا تزيد مساحة المزروع منها عن النصف إلا قليلا .

العصور الجيولوجية :

ومرت على مصر عصور جيولوجية متعددة قبل أن تصبح آهلة بسكانها . ففى عصر الإيوسين (Eocene) كانت تصل مياه البحر الأبيض المتوسط إلى جنوبى إسنا، ثم حدث ارتفاع فى الأراضى فى عصر الأوليجوسين (Oligocene) أدى الى ظهور أكثر القطر المصرى .

وفى عصر الميوسين (Miocene) كان النيل قد إتخذ مجراه الحالى تقريبا واتصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر ؛ ولكن لم يأت آخر هذا العصر حتى انفصل البحران مرة أخرى عن بعضهما .

كان اتصال النيل بالبحر الأبيض المتوسط عند موقع القاهرة تقريبا ، وكانت له عدة روافد فى الصحراء الشرقية لم يبق منها غير أثر مجاريها فى الوديان هناك .

وفى عصر البليوسين (Pliocene) حدثت هزةأرضية كبرى أعادت اتصال البحر الأحمر بالبحر الأبيض . ولكن هذا الاتصال كان بوساطة جزء ضيق وهو الذى بقى منه فى العصور التاريخية خليج السويس . وبعض البحيرات .

وأخذ النيل يلقى برواسبه فى الفجوة التى كان يصب فيها ، وكون لنفسه فى تلك الأراضى الجديدة نحو عشرة فروع .

لم يأت العصر الباليوليتى على مصر (Paleolithic) حتى كانت روافد النيل فى الصحراء الشرقية قد جفت ، وانفصم خليج السويس عن البحر الأبيض وانكمش خليج العقبة إلى ما يقرب من شكله الحالى ، مع أن نهايته كانت عند منخفض البحر الميت فى فلسطين ، وظهرت أيضاً محافظة الفيوم إذ سار فرع من النيل إلى ذلك المنخفض الشبيه بالواحة ، وعادت عوامل الطبيعة فجففت فرعا للنيل كان يسير فى الصحراء الغربية منذ عصر الميوسين وبقى حتى نهاية عصر البليوسين .

أما النيل نفسه ، فكان فى البداية سريع المجرى ويملأ الوادى أثناء الفيضان ولكنه أخذ يعمق مجراه مع مرور الزمن ، كما أخذت تقل كمية الأمطار ، فأخذ عرضه يقل تبعا لذلك وكون مدرجات على مدى العصور . وعاش الإنسان القديم فوق تلك المدرجات ، وترك بعض أدواته الظرانية (الصوانية) فوق الهضاب ثم أخذ ينزل تدريجياً ليكون على مقربة من النهر كلما تقدم به الزمن وعمق النهر مجراه .

عصر ما قبل التاريخ :

كان السكان الذين يعيشون على مقربة من نهر النيل يعتمدون على الصيد ، وكذلك فعل الذين كانوا يعيشون فى الصحراء معتمدين على نزول الأمطار التى كانت تملأ بعض المنخفضات فتحيلها إلى بحيرات ، تنبت حولها الأشجار والأحراش ، وتغذيها مياه الأمطار التى تنزل فيها ومجارى الوديان المختلفة التى تصب فى تلك المنخفضات .

وكثيراً ما يعثر الباحثون على أدوات ظرانية وأخشاب متحجرة داخل الصحراء، ولكن لم يصل إلى أيدى العلماء حتى الآن أى عظام أو بقايا أخرى من ذلك الإنسان الذى عاش فى العصر الحجرى فى تلك المناطق أو على جانبى النيل . ولهذا نعتمد فقط على تلك الأدوات الحجرية عند الكتابة عن هؤلاء السكان ومقارنة حضارتهم بحضارة غيرهم من الشعوب .

كان المصرى فى ذلك الوقت جامعاً للقوت يحصل على حاجته مما يجده من ثمارالأشجار ومما يستطيع أن يصطاده من أسماك النهر والبحيرات ، أو من الطيور وصغار الحيوانات . ومثل هذه الحياة تستلزم التنقل الدائم ، ولا تحتاج إلى ضرورة إقامة العائلات على مقربة من بعضها ، كما أنها لا تحتاج إلى أثاث ثقيل يحمله الإنسان معه .

وجاء اليوم الذى عرف فيه الإنسان أنه يستطيع أن يستنبت بعض حبوب النباتات البرية ويحصل منها على كميات كبيرة بعد زرعها ، وبعبارة أخرى أخذ المصرى يتحول تدريجياً من جامع للقوت إلى منتج له ، فأجبرته الزراعة على الإقامة فى مكان معين ليرعى حقله وليحصل على ثماره ، كما بدأ الإنسان يستأنس الحيوانات أيضاً ، ويبنى له مستقرا يأوى إليه ويضع فيه محصوله ، كما بدأ أيضا يصنع من بعض النباتات ومن الطين أوان لحفظ حاجياته . وعندما وصل الإنسان إلى هذه المرحلة ، أى بعد ترك اعتماده على حياة الصيد وجمع القوت اعتمادا كاملا ، أخذ يودع حياة العصر الحجرى القديم ، وأخذ يبدأ العصر الحجرى المتوسط الذى حسن فيه الإنسان بعض أدواته وأخذ يرتقى قليلا قليلا فى مدارج المدنية ، وبدأ يتحلى ببعض أدوات الزينة ، وما جاء العصر النيوليتى أو العصر الحجرى الحديث حتى كان هذا الإنسان يعيش فى قرى صغيرة ، وعرف الملابس وبدأ يدفن موتاه فى قبور ، وبدأ يصنع بعض التماثيل وأدوات الزينة .

ومن بين أقدم الحضارات التى عثر عليها العلماء فى وادى النيل بوجه عام

حضارة الخرطوم التى يرجع تاريخها إلى ما بين عامى ٥٠٠٠ ، ٤٧٠٠ ق.م. وقد ظهرت بقاياها أثناء الحرب العالمية الثانية ، وهى حضارة لا شك فى صلتها بحضارة شمال الوادى ولكنها كانت متأثرة بطابع محلى أملته صلة السكان بغيرهم ممن كانوا يعيشون إلى الجنوب منهم . وكان سكان الخرطوم القدماء على درجة من التقدم جعلتهم يصنعون أدوات مختلفة من الحجر ومن العظم ، ويتحلون بالخرز والعقود المصنوعة من بيض النعام . وعرفوا صناعة الفخار وزخرفته بوساطة أجزاء من السلسلة الفقرية لبعض الأسماك تشبه المشط يديرونه حول الإناء قبل أن يجف ، كما كانوا يزخرفون الأوانى بوساطة الحبال أو أصابع اليد ، وكان هؤلاء السكان يعيشون على مرتفع غير بعيد من النهر يقضون فيه جزءاً من السنة فقط .

وليس لدينا دليل قاطع على أنهم مارسوا الزراعة رغم معرفتهم للفخار الذى يلازم الناس عندما يتحولون إلى الزراعة ويصبحون منتجين للقوت .

وهناك وجوه شبه عدة بين فخار الخرطوم وفخار البدارى وما عثر عليه المنقبون فى النوبة وفى غربى السودان مما يدل على انتشار ثقافة واحدة فى جزء كبير من هذا الجزء من العالم فى ذلك العهد . (١)

وتسمى الفترة بين بداية العصر النيوليتى (أى العصر الحجرى الحديث) وبين ظهور الأسرات فى مصر ، وتقرب من ألفى سنة ، العصر الحجرى النحاسى (Chal-colithic Period) أحياناً ، ويعنينا منها فى هذه المرحلة ما كان فى مصر قبل عام ٤٠٠٠ ق.م ونستطيع أن نقول إنه كان لكل من حضارتى الدلتا والصعيد مميزات خاصة ، ففى الدلتا تأثرت الحضارة بما كان فى شرقى مصر وغربيها لاتصالها بأهل فلسطين وسورية وجزر البحر الأبيض المتوسط من ناحية وشمالى إفريقيا من ناحية أخرى . أما فى الصعيد فقد اتصلت عن طريق الشرق أى عن طريق البحر الأحمر ببعض الثقافات الأخرى الحامية والسامية كما اتصلت أيضا بالشعوب التى كانت إلى جنوبى مصر .

وأقدم حضارات الشمال (أى الدلتا) هى حضارة الفيوم التى كانت لقوم ربما نزحوا من الغرب واستقروا على حافة البحيرة ، ثم تليها حضارة مرمدة وكلاهما كان قبل عام ٤٠٠٠ ق.م. ثم تلتها بعد ذلك حضارة جرزة ثم المعادى ، أما الصعيد فإن

أقدم الحضارات هى حضارة تاسا ثم البدارى وبعدها حضارة العمرة [١] . ويكفينا أن نتكلم على مميزات حضارتى مرمدة فى غربى الدلتا والبدارى فى محافظة أسيوط لأنهما تمثلان بوجه عام مصر وجنوبيها .

حضارة مرمدة :

عثر الأستاذ هرمان يونكر على هذه الحضارة فى عام ١٩٢٨ ، ولم ينشر حتى الآن مؤلفه الكامل عنها ، وكل ما نعرفه مستمد من تقاريره السنوية التى نشرها بين أعوام ١٩٢٩ ، ١٩٤٠ وهذه المنطقة هى بقايا قرية نيوليتية على حافة الدلتا الغربية ، لا يزيد حجمها على ستة أفدنة (٦٠٠ × ٤٠٠ متر) ، شيد أهلها أكواخهم المبنية بالطين على جانبى طريق رئيسى مستقيم .

وقد ثبت أن سكان مرمدة كانوا يعرفون الزراعة وكانوا متعاونين فيما بينهم ويخزنون غلاتهم فى صوامع مشتركة لهم جميعاً ، وكان لديهم قطعان من الماشية والخنازير وقليل من الماعز والخراف .

واستعملوا فى الزراعة شرشرة مستقيمة من الخشب ثبتوا فى حافتها قطعاً من الظران ليقطعوا بها أعواد القمح التى كانوا يخزنونها فى صوامعهم التى صنعوها من الخوص ، وكانوا يضعونها فى حفر عميقة تحت مستوى سطح الأرض . وعرف أهل مرمدة فأس القتال كما عرفوا استعمال السهام وكان لديهم دبابيس للحرب وسكاكين من الظران .

ولا يخالجنا شك فى أن سكان مرمدة كانوا يلبسون الكتان بعد غزله ، وأن نساءهم كن يتحلين بعقود من المحار أو أسنان الخنزير البرى ، وبخواتم من العظم وحلقان من العاج . وكان لكل امرأة لوح من حجر الإردواز تصحن عليه التوتية الخضراء لتكحيل عينيها لأجل التجمل ولوقايتها من أشعة الشمس ، وربما أيضاً ضد بعض أمراض العيون . وفخارهم أسود خشن ، وشكله على هيئة قرب الماء ، ومنه بعض أنواع ذات قواعد ، وأوان صغيرة على شكل فناجين ذات أرجل ، وأحياناً يتصل اثنان منها ببعضهما . وكان لديهم أوان طويلة العنق تشبه القلة الحديثة ، كما صنعوا أيضاً صوان صغيرة من الفخار . ولم يزخرف سكان مرمدة أوانيهم ولم يصنعوا لها أيادٍ على جانبيها ولكنهم كانوا يعملون ثقوباً فى جوانبها لتعليقها .

ومن أهم ما عثر عليه يونكر فى منازل تلك القرية وجود أعمدة فى بعض المنازل لحمل السقف . أقاموها فى وسط الحجرة . كما عثر فى ركن إحدى الحجرات على عظمة كبيرة من عظام فرس البحر كانت مثبتة لاستعمالها سلماً للصعود إلى السطح . وكانوا يدفنون موتاهم تحت أرضية أكواخهم كما فعل كثيرون من سكان الشرق القديم دون أن يضعوا معهم أوان أو أسلحة .

وقد ثبت من فحص بقايا الهياكل العظمية لهؤلاء السكان أنهم كانوا فرعاً من جنس سكان البحر الأبيض المتوسط ذوى رؤوس تميل الى الاستطالة وجباههم عريضة ، وهم فرع من حضارة انتشرت على شاطىء إفريقيا الشمالى ووصلت إلى أوروبا حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م.

ولم تتصل حضارة مرمدة بحضارة البدارى إتصالاً مباشراً أو كان لها أثر مهم عليها ، بل إستمرت فى الدلتا .

حضارة البداري :

لم يكن سكان الصعيد ، فى ذلك الوقت ، قد إستقروا فى مدن أو قرى كبيرة ثابتة ، بل كانوا يسكنون فى محلات أو نجوع متنقلة ، ولكنهم إختاروا أماكن يدفنون فيها موتاهم وهى الجبانات . وإذا درسنا حضارة البدارى لرأينا فيها شبهاً كبيراً بحضارة سكان الصحراء الغربية القدماء وبخاصة أهل العوينات ولرأينا أنها لم تخل من التأثر بالحاميين . ولسنا نعرف حتى الآن أى مكان شمالى محافظة أسيوط تأثر بهذه الحضارة ، بل كان إنتشارها إلى الجنوب ، ونراها فى بلاد النوبة أيضاً بل وأبعد من ذلك .

كان الجو فى ذلك العهد أكثر أمطاراً ودفئاً عما هو عليه الآن ، وكان السكان يعيشون فوق المرتفعات التى تشرف على المساحات الواسعة من الأحراش والمستنقعات الملأى بالنباتات المختلفة وبخاصة نبات البردى . ولم يبق إلا القليل من القرية أو القرى التى عاشوا فيها ، وأكثر ما وصلنا من معلومات عن أهلها إنما جاء من حفائر الجبانات الكثيرة . وكان البداريون أقرب إلى القصر منهم إلى الطول إذ لم يزيدوا فى المتوسط عن ١٦٠ سنتيمتراً . وكانوا نحاف الجسم ، وتقطايع وجوههم دقيقة ، وشعرهم متموج أسود ، وفى بعض الحالات القليلة كان لون شعورهم كستنائياً . وكان الرجال يرسلون شعورهم على أكتافهم ، بينما كان شعر النساء أقصر من شعر الرجال ولم يزد طول شعر امرأة فيهم عن ٢٠ سنتيمترا يضفرنه فى غدائر ، وكان رجال البدارى يعنون بمظهرهم الخارجى ، فيحلقون لحاهم ، ويضعون طاقية فوق رؤوسهم . وعرف

البداريون الملابس الكتانية ، كانوا يلبسونها رجالاً ونساء وأطفالا ، وعند اشتداد البرد كانوا يلبسون الجلود وصوفها إلى الداخل ، كما عرفوا أيضاً دبغ الجلود .

وكانوا يحلون أعناقهم وأذرعهم بالعقود والأساور المصنوعة غالباً من حبات مزججة ، وكانوا يزينون شعورهم بوضع الريش فيها ، وأحياناً بوضع أمشاط طويلة من العاج زينت رؤوسها بأشكال الحيوانات ، كما كان يضع بعضهم حول شعورهم عصابات زاهية اللون محلاة بأصداف البحر الأحمر .

ومن أهم ما عثر عليه فى مقابرهم بعض حبات من النحاس المطروق ، كما إستخدموا فى حليهم حبات من الفيروز والعقيق والكوارتز ، وحبات مصنوعة من قشر بيض النعام . وكان بعض النساء يحلين أنوفهم بوضع زر صغير ، يثبتون نتوءاً صغيراً فى أحد طرفيه فى ثقب داخل الأنف ، وعرفت النساء إستعمال الكحل للعيون واللون الأحمر للشفاه .

أما مساكنهم فكانت بسيطة بدائية ، وضعوا فيها الأثاث البسيط ، منها أسرة خشبية قليلة الارتفاع ، كما كانوا يستعملون وسادات من الجلد أو الكتان المحشو بالتبن.

ومن بين أدواتهم عثر على عصى للرماية وشصوص لصيد السمك ، والحراب والسهام ، كما عثر أيضاً على نماذج للقوارب .

ووضعوا موتاهم فى قبورهم أحياناً فوق الأسرة ، أو ملفوفة فى حصير ، ولم يقتصر الدفن على البشر بل أن بعضهم دفن معه غزلانا وقططا ، وكانوا يضعون رؤوس الموتى فوق وسائد ، ويحرصون على أن تكون وجوهها نحو مطلع الشمس مهما كان مكان القبر أو اتجاهه فى الجبانة .

ويمتاز فخار البدارى بإتقانه وجمال زخارفه وصلابة مادته ، ورقة جدران أوانيه ، ولا شك أن البداريين آمنوا بالبعث ، وكانوا يضعون معهم فى قبورهم بعض تماثيل قليلة للحيوانات وبخاصة فرس النهر ، وهناك تماثيل أخرى للنساء وللطيور ، ولكن ذلك لا يعنى أنهم كانوا حتما يعبدون تلك الحيوانات .

ولو أمعنا النظر فى هذه الحضارات لوجدنا أنها تشبه فى كثير من مظاهرها حياة بعض سكان شرقى إفريقيا اليوم وبخاصة قبائل البشارية والهادندوة وبعض قبائل الصومال وكلهم من الجنس الحامى الأصل .

ولا تقتصر المقارنة على إفريقيا فقط بل إنها تمتد إلى جنوبى الجزيرة العربية ، ومتى أمكننا دراسة تلك الشعوب المختلفة دراسة كاملة أمكننا أن نحدد ما يربطها

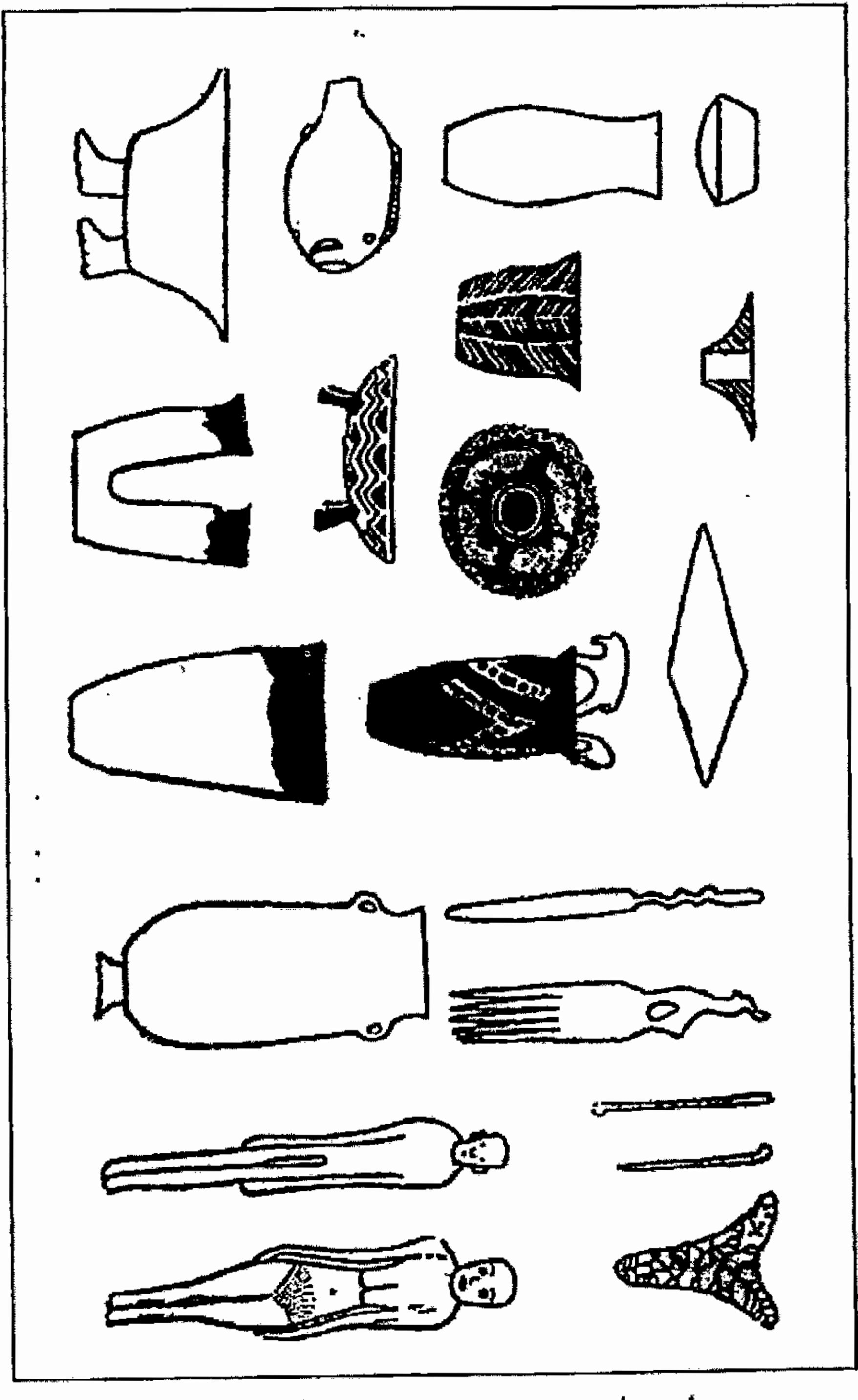
بالمصريين القدماء من صلات ، ولكن هذه الدراسات ما زالت في بدايتها حتى الآن (١) .

نظرة عامة في عصر ما قبل الأسرات

والآن وقد عرفنا شيئا عن حضارتي مرمدة والبداري ، كلاهما يرجع تاريخه إلى حوالي عام ٤٤٠٠ ق.م. يمكننا أن نلخص حياة المصريين القدماء في ذلك العهد بأنهم كانوا قد عرفوا الزراعة واستخدام معدن النحاس ، ولو في نطاق ضيق ، كما بدأوا حياة متحضرة بعض الشيء . وتقدمت الأيام ، وتقدم معها إرتقاء السكان ، واضطرتهم حياة الاستقرار إلى التعاون فيما بينهم ، فقد كان لزاماً عليهم أن يشقوا القنوات ليوصلوا مياه النيل إلى الأماكن البعيدة عن النهر ، كما اضطروا أيضاً إلى تجفيف بعض المستنقعات وإخلائها من الأشجار ، كما اضطروا للتعاون على حماية أنفسهم وقراهم ومحاصيلهم من أخطار فيضان النيل . كانت هذه الأعمال جميعاً تستلزم تعاون عدد كبير من الناس ، وتستلزم أيضاً وجود زعيم يحترم الجميع أوامره فينفذوها ويخاف الناس عقابه إذا لزم الأمر . وفرضت طبيعة أرض مصر أن يتجمع عدد كبير من السكان في قرى قريبة من بعضها في الأماكن التي يتسع فيها الوادي ، فلم يمض وقت طويل حتى تكونت وحدات إقليمية كان لكل منها زعيم له السلطة على من حوله .

وحدث مثل ذلك في الدلتا أيضاً ، وكان العامل الأساسي في تحديد أقاليمها المختلفة هو مجاري الأنهار . أو بعض المظاهر الجغرافية الأخرى ، وانتهى الأمر بتقسيم كل من الدلتا والصعيد إلى أقاليم محددة لكل منها اسم يطلق عليه ، ولكن حدود هذا التقسيم لم تكن ثابتة على الدوام . فمن حين لآخر كان يظهر زعيم قوي في أحد الأقاليم يضم إليه شيئاً مما جاوره ، وأخيراً تجمعت أقاليم الدلتا تحت سلطة حاكم واحد وحدث الشيء نفسه في أقاليم الصعيد ، وأصبح هناك ملكان أحدهما للشمال وكان يتخذ النحلة شعاراً له ويلبس تاجاً أحمر اللون ، والآخر للجنوب ويتخذ نباتا يسمى ، سوت ، شعاراً له ويلبس تاجاً أبيض اللون .

وفي وقت من الأوقات ، وربما كان ذلك حوالي عام ٣٤٠٠ ق.م. ، تغلبت الدلتا على الصعيد وتوحدت مصر تحت حكم الشمال ، ولكن لم يستمر هذا الاتحاد الأول ، وعاد كل من الشمال والجنوب إلى استقلاله . وحوالي عام ٣٢٠٠ ق.م. تقريبا أغار ملك الصعيد فأخضع الدلتا ووحد البلاد وأسس الأسرة الأولى المصرية . ولكن



أوانى وأدوات مختلفة من عصر ماقبل الأسرات المبكر

هناك رأى آخر وهو أن الاتحاد الأول قد استمر إلى قبيل ظهور الأسرة الأولى وأن أهل الصعيد ثاروا وأرادوا الإستقلال بإقليمهم فحاربوا وانتصروا وقضوا على سلطان الشماليين وأصبحوا هم سادة البلاد كلها وكونوا الاتحاد الثانى .

كانت القرون القليلة السابقة على الأسرة الأولى ، هى الفترة التى وضعت فيها مصر أسس حضارتها التى ظلت بعد ذلك آلاف السنين ، ووضعت فيها أصول دياناتها، ووضعت أسس نظمها المحلية ، ووضعت تقاليد الملكية ، وتفاعلت فيها الثقافات المختلفة . ولم تكن عزلة مصر الجغرافية مانعة لها من الاتصال بغيرها من أمم الشرق القديم وبخاصة بلاد الرافدين ، لأن تلك الفترة من تاريخ العالم القديم كانت فترة إتصالات تجارية واسعة ، ولم تر مصر غضاضة فى أن تنقل من حضارة بلاد الرافدين بعض مظاهرها ، وموضوعات الفن السومرى وبخاصة فى رسم الحيوانات.

ولا شك أن تلك المؤثرات وصلت عن طريق التجارة فى البحر الأحمر وجاءت إلى الصعيد عن طريق وادى الحمامات ، ولهذا نجد أثرها واضحاً هناك وقد أمدتنا جبانات الصعيد بأكثر معلوماتنا عن ذلك العصر مما احتفظت به آلاف القبور التى كشفت عنها الحفائر فى محافظتى قنا وجرجا ؛ لأن تلك القبور كانت فى جبانات أحتاط القدماء فى اختيار أمكنتها وجعلوها على حافة الصحراء فوق أعلى ما يمكن أن تصل إليه مياه الفيضان ، وكانوا يختارون أمكنتها بعيدة عن الأراضى المزروعة فلا تصل إليها الرطوبة . وساعد جفاف الجو وندرة نزول الأمطار على بقائها سليمة حتى الآن ، وكانت الرمال الجافة خير حام لها خلال تلك الآلاف من السنين .

أما آثار ذلك العصر فى مدن الدلتا ، وهى دون شك لا تقل فى أهميتها عن آثار الصعيد ، فقد غطاها الطمى منذ زمن بعيد وأصبحت الآن تحت مستوى الزراعة اللهم إلا ما كان منها على حافة الدلتا أو فى أماكن مرتفعة فى وسطها ، ولهذا أثرت فيها الرطوبة ولم يعد لنا أمل كبير فى العثور على شيء فى حالة جيدة تحت الأراضى المزروعة اللهم إلا إذا كان من الفخار أو من بعض أنواع الحجر التى لا تتأثر كثيراً بالرطوبة ، أو من معدن الذهب .

ولا شك أن فقد آثار الدلتا التى كانت متصلة بالبلاد التى على الناحيتين الشرقية والغربية من مصر ، ومتصلة كذلك بالبحر الأبيض قد تسبب فى ضياع كثير مما يهمنا الوقوف عليه سواء عن صلة مصر بغيرها من الشعوب أو عن أصل الحضارة المصرية نفسها .

ولهذا لم يبق لدينا إلا آثار الصعيد فقط لنتحدث عنها كآثار مصر بصفة عامة فى ذلك العصر ، ونعمم ما وقفنا عليه من مظاهر الحضارة فى الصعيد كأنه يمثل حضارة مصر كلها وهو أمر لا شك فى أنه عرضة للنقد . وقد سبق أن رأينا وجوه الاختلاف الجوهرية بين حضارتى مرمدة والبدارى ، ولا جدال فى أنه كانت هناك اختلافات جوهرية بين مظاهر حضارتى الشمال والجنوب فيما تلا ذلك من عصور قبل أن تزداد الصلة بينهما ، وتعم البلاد كلها حضارة ذات طابع عام بعد إتحاد الشمال والجنوب ، ذلك الاتحاد السياسى والاجتماعى تحت حكم ملك واحد فى عصر الأسرات .

وعثر الباحثون على مئات الآلاف من الأوانى والآثار الصغيرة المختلفة وأكثرها فى قبور الجبانات وقليل منها فى منازل بعض القرى مثل قرية العمرى التى كانت على مقربة من حلوان والمعادى والهمامية والمحاسنة ، وهى كلها منازل بسيطة أقرب إلى الأكواخ ، بعضها مستدير أو بيضاوى وجدرانها من أعواد بعض النباتات بعد ضمها لبعضها وتثبيتها ثم لطسها بالطين ، أما السقف فكان أيضاً من أعواد النباتات الجافة ومغطى بالقش .

ولدينا فى المعادى خير الأمثلة على منازل ذلك العصر ، فقد عثرت بعثة جامعة القاهرة التى بدأت حفائرها فى تلك المنطقة عام ١٩٢٨ ، وما زالت تعمل حتى الآن ، على آثار من أهم ما وصل إلى أيدينا حتى الآن ، وألقت ضوءاً كبيراً على حضارة مصر فى الوقت الذى أخذت تودع فيه عصر ما قبل الأسرات القديم والمتوسط وتدخل فيما نسميه عصر قبيل الأسرات .

عثر الحفارون هناك على قرية كبيرة فيها المنازل التى سكنها هؤلاء القوم ، ويمكننا أن نقول إنه يمكن تمييز نوعين من المنازل ، أقدمها كان مستديراً أو بيضاوياً ، وكانت له قوائم مغروسة فى الأرض ، يملأون المسافات التى بينها بأغصان مضفورة ويلطسونها بعد ذلك بالطين . وفى داخل تلك المنازل البسيطة ، التى كانت على الأرجح غير مسقوفة ، كانوا يضعون المصطلى الذى يطهون فيه طعامهم ويمدهم بالدفء إذا ما اشتد عليهم البرد .

أما النوع الآخر من المنازل ، وهو أحدث عهداً من النوع السابق ، فكان مستطيلاً ، وكان مشيداً بطريقة القوائم المغروسة كالنوع الأقدم ، أما بابه فكان يفتح فى منتصف الواجهة التى كانت فى إحدى الجهات الطولية ، وقد زادوا على هذا النوع

من المنازل جداراً أمام المدخل يحمي من في داخل المنزل من الريح ومن نظرات المارين في الطريق .

وليست بقايا منازل القرى ، وهى لا تزيد فى الغالب عن الأساسات التى لا تعطينا أكثر من رسمها التخطيطى العام ، هي كل مصدرنا عن معرفة منازل ذلك العهد ، فلدينا مصدران آخران وهما بعض نماذج المنازل المصنوعة من الطين أو الفخار ورسوم بعضها على أيادى السكاكين كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

ولا يستطيع إنسان أن يضع تواريخا ثابتة معروفة لما نعثر عليه من آثار عصر ما قبل الأسرات ، ولكنا نعرف على وجه تقريبى أن بعضها أقدم من البعض الآخر ، ولكن لا يمكن أن نقول شيئا محددا ًأو على وجه الدقة عن الفرق فى التاريخ بين الاثنين .

وأكثر العلماء نشاطا فى حفائر ذلك العصر كان فلندرز بترى الذى حفر جبانات متعددة تعد بالآلاف فى ، نقادة ، وفى ، هو ، (وكلاهما فى محافظة قنا) وغيرهما ووضع لها ترتيبا لم يبدؤه من ١ بل من رقم ٣٠ لعله تظهر حضارات أقدم مما عثر عليه . وانتهى عند ٨٠ ، وجعل بترى ظهور الملك ، منا ، عند رقم ٧٧ ولكن الأبحاث الحديثة تميل الآن إلى جعل بداية الأسرة الأولى عند رقم ٦٠ فقط .

فلما عثر برنتون على حضارة لبدارى وضعها بين ٢٠ ؛ ٢٩ إذ يبدأ عصر ما قبل الأسرات بحضارة العمرة برقم ٣٠ .

وعلى أى حال فهناك مآخذ كثيرة على هذا الترتيب ، ولكنه مهما قيل فيه فإنه خير من لا شيء ، ولم يقم أحد بعد بترى بوضع نظام آخر يحل مكانه إذا قررنا إهماله وعدم الأخذ به .

وأحدث الأبحاث تفضل التواريخ الآتية :

حضارة حلوان (العمرى)	حوالى	٥٠٠٠ ق.م
حضارة تاسا	حوالى	٤٨٠٠ ق.م
حضارة البدارى	حوالى	٤٥٠٠ ق.م
حضارة مرمدة	حوالى	٤٤٠٠ ق.م
حضارة العمرة	بين ٤٤٠٠ ، ٣٩٥٠ ق.م	

حضارة جرزة وهى معاصرة تقريبا للمعادى بين ٣٩٥٠ ، ٣٤٠٠ ق.م

بدء الأسرة الأولى حوالى ٣٢٠٠ ق.م [١]

ويكفينا هذا القدر من الحديث على الحضارات القديمة فى عصر ما قبل الأسرات ولننتقل الآن الى قبيل عصر الأسرات أو عصر ما قبل الأسرات المتأخر الذى هيأ مصر لبدء عصرها التاريخى.

قبيل الأسرات

حوالى عام ٣٤٠٠ قبل الميلاد كانت الحضارة المصرية قد وصلت إلى درجة متقدمة إلى حد ما ، وقد أشرنا إلى هذا التقدم وأشرنا إلى الأوانى الفخارية المزخرفة ذات الأشكال المتعددة التى ظهرت قبل ذلك الوقت ، كما أشرنا أيضاً إلى وجود بعض تماثيل إنسانية وبخاصة للنساء وبعض أدوات الزينة وأهمها أمشاط الشعر المصنوعة من العاج والتى صنعوا الجزء الأعلى منها على هيئة حيوانات مختلفة ، كما أشرنا أيضاً إلى الألواح المصنوعة من الإردواز على هيئة الحيوانات أيضاً ، والتى كانت تستخدم لصحن الكحل . والمفهوم أن الدلتا فى ذلك الوقت البعيد كانت أكثر تقدماً من الصعيد ، وأن مصر كانت قد وصلت إلى تكوين مجموعتين من الأقاليم إحداهما فى الشمال وأصبح لها ملك ، وأخرى فى الجنوب وكانت أيضا تحت حكم ملك آخر .

وكان لملك الدلتا تاج خاص به ذو لون أحمر وربما كان مضفورا من بعض النباتات ، ولملك الصعيد تاج مختلف قمعى الشكل تقريبا وربما كان من الجلد أو اللباد . وكان مركز عبادة الإله حورس (الصقر) فى أول الأمر فى غربى الدلتا ، وكان هناك إله آخر فى شرقى الدلتا وهو الإله « عنچتى » ولكن لم يلبث حورس حتى تغلب عليه وأصبح إلها للدلتا كلها عند توحيدها . أما فى الصعيد فكان الإله « ست » هو الإله الذى يتغلب نفوذه على ما عداه من الآلهة ، وكان مركز عبادته فى مدينة « نوبت » فى محافظة قنا عند بلدة طوخ الحالية شمالى نقادة .

وفى وقت من الأوقات تغلبت الدلتا على الصعيد وكونت مملكة واحدة وأصبح للإله « حورس » مركز أهم من مركز « ست » وأصبحت مدينة « هيراقونبوليس »

ومكانها الآن الكوم الأحمر (وكانت تسمى نخن) شمالى إدفو مركزا رئيسيا لعبادته فى العصر الذى نسميه أواخر عصر ما قبل الأسرات أو قبيل عصر الأسرات .

ولم يعد أمر الاتحاد الأول فى مصر فرضا من الفروض كما كان من قبل ، بل أصبح الآن حقيقة مقررة بعد دراسة حجرپالرمو وبخاصة إحدى قطعه الموجودة الآن في متحف القاهرة وغيره من آثار ذلك العهد . وليس لدينا أى معلومات مؤكدة عن مكان عاصمة تلك المملكة الموحدة وإن كانت هليوبوليس (على مقربة من القاهرة الحالية) هى المدينة التى يكاد يجمع الباحثون على أنها كانت عاصمة تلك المملكة .

ولكن قبل ذلك الاتحاد كانت مدينة ، بوتو ، فى غرب الدلتا (ومكانها الآن تل الفراعين) ، هى عاصمة مملكة الدلتا وكانت الهتها تسمى ، واچيت ، ، ويرمز لها بثعبان الكوبرا ، وكان ملكها يلبس التاج الأحمر وهو الذى كان فى أصله رمزا للإلهة ، نيت ، إلهة مدينة سا (سايس – صا الحجر) ، واتخذ له شعارا نبات البردى وكان ملكه يشمل الدلتا وجزءا قليلا من مدخل الصعيد ، أما ملك الصعيد فقد كانت عاصمته فى الكاب وهى أمام الكوم الأحمر (نخن – هيراقونپوليس) التى كانت قبل ذلك مقر عبادة الإلهة ، نخبت ، ويرمز له بالرحمة ويلبس ملكها التاج الأبيض واتخذ شعارا له نباتا آخر يسمى ، سوت ، (١) ووصلت حدود هذه المملكة جنوبا الى الشلال .

وأصبح الإله حورس هو الإله الرئيسى فى كل من المملكتين ، بل أصبح الملك فى كل منهما هو الممثل لحورس على الأرض أثناء حياته ، وكانوا يعطون للملك اسما آخر الى جانب اسمه الأصلى عند توليه العرش وهذا الاسم الجديد يسمى الاسم الحورى وكان يكتب فى مستطيل يعلوه الإله حورس ، وكان يستخدم كلا الاسمين أو واحدا منهم ، فلما توحد الشمال والجنوب كان الملك يلبس تاجا يجمع بين التاجين وهو التاج المزدوج واحتفظ بلقب حورس كما كان يفعل الملوك من قبل (٢) .

ولا شك أن حضارة الدلتا خلفت وراءها آثارا ، وبخاصة فى العاصمة وفى المدن الرئيسية ، ولكن تلك المدن أصبحت الآن تحت مستوى الأراضى المزروعة كما قلنا ، ولم تقم أى حفائر على نطاق واسع فى مدن الدلتا حتى الآن ، ولهذا لم يكد يصل إلى أيدينا شىء من آثار ذلك العصر بينما وصلت إلى أيدينا آثار كثيرة من

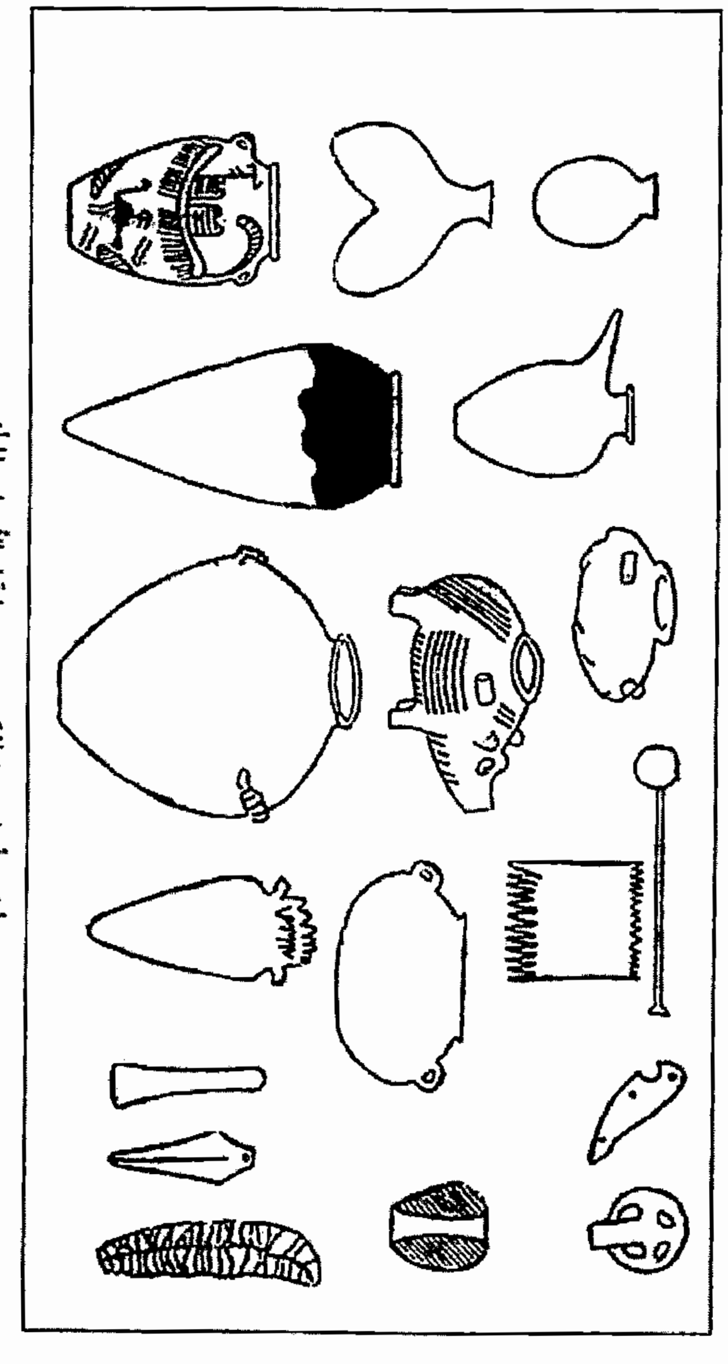
الصعيد وبخاصـــة حـول العاصمـــة القديمـــة فـــى هيراقونبوليس وفى بعض المناطق الأخرى .

ولا تقتصر آثار تلك الفترة على الأشياء التى عرفناها من قبل مثل الفخار وأدوات الزينة بل نرى تطوراً ظاهراً ، فلم تعد الأجزاء العليا من الأمشاط العاجية على هيئة حيوانات بل أصبحت تزخرف على وجهيها برسوم مختلفة لحيوانات متعددة ترسم صفوفاً تحت بعضها البعض ، نعرف من بينها الفيل الإفريقى والبجع والزرافة والأسد والضبع والغزال والثور الافريقى والخنزير البرى ، كما نرى أيضا أياد للسكاكين الظرانية صنعت هى الأخرى من العاج أو صفائح الذهب وزخرفوا وجهيها إما برسوم حيوانات تشير إلى حوادث معينة وبخاصة ما يتعلق بالإنتصار على الأعداء.

أما ألواح الإردواز التى تستخدم لصحن الكحل فقد تطورت هى الأخرى وأصبحت الألواح التى تصنع للملوك تزخرف برسوم حيوانات مختلفة ، بعضها فى صفوف متراصة والبعض الآخر يمثلها أثناء الصيد ، وصارت ألواح الملوك أكبر حجما وعلى صورة درع الحرب . وعثر أيضا على عدد غير قليل من دبابيس القتال وهى مزخرفة بمناظر تمثل الحروف التى انتصر فيها أصحابها على أعدائهم ، ويظهر فيها الملك على هيئة ثور يقضى على أعدائه أو كأسد ينهش أجسادهم . وكثيرا ما نرى الأسرى مكبلين بالأغلال ، أو نرى الحصون التى إستولوا عليها وقد كتبت أسماؤهم فى داخلها . وهناك أيضاً تماثيل وأدوات منزلية ، بعضها من العاج ، ونماذج من الطين أو العاج لبعض الزوارق أو المنازل .

وإذا أمعنا النظر فى هذه الآثار المختلفة نرى أن المصريين بدأوا فى ذلك العهد البعيد يستقرون على الأوضاع الفنية الخاصة بهم فى الرسم وفى عمل التماثيل ، ونرى تقدما كبيرا فى جميع النواحى . ولا شك أيضا أن تلك النهضة جاءت على أثر التقدم فى الزراعة وعناية الناس بحفر القنوات والترع إذ قلما نجد أثرا ملكيا دون أن نرى عليه صورة الملك وهو يقوم بالتقليد المعروف وهو إمساكه بالفأس يضرب به الأرض إيذانا بالبدء فى مثل ذلك العمل ، كما نرى أيضا على بعض أيادى السكاكين رسوما تمثل قصورا أو منازل مرتفعة ذات طابقين على الأقل .

ولم تكن مصر بمعزل عن غيرها من الأمم فقد وصلتها أيضا فى تلك الفترة المهمة فى تاريخها مؤثرات من بلاد الرافدين ومن الفن السومرى كما سبق القول ، ولكنها لم تلبث حتى تركت ذلك وعادت إلى فنها الأصيل فى زخرفة الأشياء .. وربما



أواني وأدوات مختلفة من عصر ما قبل الأسرات المتأخر

كان أهم تأثيرين جاءا إلى مصر من حضارة سومر هما بعض مظاهر البناء بالطوب واستخدام الأختام الاسطوانية لأنهما كانا قبل ذلك العهد مستخدمين فى سومر وتطورت صناعاتهما هناك بينما ظهرا فى مصر فجأة وقد استكملا تطورهما .

ووصلت مصر فى ذلك العهد إلى اختراع مهم أحدث تطورا كبيرا فى حضارتها وذلك هو اختراع الكتابة واستخدامها على بعض الآثار . حقيقة أن بلاد سومر كانت هى الأخرى قد وصلت إلى ذلك الإختراع آنذاك ، ولكن مصر لم تتأثر ببلاد الرافدين فى هذا الأمر ، ووجدت طريقتها الخاصة دون موثر خارجى بل أن النهضة الشاملة لجميع مرافق الحياة فى تلك الفترة جعلتها تصل فى وقت سريع إلى استكمال هذا الاختراع وذلك بما كان كامنا فيها من قوة وفتوة [١] .

توصلت مصر إلى الكتابة فى فترة قبيل عصر الأسرات وأدى استخدامها إلى معرفتنا الآن لبعض الحوادث التى جرت قبل الأسرة الأولى .

لقد أشرنا قبل الآن إلى انفصام عرى الاتحاد الأول واستقلال كل من الدلتا والصعيد عن بعضهما ولكن إتصالهما ببعضهما لم يتأثر كثيراً بذلك إذ كان النيل يسهل التجارة بين البلاد وكانت التجارة بدورها تساعد على نشر الثقافة ، ولكن لا نملك من الوثائق التى يرجع تاريخها إلى ذلك العصر ما يمكننا من تحديد تلك الروابط أو تحديد أثر ذلك التبادل .

ويظهر أن الصعيد بدأ يرمى بناظريه نحو الشمال وأخذ حكامه يحاولون الاستيلاء على الدلتا ، ومن العبث أن نقول إن الاتحاد الذى تم عند ظهور الأسرة الأولى كان من تفكير أو عمل ملك واحد بل من المرجح جدا أن يكون غيره قد سبقه ممهدا لذلك ، كما تدلنا مناظر الحروب الكثيرة على آثار ذلك العهد [٢] .

ولسنا نعرف أسماء أولئك الملوك المحاربين على وجه التحديد ولكن واحدا منهم وهو الملك « العقرب » – ربما كان آخر الملوك قبل الملك (نعرمر – منا) مؤسس

الأسرة الأولى – خلف لنا بعض آثاره فى هيراقونبوليس ، عثر عليها فى عام ١٨٩٨ ونرى فيها هذا الملك (١) مرسوما على دبوس للقتال وهو يمسك الفأس يضرب بها الأرض وذلك إما قياما بأحد المراسيم الدينية الخاصة بأحد الأعياد الزراعية أو تسجيلاً لشق ترعة من الترع . ونرى فى أعلى الدبوس أعلاما تقف فوقها رموز بعض أقاليم الوجه القبلى تتدلى من بعضها طيور الزقزاق ، ويتدلى من البعض الآخر أقواس وهذا تعبير عن إنتصاره على أهل الدلتا وعلى بدو الصحراء . وعثر أيضا على أثر آخر لهذا الملك وهو إناء من الحجر الجيرى ، عثر عليه فى هيراقونبوليس كما عثر أيضا على آثار باسمه فى أبيدوس ، كما وجد اسمه مكتوبا على جزء من إناء من الفخار فى منطقة طرة على مقربة من القاهرة .

ونصل الآن إلى نقطة مهمة . هل كانت حروب الملك العقرب ومن سبقه من الملوك ضد الدلتا عندما كان الصعيد خاضعا للشمال فأرادوا التخلص من نيره فحاربوا وانتصروا واستقلوا بالصعيد كله ، أم أن الاتحاد الأول الذى تم حوالى عام ٣٤٠٠ قبل الميلاد لم يدم طويلا وسرعان ما تفكك وعاد كل من شقى الوادى إلى استقلاله حتى بدأ ملوك الصعيد فى غزو الشمال وإخضاعه ؟ والجواب على هذا التساؤل لا يمكن إلا أن يكون اجتهادياً إذ لا يوجد دليل قاطع تحت أيدينا يساعدنا على إعطاء الجواب الحقيقى الذى لا يقبل الشك .

على أى حال فإن هذا الموضوع لا يغير من حقيقة الأمر شيئا كبيرا ، ولدينا الآن من الأدلة ما يكفى للقول بأن أقاليم الصعيد بدأت حوالى ٣٢٠٠ قبل الميلاد على وجه التقريب تكون بينها اتحاداً ، وأنها كانت تحارب وكانت تستولى على مدن وحصون وأن آخر ملك من هؤلاء الملوك كان نشيطاً وتمكن من إخضاع بعض سكان الدلتا وأهل الصحراء لسلطانه كما ذكر على دبوس قتاله . وهنا نقف قليلاً لنتساءل عن الدور الذى لعبه هذا الملك فى إخضاع الدلتا ، فهل نعتبره ، كما أراد أن يثبت بعض الأثريين (٢) ، إنه هو الذى تمكن من إخضاع الدلتا قبل ، نعرمر – منا ، وأنه هو صاحب الفضل فى توحيد مصر ؟ والجواب على ذلك هو أن هناك أكثر من عقبة واحدة تحول دون قبول مثل هذا الرأى قبولا نهائياً . فربما انتصر الملك العقرب على

جزء من الدلتا فقط ، وربما انتصر أيضاً على بعض قبائل البدو فى الصحراء ، إنما النصر الكامل جاء على يد ، نعرمـــر ، الذى سمته النصوص المصرية فيما بعد باسم ، منا ، والذى اعتبرته المصادر المصرية القديمة أيضا مؤسس الأسرة الأولى المصرية، التى يبدأ بها عـصر الأسرات المصرى أو عـصرها التاريخى كما يسميه بعض الأثريين ؛ لأن مصر كانت قد عرفت الكتابة وأخذت تسجل حوادثها المختلفة على آثارها ، وأصبح اعتمادنا الأكبر منذ ذلك الوقت على ما خلفه المصريون أنفسهم مسطراً على آثارهم .

ولكن قبل أن نتحدث عن الأسرة الأولى يحسن بنا أن نلقى نظرة عابرة على أهم مصادر التاريخ المصرى التى نستمد منها معلوماتنا التى تكونت منها عناصر التاريخ الفرعونى منذ بدايته .

أهم مصادر التاريخ المصرى القديم

استكملت مصر إلى حد كبير ، كثيرا من مقومات حضارتها قبل ظهور الأسرة الأولى إذ كانت قد تقدمت فى أساليب الزراعة وعرفت الكثير من نظم الرى ، وبخاصة فى شق الترع ، وانتصرت على الصحراء والمستنقعات فاستقطعت الكثير منها وحولته إلى أرض زراعية .

وعرفت أيضاً استخراج بعض المعادن وبخاصة الذهب والنحاس من مناجم الصحراء الشرقية وأتقنت الإتقان كله قطع الأحجار الصلبة وصنعت منها الأوانى والقدور ، وعرفت صناعة التماثيل منذ عصر البدارى . وكانت التجارة رائجة ليس بين المدن والأقاليم المصرية بواسطة النيل فحسب ، ولكنها عرفت أيضا التجارة مع آسيا بواسطة السفن التى كانت تسير على مقربة من الساحل فتصل إلى موانىء الشاطىء الفينيقى وبخاصة ميناء جبيل ، كما كانت هناك أيضاً حركة ملاحية فى البحر الأحمر ، وكانت القوافل البرية تحمل منها وإليها السلع التجارية من جميع البلاد المجاورة حتى إيران والأناضول .

وأهم من هذا كله كانت قد توصلت إلى نظام إدارى مناسب وحددت اختصاصات بعض الوظائف وكبار الموظفين وكانت لها بعض تقاليد خاصة فى الفن وفى الدين .

ولا شك فى أن مصر بلد حبته الطبيعة بشبه عزلة عما جاوره من البلاد ، فالبحر فى شماله ، وإلى الشرق والغرب منه صحراء موحشة ، أما فى الجنوب فهناك شلالات فى النهر ، ولم تكن هناك ، أى فى الجنوب ، دولة قوية تخشى منها على نفسها ، ولكن رغم ذلك كله اتصلت تجارتها بما جاورها من بلاد كما كانت دروب الصحراء تحمل إليها كثيراً من المهاجرين الذين يأتون فرادى أو جماعات ليستقروا فيها .

وإذا أردنا التدقيق فى معرفة أصل المصريين أو أصل حضارتهم لما أمكننا الوصول إلا إلى نتيجة واحدة ، وهى أنها حضارة أصيلة دخلت عليها مؤثرات من الساميين الذين فى الشرق والحاميين الذين فى الغرب والجنوب الشرقى ، كما دخلت عليها أيضاً مؤثرات إفريقية من الجنوب . لقد أشرنا قبل الآن إلى حضارة بلاد الرافدين ورأينا أنه جاءت إلى مصر بعض مظاهرها فى العصر السابق للأسرة الأولى

مباشرة ، ولكن كل هذه المؤثرات كانت تنصهر فى بوتقة التجربة فى مصر فى ذلك العهد ، وسرعان ما يأخذ منها السكان ما يوافق حضارتهم فيمزجونه بما لديهم من ثقافة أو يعرضون عنه بعد حين لعدم ملاءمته لذوقهم . كانت لمصر فى ذلك العهد – أى عهد ما قبل الأسرات – تقاليد وطنية خاصة فى إختيار ملوكها كما كانت قد انتهت من وضع الأسس المختلفة فى الديانة وفى الإدارة ، ودانت بعقيدة ألوهية الجالس على عرشها ، ولكنها كانت قد توصلت أيضا إلى معرفة اختراع عظيم لا يمكن أن تتقدم الحضارة بدونه ، وهو اختراع الكتابة .

كان المصريون يعيشون آنذاك فى منازل مبنية بالطين أو من أغصان الأشجار أو النباتات كما عرفوا استخدام الحجر وإن لم يستعملوه على نطاق واسع ، وتقدموا فى كثير من نواحى الفن وأتقنوا حسن استخدام مياه النيل وعمل الجسور التى تحميهم من عدوانه ، واستأنسوا بعض الحيوانات النافعة لهم ، وبعبارة أخرى كانت الحضارة المصرية قد استكملت كل ما يلزمها ولم يكن ينقصها غير القوة الدافعة فتتقدم وتسير نحو الأمام ، وتحققت هذه الأمنية عندما ظهر زعيم قوى فى جنوبى مصر ، زعيم إقيم ، ثنى ، بين جرجا والبليانا الذى وحد البلاد كلها وأصبح أول ملوك مصر فى عهد الاتحاد الثانى ومؤسس الأسرة الأولى .

المصادر

يمكننا القول بوجه عام إن اعتمادنا الأساسى لدراسة تاريخ مصر وحضارتها على المصادر الثلاثة الآتية :

١ – الآثار المصرية وما تمدنا به من معلومات ، ويستوى فى ذلك ما هو مسطر على جدران المعابد والمقابر أو على التماثيل ولوحات القبور ، أو على قراطيس البردى أو التوابيت أو أى نوع من أنواع الآثار الأخرى سواء أكانت صغيرة أو كبيرة ، مكتوبة أو غير مكتوبة ، أى كل ما خلفه المصريون من معلومات ويشمل ذلك أيضاً ما كتبه المؤرخ المصرى مانيتون .

٢ – ما ورد فى بعض المصادر الأجنبية المعاصرة لفترات من الحضارة المصرية مثل ما جاء فى بعض المصادر البابلية أو الحيثية (الخيتية) أو الأشورية وغيرها .

٣ – ما كتبه رحالة اليونان والرومان الذين زاروا مصر ، وكتبوا وصفا لها وضمنوا كتاباتهم شيئاً من تاريخها .

ولكن كلا من هذه المصادر الثلاثة فى حاجة إلى كثير من التحليل والتدقيق قبل الاعتماد عليها أو اتخاذ ما جاء بها كحقيقة تاريخية . ففى النوع الأول من المصادر ، وهو المصادر المصرية الواردة على الآثار وهى أهم المصادر ، كثير من الأمور التى لا يمكن الاعتماد عليها كوقائع ثابتة لأنها كتبت لغرض معين وفى وقت معين ، وإذا لم تؤيدها مصادر أخرى لا يمكننا أن نقبلها إلا كقرينة من القرائن أو كمادة علمية تدخل فى مناقشة الموضوع .

لم يكتب قدماء المصريين قبل عهد مانيتون بقصد تسجيل الحوادث التاريخية كما نفهم التاريخ الآن ، ولكنهم كتبوا ما كتبوه لغرض آخر وهو تسجيل حوادث معينة لغرض خاص ، وسنعود إلى هذا الموضوع بعد قليل عند الحديث على إثبات أسماء الملوك .

أما ثانى المصادر وهو ما نجده فى المصادر الأجنبية المعاصرة ، فإنه بدوره يمثل وجهة نظر معينة وبخاصة إذا كان ذلك تسجيلا لنتائج معارك حربية على آثار أقامها أولئك الملوك . فمثل هذه النقوش سواء فى مصر أو فى غيرها تقام للإعلاء من شأن الملوك فتخفى الهزائم أو تحيلها إلى نصر ، وتبالغ فى نصر ضئيل فتجعل منه عملا عظيما جبارا ، ولهذا يجب أن نحتاط الحيطة التامة فى اعتمادنا عليها ، ويجب أن نقابلها ونقارنها بما جاء فى المصادر التى كتبها الجانب الآخر ، وعلى المؤرخ أن يوازن بين هذا وذاك ويحاول الوصول إلى ما عساه أن يكون أقرب إلى الحق . فقد جرت العادة مثلا فى بعض الممالك مثل الصين إلى ما قبل عصرنا الحاضر بقليل ، وفى أوائل هذا القرن ، على اعتبار ما يأتى إليهم من هدايا من أى مملكة أخرى أنه جزية يرسلها ذلك الشعب ، واعتبار أى خطاب من خطابات المودة التى يرسلها رؤساء الدولة الأخرى أنه تقديم للطاعة والخضوع .

أما ثالث المصادر وهو ما كتبه رحالة اليونان والرومان فيجب ألا نثق فيه الثقة كلها لأن الغالبية العظمى من هؤلاء لم يزوروا مصر إلا وهى فى أيام ضعفها . وكانوا يحكمون على ما يرونه أو ما يسمعونه من وجهة نظرهم هم ، وحسب عقليتهم وإدراكهم ، وتأثرهم بعادات بلادهم وديانتها ، فضلا عن أنهم لم يعرفوا اللغة المصرية ونقلوا ما سمعوه من أفواه محدثيهم وبعضهم من صغار الكهنة أو عامة الناس الذين يقبلون على مرافقة الزوار الأجانب كمحترفين أو متطوعين .

ولا شك أن كثيرا منهم تحروا الصدق فيما قالوا أنهم رأوه بأنفسهم مثل المؤرخ هيرودوت ، ولكن هناك أيضا كثيرين أساءوا فهم ما رأوه أو ذهب بهم خيالهم كل مذهب فى تفسير أو تعليل ما سمعوه أو وقعت عليه أبصارهم .

وعلى من يريد الاعتماد على ما جاء فى بعض تلك المصادر خاصاً بمصر ، أن يضع فى ذهنه أن بعضهم كتب ما كتبه من وجهة النظر اليونانية ، وكثيراً ما كانت كتاباتهم فى أوقات اختلفت فيها مصالح بلادهم مع مصالح مصر أو كانت الثورات أو أسباب العداوة بين المصريين وغيرهم موغرة لصدور هؤلاء الناس ، فضلا عن أن بعض هؤلاء الكتاب نقل ما كتبه عن غيره ممن كانوا فى مصر أو ادعوا زيارتها . ولهذا يتحتم على المؤرخ ألا يقبل ما فيها من معلومات إلا بعد الحيطة الشديدة ليستخدمها قرينة أو قرائن عن حوادث معينة . وسيأتى ذكر هذه المصادر المختلفة فى كثير من المواضع عند الحديث على بعض حوادث التاريخ .

ويجب علينا أن نوضح فى هذه المرحلة من البحث أن مصدرنا الأكبر فى كتابة تاريخ مصر هو ما خلفه المصريون أنفسهم ، وإذا كانت بعض الوثائق ناقصة أو غير وافية فعلينا أن نسعى لإكمالها سواء من الوثائق الأخرى أو مما يستطيع المؤرخ أن يتصوره بعد دراساته المستفيضة لكل ما لديه من وثائق ومصادر ومعلومات تجعله يحس بإحساس العصر الذى جرت فيه تلك الحوادث .

وربما سأل سائل هل عرف قدماء المصريين فكرة التاريخ ، وهل خلفوا لنا وراءهم وثائق دونوا فيها تاريخهم الصحيح ؟ والجواب على الشطر الأول من السؤال أن المصريين كغيرهم من شعوب العالم لم يفهموا التاريخ كما نفهمه الآن أو حتى كما فهمه اليونان ، وإذا كانت فكرة التاريخ كما نعرفها الآن لم يكن لها وجود فى تلك العصور القديمة فلا شك أنه كان لديهم ما يمكن أن نسميه إحساسا بالتاريخ فإنهم لم يفهموا حاضرهم إلا فى ضوء ماضيهم كما انتشرت بينهم فكرة عامة وهى الإعلاء من شأن ما مضى من أيام واستلهام حضارتهم منها ومحاولة إحياء تقاليدها من آن لآخر .

وجوابنا على الشطر الثانى من السؤال أنهم خلفوا وراءهم وثائق بتاريخهم كما كانوا يتصورون التاريخ . فمنذ الأسرة الأولى نرى آثاراً يسجلون عليها بعض أعمال الملوك كما تركوا لنا أيضاً أكثر من وثيقة واحدة عليها إثبات بأسماء الملوك مرتبة ترتيباً زمنيا ، ووصلت بهم الدقة فى بعضها أنهم لم يرتبوا الملوك فحسب بل ذكروا مدة حكمهم بالسنة والشهر واليوم .

ولنذكر الآن أهم المصادر المصرية عن أسماء الملوك وترتيبهم :

١ – **حجر پالرمو** : فى أواخر أيام الأسرة الخامسة المصرية أو ربما فى أوائل الأسرة

السادسة (١) ، كان يقوم فى معبد من معابد العاصمة فى منف حجر لا يقل طوله عن مترين ويزيد ارتفاعه عن سبعين سنتيمترا نقش وجهاه بنقوش فى سطور رأسية كتبت فيها أسماء جميع من حكموا مصر منذ أيام ما قبل الأسرة الأولى ، مع مدة حكم كل منهم، مقسما إلى سنوات وأهم ما حدث فى كل سنة . ولأمر ما حطم هذا الحجر إلى قطع صغيرة عثر حتى الآن على ست منها أكبرها وأهمها موجودة فى صقلية منذ ١٨٥٩ ونقلت إلى متحف مدينة پالرمو فى عام ١٨٧٧ وما زالت هناك حتى الآن (انظر شكل رقم ١٢) . ويوجد فى المتحف المصرى بالقاهرة أربع قطع صغيرة اشترت مصلحة الآثار ثلاثاً منها فى عام ١٩١٠ وعثر أحد خفراء المصلحة فيما بعد على القطعة الرابعة ملقاة بين الخرائب فى منف ، أما القطعة السادسة فقد اشتراها العالم الأثرى فلندرز پترى من أحد تجار الآثار فى القاهرة حوالى عام ١٩١٠ أيضاً وهى الآن فى لندن فى متحف الجامعة . وسواء أكانت هذه القطع الست من حجر واحد ، أو أنها من أكثر من حجر واحد – إذا كانت هناك حقيقة بصنع نسخ متماثلة من حجر الديوريت أقيم كل منها فى أحد المعابد المهمة – فإن هذا الأثر كان يحوى أسماء الملوك مبتدئا فى الصف الأعلى بجدول أسماء الملوك الذين كانوا يحكمون كلا من شطرى مصر أى الدلتا والصعيد ، وتحت كل منهم رسم ملك جالس وعلى رأسه تاج أحد البلدين ، وربما كان فى هذا الصف ١٤٠ منهم أو أكثر من ذلك(٢) . وآخر اسم

محفوظ على تلك القطع هو إسم الملك « نفر إر كارع » من الأسرة الخامسة . ونرى على إحدى القطع التى فى متحف القاهرة أن بعضهم يضع التاج المزدوج فوق رأسه مما جعل الباحثين فى التاريخ المصرى يؤمنون الآن بأنه كانت هناك مملكتا الدلتا والصعيد ، عاشتا مستقلتين فترة طويلة من الزمن إلى أن تمكن أحد ملوك الدلتا من إخضاع الصعيد وتوحيد مصر ، ولكن هذا الإتحاد وهو الإتحاد الأول أصابه الوهن وإستقل كل بنفسه ، أو ربما كان الملك الذى عرف فيما بعد باسم « منا » حاكما لأحد أقاليم الصعيد وثار على الدلتا وحاربها وإستقل بالصعيد ثم هجم على الدلتا فيما بعد وأصبح أول ملك لمصر الموحدة فى عهدها الجديد وهو الإتحاد الثانى . ولكن ليس لدينا ما يثبت هذا أو ذاك ، وعلينا أن ننتظر حتى تصل إلينا معلومات أخرى . وعلى أى حال فإن المصريين إعتبروا أن أولئك الذين حكموا قبل الأسرة الأولى أنصاف آلهة ، وأتباع حورس [١] وأحيانا يسميهم المصريون « المبجلون » كما جاء فى بردية تورين أو أنصاف الآلهة كما سماهم مانيتون ، وقد سبقهم حكم الآلهة على الأرض .

٢ – بردية تورين : حصل على هذه البردية الرحالة الإيطالى دروفتى Dro-vetti فى أوائل القرن التاسع عشر وقيل إنه عثر عليها فى منف . وكانت البردية فى حالة جيدة عندما تسلمها دروفتى ولكنها تهشمت بعد ذلك [٢] ونقلت إلى إيطاليا عقب الحصول عليها ووضعت فى متحف تورين منذ ذلك الوقت.

وكانت تحتوى هذه البردية على أكثر من ثلاثمائة اسم من أسماء الملوك وتحت اسم كل منهم عدد سنوات حكمه . وهى تبدأ بالآلهة الذين حكموا مصر وتستمر حتى نهاية عصر الفترة الثانية بما فى ذلك ملوك الهكسوس ، وتنتهى أسماء الملوك قبيل الأسرة الثامنة عشرة . وقد نشرت محتويات هذه البردية أكثر من مرة ولكن تعديلات كثيرة فى ترتيب أجزائها جاءت عقب ترميمها بواسطة الدكتور « إبشر » مرمم متحف برلين ، ونشرها الأثرى فارينا بعد الترميم عام ١٩٣٨ ولكن الأثريين جاردنر (A. H. Gardiner) وشرنى (Jaroslav Cerny) راجعا الأصل وأصلحا بعض قراءات فارينا ونشرا نتيجة أبحاثهما فى

نشرة خاصة وزعاها على بعض المتاحف والمكتبات والعلماء [1] . وهذه البردية هى دون شك من خير المصادر وأدقها ويعتمد عليها المؤرخون كثيراً فى ترتيب أسماء الملوك وعدد سنوات حكمهم ، وقد كتبت فى عهد الأسرة التاسعة عشرة وإن كان لا يمكننا معرفة السبب الحقيقى الذى دعا إلى كتابتها .

٣ - **تاريخ مانيتون** : وإذا كنا لا نستطيع أن نذكر السبب فى إعداد كل من حجر بالرمو وبردية تورين أو وقت كتابتها بالضبط فإن هنا مصدرا آخر فى المرتبة الأولى من الأهمية نعرف إسم مؤلفه واسم الملك الذى طلب منه كتابته والسبب فى ذلك. كان مانيتون (وورد إسمه فى إحدى البرديات مانيثوس) كاهنا مصريا فى معبد فى سمنود فى محافظة الغربية واشتهر بعلمه ومعرفته لتاريخ مصر ولغتها . وأراد بطليموس الثانى (حوالى ٢٨٠ ق.م.) أن يستفيد من علمه وذلك بتكليفه بكتابة تاريخ لمصر إستقى مصادره مما كان فى المعابد ومكاتب الحكومة من وثائق . ومما يبعث على الحزن أن تاريخ مانيتون الأصلى فقد فى حريق مكتبة الإسكندرية ولم يعثر حتى الآن على أى نسخة كاملة أو ناقصة منه ، وكل ما وصل إلى أيدينا ليس إلا مقتطفات من ذلك التاريخ نقلها المؤرخ اليهودى يوسيفوس فى كتابه الذى سماه الرد على إيبون (Aginst Apion) مدافعاً فيه عن اليهود ضد ما كتبه إيبون الكاتب الإسكندرى ، والذى رمى فيه اليهود بكل شائنة ونقيصة ، فحاول يوسيفوس أن يمجد بنى جنسه فقال إن الهكسوس هم اليهود ونقل كثيراً من كتاب مانيتون مما إعتقد أنه يؤيد حجته .

ووصل إلينا أيضاً من تاريخ مانيتون جداول بأسماء الأسرات والملوك وعدد سنوات حكمهم فى مؤلفات بعض للكتاب المسيحيين وخاصة جوليوس الإفريقى Juluis Africanus (٢١٧ ميلادية) الذى نقل عنه الكاتب يوسيبيوس (٣٢٧ ميلادية) ، ولكن أفضل النصوص وأدقها هو ما جاء فى الكتاب المسمى Chron-ographia الذى قام بجمعه جيورجيوس سينكلوس Georgius Syncellus . وبالرغم من جميع الأخطاء التى حدثت فى النقل وما أصاب أسماء الملوك من تحريف ، وما سقط دون شك من بعض النصوص ، فإن ما وصل إلينا من تاريخ مانيتون مصدر من أهم المصادر لتاريخ مصر ولا يمكن الاستغناء عنه .

وهناك عدة مؤلفات عن تاريخ مانيتون وأحدثها هو مؤلف

W.G. WADDELL. Manetho (The Loeb Classical Library, Cambridge Mass. 1940)

٤ – ثبت الكرنك : ولا تقتصر معلوماتنا عن ترتيب ملوك مصر على حجر بالرمو وبردية تورين وتاريخ مانيتون ، بل لدينا أربعة أثبات مختلفة أولاها ثبت الكرنك الذى أقامه تحوتمس الثالث فى إحدى الحجرات الصغيرة إلى جانب بهو الأعياد فى معبد الكرنك ويوجد الآن فى متحف اللوفر ، نقله إلى فرنسا الأثرى الفرنسى بريس دافن Prisse d'Avennes عام ١٨٤٤ . وليس هذا الثبت جامعاً لأسماء جميع الملوك بل يحوى مجموعة مختارة منهم عددهم ٦١ ملكا . وقد تحطم أول اسم فى الثبت ولكن الاسم الذى يليه هو إسم الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة ثم يليه بعض ملوك هذه الأسرة ثم الأسرات الخامسة والسادسة ، ثم أسقط الكاتب الأصلى ملوك عصر الفترة الأولى وعاد إلى ذكر بعض ملوك الأسرات الحادية عشرة ثم الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة ثم السابعة عشرة .

ولسنا نعرف السبب المقصود من إقامة هذا الثبت . فإن تحوتمس الثالث أقامه دون شك لغرض خاص ولهذا لم يذكر ، أو لم يذكر الكهنة الذين أقاموه باسمه ، ملوك الأسرات الثلاث الأولى ، وأغضى عن ذكر ملوك عصر الفترة الأولى وملوك الهكسوس ، ولكنه ذكر بالتفصيل إثنى عشر اسماً من ملوك الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة ممن لم يشتهر إسمهم فى التاريخ . ومن المحتمل أن يكون للملوك المذكورين فى هذا الثبت دون سواهم صلة مباشرة بتحوتمس الثالث ، وربما كانوا من أجداده الذين تنسب إليهم عائلته (١) .

٥ – ثبت أبيدوس : وإذا كان ثبت الكرنك غير كامل وفيه بعض الاضطراب فإن هناك ثبتا ملكياً آخر فى معبد أبيدوس يزيد كثيراً فى أهميته عن ثبت الكرنك . فعلى أحد جدران معبد الملك سيتى الأول فى أبيدوس (حوالى عام ١٣٠٠ ق.م) . نرى هذا الثبت وقد وقف أمامه الملك رمسيس الثانى يقدم القرابين للملوك المذكورة أسماؤهم عليه وعددهم ستة وسبعون ملكاً .

وتبدأ الأسماء بملوك الأسرة الأولى فتذكر ثمانية ، ويتلوهم سبعة من الملوك الثمانية المعروفين لنا من الأسرة الثانية . فإذا ما وصلنا إلى الأسرة الثالثة نراه

يذكر خمسة من ملوكها ثم يذكر بعد ذلك ستة من الملوك المعروفين فى الأسرة الرابعة ، ثم ثمانية من الملوك التسعة المعروفين فى الأسرة الخامسة ، ويليهم ملوك الأسرة السادسة. ولم يفعل الملك رمسيس الثانى ما فعله تحوتمس الثالث الذى أسقط ملوك الأسرتين السابعة والثامنة بل نرى أسماء خمسة عشر ملكا منهم ، لم ترد أسماء بعضهم على أى أثر آخر ، ولكنه أهمل ملوك إهناسيا (الأسرتين التاسعة والعاشرة) ولم يذكر إلا ملكين فقط من ملوك الأسرة الحادية عشرة ، ولكنه ذكر جميع ملوك الأسرة الثانية عشرة وما عدا الملكة ، سوبك – نفرو ، آخر حكام هذه الأسرة .

ولم يذكر ثبت أبيدوس أى ملك من ملوك عصر الفترة الثانية بما فى ذلك ملوك الهكسوس الذين كانوا فى نظر ملوك مصر أجانب مغتصبين لحرية البلاد ، وبالتالى أنجاساً غير شرعيين . ويبدأ بعد ذلك بملوك الأسرة الثامنة عشرة فيسميهم جميعاً إلى أن يصل إلى الملك أمنحوتب الثالث فيتبعه بحور محب آخر ملوك الأسرة وأسقط ، إخناتون ، و ، سمنخ كارع ، و ، توت عنخ آمون ، و «آى»؛ لأنهم كانوا فى رأيه ملوكا مارقين وخارجين على ديانة أمون ، وكذلك فعل بالملكة ، حتشبسوت ، إذ أسقط اسمها هى الأخرى لأن خروجها على التقاليد وأغتصابها العرش لنفسها جعلها ملكة غير شرعية فى نظر الأجيال التالية . ولم تقف أسماء الملوك عند حور محب بل ذكرت أيضاً الملكين اللذين سبقا سيتى الأول فى الأسرة التاسعة عشرة ، وينتهى الثبت باسم سيتى نفسه (١) .

٦ – ثبت سقارة : عثر على هذا الثبت فى مقبرة أحد الكهنة فى سقارة وإسمه «تنرى» الذى عاش فى أيام رمسيس الثانى ، وهو الآن بالمتحف المصرى بالقاهرة .

وهذا الثبت مكتوب على الجانبين وكان عليه أسماء ثمانية وخمسين ملكا يبدأون بالملك ، مر – بى – با ، سادس ملوك الأسرة الأولى وينتهون بالملك رمسيس الثانى.

فسر بعض الباحثين وجود هذا الثبت وترتيب أسمائه على أساس صلة أصحابها بمدينة منف وأنهم الملوك الذين شيدوا فى معابد تلك العاصمة أو قدموا هبات لآلهتها . وربما كان الملك « مر – پى – با » هو أول ملوك الأسرة الأولى الذين أقاموا فى العاصمة الجديدة . وعلى أى حال فقد ورد اسم ملكين آخرين من ملوك الأسرة الأولى وثمانية من ملوك الأسرة الثانية وأربعة من الملوك الخمسة الذين حكموا فى الأسرة الثالثة . ومما يسترعى النظر أنه من المرجح جداً أنه كان مذكوراً على هذا الثبت تسعة ملوك للأسرة الرابعة ولكن مما يدعو إلى الأسف أن الأربعة الأخيرة قد تحطمت أسماؤهم . فإذا ما وصلنا إلى الأسرة الخامسة نرى أسماء ثمانية من ملوكها التسعة ولكنا لا نرى إلا أربعة فقط من ملوك الأسرة السادسة .

ولا يوجد على هذا الثبت أثر لملوك الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة، ولا نجد فيه من ملوك الأسرة الحادية عشرة إلا إسمى الملكين اللذين وردا فى ثبت أبيدوس ، ولكنا نرى أسماء ملوك الأسرة الثانية عشرة كاملة بما فى ذلك الملكة التى حكمت فى آخر الأسرة ، وقد كتبوها هنا باسم العرش الخاص بها وهو « سوبك – كا – رع » .

ولا شك أن الشخص الذى اختار أسماء ملوك هذا الثبت كان متأثراً بما تأثر به زميله الذى إختار أسماء ثبت أبيدوس فإنهما معاصران لبعضهما .

ولهذا نجد أنهم أسقطوا جميع ملوك عصر الفترة الثانية كما أسقطوا إسم حتشپسوت وإخناتون ومن تلاه من عائلته ، وينتهى الثبت بأسماء الملوك الثلاثة الأول من الأسرة التاسعة عشرة وهم رمسيس الأول وسيتى الأول ورمسيس الثانى(١) .

٧ – نصوص الأنساب : وكثيراً ما تساعدنا النصوص التى يكتبها بعض الأفراد عن تاريخ حياتهم فى معرفة تتابع بعض الملوك فى العصور المختلفة ، ولكن هناك نوعا خاصا من النصوص أخذ يظهر فى العصر المتأخر من التاريخ المصرى .

ولدينا عدد غير قليل من هذه النصوص ولها كلها شىء من الأهمية ولكن أهمها جميعاً ذلك النص الذى خلفه وراءه الكاهن « عنخف – إن – سخمت » الذى

كان كاهنا لكل من الإله بتاح وزوجته الإلهة صخمت فى الأسرة الثانية والعشرين أى حوالى عام ٧٥٠ قبل الميلاد .

كتب هذا الكاهن نسبا طويلا لعائلته على لوح من الحجر الجيرى كان فى متحف برلين (رقم ٢٣٦٧٣) ذكر عليه ستين جداً له ، وكتب أمام الكثيرين منهم أسماء الملوك الذين عاشوا فى أيامهم: وقد ثبتت صحة وجود الكثيرين منهم من مصادر أخرى . عاش ذلك الكاهن حوالى عام ٧٥٠ قبل الميلاد ولكنه رجع بأجداده إلى الأسرة الحادية عشرة حوالى عام ٢١٠٠ قبل الميلاد أى خلال فترة لا تقل عن ١٣٥٠ سنة . وقد فقد اسما أقدم جدين لهذا الكاهن مع النقوش الأخرى الخاصة بهما ، ولكن إسم الجد الثالث محفوظ وعاش فى عهد الملك منتوحوتپ الثانى من الأسرة الحادية عشرة . وتستمر الأجيال واحداً بعد آخر ، ويذكر بعض أسماء ملوك الهكسوس ولم يحذف عصر العمارنة الذى قامت فيه ثورة دينية على عبادة أمون وغيره من الآلهة إذ عاش له جدان فـــى عهد ، أمنحوتـــپ الثالث ، وتلاهم آخر فى عهد الملك ، آى ، الذى عبر صاحب النص عن عدم رضاه عنه بكتابة إسمه دون وضعه فى خانة ملكية . إذ جرت العادة منذ الدولة الحديثة على حذف إخناتون ومن جاء بعده من العائلة بما فيهم الملك آى نفسه من الأثبات الملكية لأنهم إعتبروهم مارقين عن دين البلاد .

ولا يخلو هذا النص من كثير من المآخذ . فقد أخطأ صاحبه فى أكثر من وضع كما ترك فجوات كثيرة فى بعض العصور ، ولكن ذلك كله لا يقلل من أهميته كمصدر تاريخى مهم هو وغيره من نصوص الأنساب (١) .

تلك هى أهم المصادر المصرية لدراسة تتابع الملوك على العرش خلال آلاف السنين التى جمعها قدماء المصريين فى صورة إثبات بأسمائهم ، ولكن الآثار المختلفة التى أقامها الملوك والأفراد الذين عاشوا فى أيامهم ، تمدنا بالكثير من المعلومات عن تعاقب الملوك وسنى حكمهم وصلة بعضهم ببعض .

ولا شك فى أهمية جميع هذه امصادر لدراسة التاريخ السياسى للبلاد ولكنها قلما تساعدنا على معرفة ما كان عيه الشعب أو ما كان يحدث من تطورات فى المجتمع أو فى الفنون المختلفة ، أو فى لمظاهر الثقافية والدينية بوجه عام ، وهى كلها على أكبر جـانب من الأهمية لفهم الحضارة المصـرية . ولدينا ولله الحمد مصادر

لا حصر لها تساعدنا فى تلك الدراسة وتمدنا بالكثير من المعلومات . فالمتحف فى جميع أرجاء العالم ملأى بما خلفته الحضارة المصرية فى جميع العصور من تماثيل ، ولوحات ، وتوابيت ، وحلى ، وأوان ، وأدوات منزلية ، وأدوات الصناع وذوى الحرف المختلفة . ولدينا التمائم والتعاويذ وقراطيس البردى وغيرها وعليها الكتابات المختلفة ، بعضها قطع أدبية والبعض الآخر نصوص دينية أو سحرية ، وبعضها يحتوى على نصوص طبية أو رياضية.. إلخ .

ولم يقف الأمر عند ذلك بل أن المصريين ، فى جميع العصور ، أبوا إلا أن يسجلوا مظاهر حياتهم على جدران قبورهم أيضا . فأينما ذهب الإنسان فى مصر سواء على مقربة من العاصمة القديمة منف ، أى فى سقارة والجيزة وما جاورهما ، أو ذهب إلى بلاد مصر الوسطى أو فى الصعيد ، وبخاصة فى طيبة عاصمة مصر فى عهد الإمبراطورية ، وجد مقابر عنى المصريون بتغطية جدرانها بمناظر الحياة اليومية حينا والحياة الأخرى حينا آخر ولم يقتصر الأمر على مصر وحدها بل كثيراً ما نرى فى تلك المقابر أو على جدران المعابد مناظر أو نصوصا تتعلق بشعوب البلاد الأجنبية الذين إتصلت بهم مصر فنرى أصحابها يلبسون ملابسهم الوطنية ، وقد رسمت فى أيديهم أو على مقربة منهم مصنوعات بلادهم المختلفة مما كانوا يحضرونه إلى مصر كجزية أو هدية يقدمونها إلى الجالس على العرش أو للإتجار بها مع أفراد الشعب .

وهذه الملايين من الآثار الصغيرة ومئات الآلاف من التماثيل واللوحات والتوابيت وقراطيس البردى والأوستراكا (اللخاف) وآلاف المقابر من جميع العصور هى مصادرنا الأصلية لدراسة الحضارة المصرية . وقد إهتمت المتاحف المختلفة بنشر المهم من مجموعاتها كما إستطاع العلماء ترجمة أكثر النقوش المعروفة وأصبح كل ذلك تحت تصرف الباحثين فى تاريخ المصريين وحضارتهم (١) .

ومهما قيل عن نتائج الحفائر وما ظهر منها حتى الآن فلا يزال أمامنا الكثير من المناطق الأثرية لم يكد يمسه أحد وبخاصة فى الدلتا وفى الصحراء ، كما أن أكثر المناطق الأثرية فى مصر الوسطى ما زالت تحتفظ بأكثر ما أبقى عليه الزمن من مخلفاتها ، حتى طيبة نفسها عاصمة الإمبراطورية فإنه لم يتم حفرها أو بحثها البحث العلمى الكافى ، ولهذا يمكننا القول بأنه ما زال أمام علم الآثار المصرية وقت طويل ربما إمتد إلى أكثر من بضع قرون قبل أن يستطيع علماء الآثار أن يقولوا بأنه لم يعد

هناك مزيد من البحث ، وقبل أن يقول المؤرخون إنهم قد قالوا كلمتهم النهائية فى تاريخ مصر ، وأنه لم تعد هناك فجوات فى ذلك التاريخ .

يكفينا هذا القدر من الإشارة إلى مصادر التاريخ السياسى للعصر الفرعونى ، ومصادر التاريخ والحضارة بوجه عام ، ولننتقل الآن للحديث عن أقدم العصور التاريخية فى مصر وهو عصر الأسرات المبكر أو العصر العتيق .

الفصل الثاني

عصر الأسرات المبكر
أو العصر العتيق

الأسرتان الأولى والثانية (٣٢٠٠ – ٢٧٨٠ ق.م.)

- الأسرة الأولى (٣٢٠٠ – ٢٩٨٠ ق.م.)
- الأسرة الثانية (٢٩٨٠ – ٢٧٨٠ ق.م.)



الملك مينا

عصـــر الأســـرات المبــكر
أو العـصر العـتيق
الأسـرتان الأولى والثانية (٣٢٠٠ - ٢٧٨٠ قبل الميلاد)

لم تمدنا الوثائق المصرية حتى الآن بما يكفى من أدلة لمعرفة ما حدث فى تلك الحـروب التى كانت بين الجنوب والشمال وأدت إلى إعـادة توحيد مـصر ، فـإن كل معلومـاتنا مـستمدة فقط من تلك الآثار القليلة للملك العقرب وما ماثلها من آثار ذلك العصر.

وكان المصريـون منذ أيام الدولة الحديثة يذكرون على آثارهم اسم مـلك يسمى « منا » كأول ملوكهم ، وذكروا ذلك أيضا لهيرودوت ونص عليه مانيتون فى تاريخه ، كما كان المصريون أيضا يكتبون أسمه على جعارينهم تيمناً به ، ولكننا لم نعثر على مثل هذا الإسم على آثار الملوك الأوائل [١] ؛ وكل ما يمكننا تقديمه من فروض هو أنه ربما كان إسمـا آخر للملك المعروف لنا باسم « نعرمر » [٢] الذى عثر له على بعض الآثار المهمة فى هيراقونپوليس (الكوم الأحمر شمال أدفو) وفى أبيدوس ، وأشهرها لوحتـه الشهيرة التى توجد الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة . ويكاد يتفق جميع المؤرخين الآن على إعتبار « نعرمر » أول ملك فى الأسرة الأولى ، وأن « منا » ليس إلا إسما آخر لم نعثر عليه حتى الآن . ونرى على وجهى لوحته منظرين يختلفان فى تفصيلهما ولكنهما يتفقان فى الهدف ، وهو تسجيل إنتصار هذا الملك على أعدائه . فـفى أعلى اللوحـة - فى كل من الوجـهين - نرى إسـمـه « نعـرمـر » مكتـوبا داخل

مستطيل يمثل واجهة القصر وعلى يمين الاسم ويساره رسم لرأس المعبودة حتحور بوجه إنساني وأذني وقرني البقرة . وعلى أحد الوجهين ، وهو الخلفي منهما ، نرى الملك واقفا وعلى رأسه تاج الجنوب يقبض على ناصية عدو راكع أمامه إسمه « واع – شي » ، وقد رفع في يده اليمنى دبوس قتاله ليهوى به على رأسه . وأمام الملك ، نرى المعبود حورس على شكل صقر يقبض بيده على حبل يجر به رأس عدو له يعلوه ستة أعواد من نبات البردي يمثل كل منها عدد ألف أى أن المعبود حورس مكنه من أعدائه وسلم إليه ستة آلاف أسير من بينهم . ويمشي خلف « نعرمر » أحد أتباعه وقد حمل في يده اليمنى إناء ، وفى يده اليسرى يحمل خفي الملك . وفى أسفل اللوحة نرى اثنين من أعدائه وفوق كل منهما إسمه . أما الوجه الآخر فيختلف إذ يحتل الجزء الأوسط منه رسم حيوانين إستطالت أعناقهما والتفت حول بعضهما فتركت دائرة بينهما ، وقد أمسك بمقود كلا من الحيوانين أحد الأتباع ليجذبه بعيداً عن الآخر . وفى الجزء الأسفل من اللوحة نرى ثوراً – وهو تمثيل أيضا للملك – يحطم بقرنيه أحد الحصون وقد إرتمى شخص يمثل أصحاب هذا الحصن تحت قدمى الثور . أما الثلث الأعلى من اللوحة فيملأ فراغه منظر آخر نرى فيه نعرمر وقد إرتدى تاج الشمال ويمشي وراءه ذات الموظف الذي نراه على الوجه الآخر ، ونرى موظفا ثانيا يسير أمامه وقد تقدمه أربعة من الأتباع يحملون أعلام أربعة من الآلهة ، وأمام تلك الأعلام خمسة صفوف فى كل واحد منها جثتان لشخصين قطعت رؤوسهما .

ولا شك فى أن المناظر التى على هذه اللوحة تسجل إنتصار « نعرمر » فى الحرب ، وتسجل أيضا إحتفاله بذلك النصر وقد وضع على رأسه تاج الشمال . وبالرغم من أن إسمه مكتوب فى أعلى هذا الوجه فإن الفنان أراد أن يؤكد لنا مرة أخرى أن ذلك الذى يلبس تاج الشمال ليس إلا « نعرمر » فكتب أسمه مرة أخرى أمام وجهه .

لقد أشرنا إلى المناظر التى على رأس دبوس الملك العقرب ، وهى تسجل أيضا إنتصاره فى حرب ضد أهل الدلتا وسكان الصحراء ، ولكننا رأيناه يلبس تاج الصعيد فقط ، فلعل « نعرمر » هو الذى أتم ما بدأه غيره من جهد وأنه أخضع الدلتا إخضاعا تاما ، وكان بذلك أول من توج من ملوك الصعيد ملكا أيضا على الدلتا ، ومما يرجح هذا الفرض أن الرسوم التى على دبوس قتاله ، الذى عثر عليه أيضا فى هيراقونبوليس، ترينا مناظر الإحتفال بتتويجه ملكا على الدلتا إذ نراه يلبس تاج الشمال ويجلس على العرش وقد اصطف وراءه كبار الموظفين ، وتحلق فوق رأسه الرخمة وهى إلهة الكاب لحمايته ، ووقف أمامه حملة أعلام الآلهة الأربعة كما نقرأ أيضا

أعداد مئات الآلاف التى استولى عليها من الماشية والماعز ، وكذلك الأسرى من الناس .

وعثر على آثار أخرى لهذا الملك عند حفر مقابر أبيدوس فى أواخر القرن الماضى ، ويثير هذا الأمر نقطة مهمة فى التاريخ المصرى . فليس قبر نعرمر هو القبر الأوحد فى أبيدوس ، بل هناك مقابر أخرى لملوك الأسرة الأولى وبعض ملوك الأسرة الثانية مما يثبت لنا أن تلك العائلة التى نشأ منها ، نعرمر ، إتخذت عاصمة لها على مقربة من ذلك المكان ، وأن العاصمة القديمة ، نخن ، (الكوم الأحمر شمالى أدفو) أصبحت عاصمة دينية فقط . كانت العاصمة الجديدة على مقربة من أبيدوس وتسمى ، ثنى ، ومكانها يجب ألا يكون بعيداً عن الجبانة الملكية ولكنا لا نعرفه على وجه التحقيق حتى الآن (١) .

كانت ، ثنى ، هى أول العواصم المصرية فى عهدها الجديد ، وظلت طيلة أيام الأسرتين الأولى والثانية عاصمة للبلاد والمقر الرسمى للملوك ولو أن ملوك هاتين الأسرتين كانوا يقيمون من آن لآخر فى الشمال ، فى مدينة كانت تسمى ، القلعة البيضاء ، نسبوا إنشاءها فيما بعد إلى الملك ، منا ، وهى التى سماها المصريون فيما بعد مدينة ، منف ، .

وسواء أكانت تلك المدينة الشمالية قد أنشئت حقا فى عهد ، منا ، أو أنها أنشئت فى عهد أحد خلفائه ، وسواء أصح ما زعمه المتأخرون من أن منا حول مجرى لنيل لينشىء هذه العاصمة الجديدة أو أن الأمر لم يعد حفر ترعة أو عمل مشروع صغير من مشروعات الرى ، فإن إختيار الموقع كان ذا أهمية كبرى لحكم الشمال والجنوب إذ أن المكان الطبيعى لعاصمة مصر يجب أن يكون على مقربة من المكان الذى تلتقى فيه الدلتا بالصعيد ، وهو موقع أكثر عواصم مصر المهمة فى جميع العصور منذ عهد ، منا ، حتى الآن .

ومنذ حفر أميلينو (Amélineau) وبترى (Petrie) فى أبيدوس فى أواخر القرن الماضى ووجدوا فى مقابرها كثيراً من الآثار المهمة تحمل أسماء ملوك الأسرة الأولى

كان الاعتقاد السائد حتى عام ١٩٢١ أن مقابر أولئك الملوك كانت هناك . ولكن حدث بعد ذلك أن عثر الأثريون على أسماء بعض أولئك الملوك أيضا فى مقابر فى طرخان (جنوبى كفر عمار) وفى سقارة ، ثم أخذت مصلحة الآثار منذ عام ١٩٣٠ تحفر بانتظام فى المنطقة البحرية من سقارة فوجد فيرث (W.C.Firth) بعض المقابر ثم تولى إمرى (W.B.Emery) إتمام حفر تلك المنطقة منذ عام ١٩٣٥ حتى نشوب الحرب العالمية الثانية ووجد عددا من مقابر الأسرة الأولى هناك ، وعثر فيها على أسماء جميع ملوك الأسرة إبتداء من « عجا » ما عدا مقابر « چت » و « قا – ع » و « سمرخت » ، كما عثر على مقابر بعض كبار الموظفين مثل « حما كا » . وهنا ظهرت المشكلة الرئيسية التى لم نصل إلى حل لها حتى الآن . لم يعثر پترى أو أميلينو على أى شىء فى أبيدوس يثبت أن ملوك الأسرة الأولى دفنوا حقا فى تلك المقابر كما اتضح أيضا أن مقابر سقارة أكبر وأفخم من مقابر أبيدوس ، ففى أى المنطقتين دفن هؤلاء الملوك إن كانت مقابر سقارة قد أقيمت حقا لأولئك الملوك وليس لوزرائهم الذين كانوا يقيمون فى العاصمة الجديدة فى الشمال ؟ .

وأراد كثير من الأثريين وعلى رأسهم إمرى أن يرى فى مقابر سقارة المدافن الحقيقية لأولئك الملوك وأن مقابر أبيدوس لم تكن إلا أضرحة أو نوعا من المدافن التى تقام لتخليد الذكرى فقط فى جبانة عاصمة إقليمهم الذى نشأوا فيه .

وعاد إمرى مرة ثانية لاستئناف حفائره فى عام ١٩٥٣ وعثر على مقبرتين ملكيتين إحداهما فيها أشياء كثيرة من عصر الملك « چت » والأخرى فيها أشياء أخرى من عهد الملك « قا – ع » وكلاهما أكبر كثيراً من مقبرتيهما فى أبيدوس .

واستمرت حفائر إمرى حتى عام ١٩٥٥ وأمدتنا بالكثير من آثار الأسرة الأولى، وألقت كثيراً من الضوء على تاريخ ذلك العصر وحضاراته ، وجلت كثيراً من النقط الغامضة ، ولكن رغم كل هذا فإن إمرى لم يجد سواء فى حفائره قبل عام ١٩٣٩ أو بين ١٩٥٣ ، ١٩٥٥ أى دليل قاطع على أن ملوك الأسرة الأولى كانوا يدفنون فى سقارة ، وفى بحث ظهر له فى عام ١٩٥٥ نراه يفضل ترك الباب مفتوحا ويختم مقاله بقوله « ولكننا لم نجد حتى الآن الدليل النهائى على أنها (أى المقابر) هى المدافن الحقيقية للملوك ولابد من عمل حفائر أخرى قبل أن نتمكن من الوصول إلى التأكد الكامل » [1] .

وقبل أن نتحدث على ما ظهر من آثار لملوك الأسرتين الأولى والثانية وما وصلت إليه حضارة مصر فى ذلك العهد البعيد يحسن بنا أن نلقى نظرة عابرة على أهم ما نعرفه عنهم . فقد كان « نعرمر – منا » أول ملوك هذه الأسرة ، وقد عثر على قبر له فى أبيدوس ، وجاءت أهم آثاره من معبد نخن فى هيراقونپوليس (الكوم الأحمر) كما ذكرنا ثم تلاه على العرش الملك « عحا » (معناها المحارب) ، وقد عثر له على قبر فى أبيدوس وعلى آثار باسمه فى قبر آخر أكبر منه فى سقارة ونرى على آثاره إشارات كثيرة إلى حروب ضد الليبيين والنوبيين ، وإلى احتفالات دينية وبخاصة ما يتعلق منها بمراسيم تتويجه ، وتشير كذلك إلى تشييد بعض المعابد للمعبودات وبخاصة للمعبودة « نيت » التى كان مقر عبادتها فى مدينة صا الحجر فى غربى الدلتا ، وكانت زوجته تسمى « نيت – حتپ » وربما كانت من أهل تلك المدينة .

وجاء من بعد « عحا » ملك آخر وهو الملك « چر » وتمتاز آثاره بكثير من التقدم الفنى ، ولأمر ما اعتقد المصريون القدماء فى العصور التالية أن قبره فى أبيدوس هو قبر المعبود أوزيريس وكانوا يحجون إليه ويقدمون القرابين له حتى كشفت عن حقيقته حفائر أميلينو فى أواخر القرن الماضى .

ويظهر أن « چر » لم يكن أقل من سلفه « عحا » فى نشاطه الحربى ، فقد عثر فى عام ١٩٤٩ على إسمه مكتوباً على صخور جبل الشيخ سليمان على مقربة من بوهن أمام وادى حلفا وهو يسجل هناك انتصاره على أهل النوبة ، ويدل ذلك على اهتمام ملوك الأسرة الأولى بتأمين حدود مصر الجنوبية وفتحهم المنطقة الواقعة جنوبى الشلال الأول لأجل التجارة مع السودان (١) .

وفى عهد خلفه الملك « واچيت » أو « چت » نرى أن سياسة التوسع التجارى ، وربما أيضاً استغلال المناجم لم تقل ، وأن أولئك الملوك اهتموا بدروب الصحراء وتأمين التجارة فيها إذ عثر على إسم هذا الملك مكتوباً على صخور أحد تلك الدروب

التى كانت تربط بين إدفو والبحر الأحمر [٢] وهو الدرب المار بوادى مياه ، والذى ظل مستخدماً فى جميع العصور سواء للتجارة أو الحصول على بعض معادن تلك المنطقة وبخاصة الذهب .

كانت مصر قد وصلت إلى حد غير قليل فى مضمار التقدم فى عهد الملك «جت» ، ولو دققنا فى فحص مخلفات عصره نرى أن كثيراً منها قد بلغ فيه الإتقان حداً يجعل منها تحفاً فنية مثل لوحته التى توجد الآن فى متحف اللوفر . وقد عثر على قبر له فى أبيدوس وعلى قبر آخر فى سقارة ، أما المقبرة التى عثر عليها فى نزلة البطران على مقربة من أهرام الجيزة والتى ظهر فيها إسمه مكتوباً على بعض مافيها من قطع أثرية فربما كانت لأحد أفراد عائلته أو كبار موظفيه .

أما خامس الملوك وهو الملك « دن » [١] قد عرفنا عنه الكثير ، ليس من مقابره أو مقابر معاصريه فحسب بل من حجر بالرمو أيضاً ، ونرى أنه قد اتخذ لنفسه لقباً جديداً باستخدام نبات السبوت رمزاً للصعيد والنحلة رمزاً للدلتا . كما نعرف أيضاً أنه حارب البدو الذين فى شرقى مصر ، كما نرى بعض تفاصيل احتفاله بعيد يسمى عيد « السد » أو الاحتفال الثلاثينى الذى لعب دوراً كبيراً فى حياة الملوك المصريين ، وعقيدة الألوهية الملكية .

كان هذا الاحتفال معروفاً فى مصر دون شك قبل الأسرة بزمن كبير ، ويرجع أصله إلى عادة ما زالت تمارسها بعض الشعوب الإفريقية حتى الآن ، وهى تحديد ثلاثين سنة لحكم أى زعيم ؛ لأن رخاء الناس يتوقف على قوة ذلك الزعيم . فإذا امتد عمره أكثر من ذلك قضوا عليه فى حفل دينى . وما زلنا نرى حتى اليوم بعض القبائل الإفريقية تضع حداً لحياة زعمائها ، كما تقدم البعض الآخر فى تفكيره وقبل من الزعيم أن يثبت قوته باصطياد أسد أو قتل عدو فيشترى بذلك سنوات أخرى من الحياة . وتقدم آخرون أكثر من ذلك فجعلوا الزعيم يحصل على سنوات أخرى باسترضائه للإله بتشييد معبد جديد ، أو تقديم قرابين خاصة فى حفل خاص يثبت

فيها هذا الزعيم استمتاعه بالصحة الوفيرة (٣) .

ويظهر أن هذه العادة كانت معروفة ومتبعه فى مصر فى وقت مبكر قبل عصر الأسرات ، ووصلت إلى مرحلتها الأخيرة وهى تجديد الحق فى البقاء فى الحكم قبل أن تنتهى فترة الثلاثين سنة ويكون ذلك فى احتفال وفق مراسيم خاصة يثبت فيها الزعيم قوته ، ويشيد لهذه المناسبة بعض المبانى الخاصة ويقيم لبعض المعبودات معابد أو هياكل . وظل ملوك مصرة منذ الأسرة الأولى حتى آخر أيام حضارتها مخلصين لهذا التقليد وكثيراً ما نرى الإشارة إليه ، ونرى بعض مناظر طقوسه ، على جدران المعابد فى جميع العصور حتى ما شيد منها فى أيلم الرومان .

وأهم الآثار من عهد الملك ، دن ، هى مقبرة ، حماكا ، فى سقارة ومقبرة زوجته ، مريت – نيت ، فى أبيدوس . وخلفه على العرش إبنه ، عج – إب ، الذى احتفظ لنا حجر بالرمو بالشيء الكثير عن حوادث عصره ومنها حروبه وأحتفاله بعيد ، السد ، ثم أمره بعمل إحصاء شامل فى البلاد كان يتكرر كل عامين .

ونعرف أيضاً من حجر بالرمو ومن الآثار الأخرى شيئاً غير قليل عن ، سمرخت ، ، وأهم شيء يتصل باسم هذا الملك هو بدء المنازعات واغتصاب العرش بين أفراد البيت المالك مما كان سبباً لقرب إنتهاء حكم هذه العائلة ، والأمر الثانى هو ترديد إسمه فى المؤلفات الأثرية على أنه صاحب النقش الكبير فى وادى المغارة بسيناء (١) . ولكنى أعتقد أن ذلك النقش لا يمكن أن يكون من عهد الأسرة الأولى وإنما هو للملك ، سخم – خت ، الذى تولى الملك بعد زوسر فى الأسرة الثالثة والذى أراد تشييد هرم مدرج آخر فى سقارة عثر عليه عام ١٩٥٤ .

وآخر ملوك هذه الأسرة هو الملك ، قا – ع ، وقد عثر له أيضاً على آثار فى قبر أبيدوس ، وكذلك فى مقبرة كبيرة فى سقارة كتب اسمه على كثير مما بقى من محتوياتها ، وتمدنا تلك الآثار بعدد وافر من أسماء موظفيه والوظائف التى كانوا يتولونها ، ونعرف من هذه الوظائف شيئاً غير قليل عن تنظيم إدارة البلاد فى ذلك العهد إذ كان بعض أولئك الموظفين مشرفا على أعمال الرى أو جباية الضرائب أو حفظ السجلات وغير ذلك .

ملوك الأسرة الثانية - (٢٩٨٠ - ٢٧٨٠ ق.م .)

ونحن نجهل تماماً الأسباب التى دعت إلى تغيير هذه العائلة أو الحوادث التى جرت فى أيام « قا - ع » وانتهت باعتلاء أسرة أخرى على العرش ، كما نجهل أيضاً الصلة بين العائلتين إذا كان هناك حقيقة انتقال للملك من عائلة إلى إخرى ، ونحن نتبع مانيتون فى تقسيمه للأسرات ، ولا ريب أنه كانت لديه الوثائق الكافية التى تبرر ذلك التقسيم .

وفى الواقع لا ترى أى تغيير ، ولا نحس بأى أثر لانتقال فجائى ، فإن كل شيء استمر فى سيره الطبيعى سواء من ناحية التطور الفنى أو فى تنظيم الحكومة بوجه عام .

وهناك اختلاف كبير بين المصادر القديمة فى ترتيب ملوك هذه الأسرة ، كما أن الأسماء التى وردت نقلا عن مانيتون فى صيغها المكتوبة باليونانية يصعب إرجاع بعضها إلى أصله المصرى .

وعلى أى حال فلم يعثر أحد فى أبيدوس على مقابر بعض ملوك تلك الأسرة مما يرجح أنهم كانوا يفضلون العاصمة الشمالية الجديدة ، وهى القلعة البيضاء ، لتكون مقاما لهم أثناء حياتهم ، وفضلوا أيضاً تشييد مقابرهم على مقربة منها وربما عثر عليها فى سقارة فى المستقبل .

ونرى فيما تركه أولئك الملوك إشارات لقصور يشيدها الملوك بعد العام الرابع من حكمهم ، ومعابد يقيمونها للمعبودات المختلفة وبخاصة « سوكر » وهو من أعظم معبودات العاصمة الجديدة شأناً ، كما نرى أيضاً من أختام موظفيهم إطراد تقدم التنظيم الحكومى ووجود الإدارات المختلفة . ونرى من دراسة جداول أسماء الملوك أننا نعرف منهم ثمانية على الأقل ، ولا شك فى ترتيب الثلاثة الأول منهم وهم «حتب سخموى » و « رع نب » و « نى نتر » كما أننا متأكدون من ترتيب آخر ثلاثة منهم وهم « برى إب سن » و « خع سخم » و « خع سخموى » . ونعرف أيضاً أن الأمور فى تلك الأسرة لم تسر فى يسر وهدوء وإنما كانت مقترنة بالكثير من المتاعب ولكنا لا نستطيع تحديد تلك المتاعب أو أن نذكر أشياء معينة اللهم إلا عندما وصلت الأمور إلى درجة محاولة التغيير فى نظام الدولة العام ، والثورة على عبادة حورس .

فقد سبق أن أشرنا إلى أنه كان للمعبود « ست » مركز رئيسى فى الصعيد ولكن انتشار عبادة حورس كادت تطيح به وبنفوذ كهنته ، وبخاصة عندما أصبح الملوك قبل بداية الأسرة الأولى يمثلون حورس ويعيشون فى ظله ، وأصبح كل منهم ينسب نفسه

إليه . وزاد الطين بلة – بالنسبة للصعيد – أن الملوك فضلوا العاصمة الجديدة عند ملتقى الدلتا بالصعيد ، ومن المحتمل أيضاً أنهم أخذوا يتأثرون بثقافة أهل الشمال ويظهرون الاهتمام بمعبوداتهم .

وفي كل زمان توجد فئة من المحافظين الذين يتطلعون إلى القديم ويرون فيه المثل الأعلى ، وفي كل زمان أيضا يوجد الرجعيون الذين يعز عليهم إدخال أى تغيير طالما يؤثر ذلك على مصالحهم الشخصية ، ويوجد كذلك فى كل زمان ومكان بعض رجال الدين الذين يأبون أن يروا انصراف الناس عنهم ويحاولون استثارة كامن العواطف بين مختلف طوائف الشعب ليبقى لهم نفوذهم وثراؤهم وسيطرتهم .

ومهما قلت معلوماتنا عن النصف الثانى من الأسرة الثانية فإننا نجزم بحدوث رد فعل شديد ضد المعبود حورس وضد نفوذ العاصمة الجديدة . ونرى الملك « برى – إب – سن » يعلنها حربا صريحة على حورس فيحذف اسمه من ألقابه ويضع بدلا منه منافسه القديم المعبود « ست » . بل يذهب إلى أبعد من ذلك ويفعل ما لم يفعله أحد من قبله أو من بعده وهو وضع رمز « ست » فوق اسمه المكتوب داخل رسم يمثل واجهة القصر ويعلن أنه هو رمزه وأنه تمثل فيه ويذكر فى بعض آثاره أن ست معبود نوبت (مدينة أومبوس فى محافظة قنا) هو الذى سلم إليه البلاد .

ولم يقف « برى – إب – سن » عند ذلك الحد بل عاد مرة أخرى إلى الصعيد، وأبى إلا أن يعود إلى التقليد القديم وهو تشييد قبره فى أبيدوس ، وليس فى سقارة . ومن الأسف أننا لا نعرف رد الفعل الذى حدث فى الشمال فإن ذلك العمل كان خروجاً قوياً على ما سارت عليه مصر من تقاليد منذ بداية الأسرة الأولى على الأقل ، فإن تمثيل الملك بحورس أصبح متأصلاً منذ أجيال ، خصوصاً وأن حجر الزاوية فى استمرار الحضارة المصرية كان قائماً على ألوهية الملك الذى أصبح منذ توليه أمر البلد هو حورس ، وكان يعبد من شعبه على هذا الأساس ، وأصبح واحداً من الآلهة لا يختلف عن غيره من إخوانه ، بل ويمتاز عليهم بأنه كان يحكم الناس على الأرض ويقوم بحفظ النظام وإقامة العدل ويساعد الناس فى مصر على قيامهم بواجبهم لعبادته وعبادة إخوانه من المعبودات .

ثار « برى – إب – سن » على حورس وعلى القلعة البيضاء ، وما من شك فى أن الكثيرين من أهل الصعيد ، وكهنة ست خاصة ، رحبوا بهذا التغيير ولكنا لا ندرى شيئاً عن حرب أو ثورة ضد ذلك الملك ، بل إن ما وصل من آثاره إلى أيدينا لا يكاد يوضح لنا شيئاً اللهم إلا حذف اسمه من بعض أثبات أسماء الملوك باعتباره خارجاً

على عبادة حورس ، كما فعل الكهنة بعد ذلك بمدة تزيد على ألف وثلاثمائة عام باخناتون ومن حكم بعده من أهله لمحاولته تغيير عبادة أمون فى البلاد ، وتمجيد أتون بدلا منه ومن المعبودات الأخرى .

ولسنا نعرف أيضاً على وجه اليقين كم بقى من سنين على العرش ، وكيف انتهت أيامه ، ولكنا نعرف أن ذلك التغيير لم يدم بعد وفاته وأن الملك الذى خلفه على العرش وهو ، خع سخم ، عاد إلى عبادة حورس وتمجيده ، وعاد أيضاً إلى النشاط المعتاد وذلك بالقيام بحملات لإخماد ما عساه أن يكون قد قام من فتن فى الشمال لأننا نقرأ على قاعدة كل من تمثاليه فى متحفى القاهرة وأوكسفورد نقشاً ينبئنا فيه عن انتصاره على أعدائه وقتله ٤٧٢٠٩ من الأعداء الشماليين الذين ربما يكونون قد هجموا على الصعيد ، كما نعرف من النقوش التى على بعض أوانيه .

ويحق لنا أن نتساءل بعد ذلك كله عن صلة ، خع سخم ، بالملك ، پرى – إب – سن ، وهل كان ابنه أو أنه كان أميراً من الأمراء أو كان زعيماً من الزعماء ، اضطر لمواجهة ثورة عاتية فى الشمال ضد ما قام به ، پرى – إب – سن ، ؟ والجواب على هذه الأسئلة لا يعدو حد التخمين ؛ لأن ما لدينا من وثائق من ذلك العصر لا يساعدنا مطلقاً على الإجابة ، وإذا رجعنا إلى مانيتون لا نجد فيه إلا قبساً ضئيلاً ، فإذا صح أن ، خع سخم ، هو الذى سماه مانيتون ، سيسو خريس ، فإنه كان فارع الطول إلى حد كبير (١) ، وربما كان طول قامته مصحوباً بقوة بدنية ، ساعدته فى زعامته وفى حروبه التى شنها لإعادة النظام إلى البلاد ، وحربه ضد سكان ليبيا إلى الغرب من مصر.

ومن الجائز أن ما قام به من أعمال أحدث رد فعل جديد ، وشاءت الظروف أن يلى عرش مصر بعد ، خع – سخم ، ملك قوى حازم أراد أن يرضى كلا من الشمال والجنوب ويضع حداً لتلك الفتنة فاتخذ لنفسه شعاراً ، المعبودين حورس وست مجتمعين ، وكان يضعهما سويا فوق اسمه ، ذلك هو الملك ، خع سخموى ، الذى تقدمت مصر فى عهده تقديم كبيرا زاد فيه استعمال الحجر فى المبانى ، وأستقرت

مصر على أوضاعها الفنية الخاصة بها ، واستكملت أكثر مقوماتها .

امتاز عهده بالهدوء والتقدم فى جميع مرافق الحياة وكانت زوجته تسمى « نى – ماعت – حب » وهى أم الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة ، ولكن قبل أن ننتقل إلى زوسر وإلى الأسرة الثالثة يحسن بنا أن نقف قليلاً لنعرف مدى ما أحرزته مصر فى ذلك العهد من تقدم ، وإلى أى حد وصلت .

كشفت حفائر أبدوس وهيراقونپوليس وسقارة وحلوان وطرخان وغيرها ،[١] عن كثير من آثار ذلك العهد ولهذا لا تعوزنا الآن المادة العلمية اللازمة لدراسة مدى تقدم فنون المصريين وصناعاتهم فى تلك الأيام ، كما وصلت الينا أيضاً بعض الآثار التى تحوى كتابات ، وأكثرها أختام أسطوانية أو طبعات أختام فوق سدادات الأوانى المصنوعة من الطين ، وهى لا تحتوى عادة إلا على أسماء أصحابها ووظائفهم ، وفى حالات قليلة تشير إلى بعض الضياع أو المبانى ، وغير ذلك من الأعمال التى تتصل بأعمال الموظفين أصحاب تلك الأختام . وهناك أيضاً كمية كبرى من النقوش على تلك اللوحات الصغيرة المصنوعة من العاج والتى توجد إلى جانب بعض الأوانى فى مقابر الأسرة الأولى سواء فى أبيدوس أو فى سقارة ، وكذلك بعض الألواح الأردوازية الكبيرة ورؤوس الدبابيس الخاصة بهؤلاء الملوك ، وكذلك بعض الأوانى الحجرية وما هو مسطر على حجر پالرمو من معلومات عما أبقى عليه الزمن من أسماء هؤلاء الملوك .

ويمكننا من دراسة تلك الأشياء معرفة أسماء الملوك وأسماء بعض موظفيهم ووظائفهم ، ويمكننا أيضاً معرفة أسماء بعض القصور والمعابد والآلهة الذين شيدت لأجلهم ، ومعرفة ما قام به بعض الملوك من أعمال خاصة مثل شق الترع أو إنشاء السفن أو الاستيلاء على بعض المدن ، والإحتفال ببعض الأعياد . كما نرى فيها أيضاً رسم بعض المعابد أو الهياكل التى أقامها الملوك فى ذلك العهد المبكر . وإذا أردنا الوقوف على مظاهر الفن أو الحضارة فى مصر ، أو أردنا الإلمام ببعض نواحى الحياة بين الشعب ، فإن هناك من القطع الأثرية مما ظهر فى حفائر حلوان وسقارة وأبيدوس ما يكفى لإعطاء صورة عن مدى التقدم الذى أحرزه الفنان المصرى منذ الأيام السابقة على ظهور الأسرة الأولى . فتلك الحلى وتلك الأوانى الجميلة الصنع ، وتلك الأدوات المنزلية المصنوعة من العاج أو قطع ألعاب التسلية أو الصناديق المزخرفة ، تثبت كلها ذلك التقدم فى الفن وفى مظاهر الحياة الخاصة .

وإذا درسنا مخلفات ذلك العصر نستطيع أن نعرف شيئاً غير قليل عن بعض أعيادهم وطقوسهم فى بعض الاحتفالات ، كما نستطيع أن نعرف أيضاً ، ولو إلى مدى محدود ، شيئاً عن دياناتهم . ونعرف أيضاً الكثير عن تنظيم إدارات الحكومة ، وإذا درسنا بعض المصادر التى كتبت فى عصور متأخرة نرى قدماء المصريين يشيرون إلى بعض ملوك الأسرتين الأولى والثانية ويربطون بين أسمائهم وبين القيام بكتابة بعض البرديات المهمة فى الطب أو فى الحكمة .

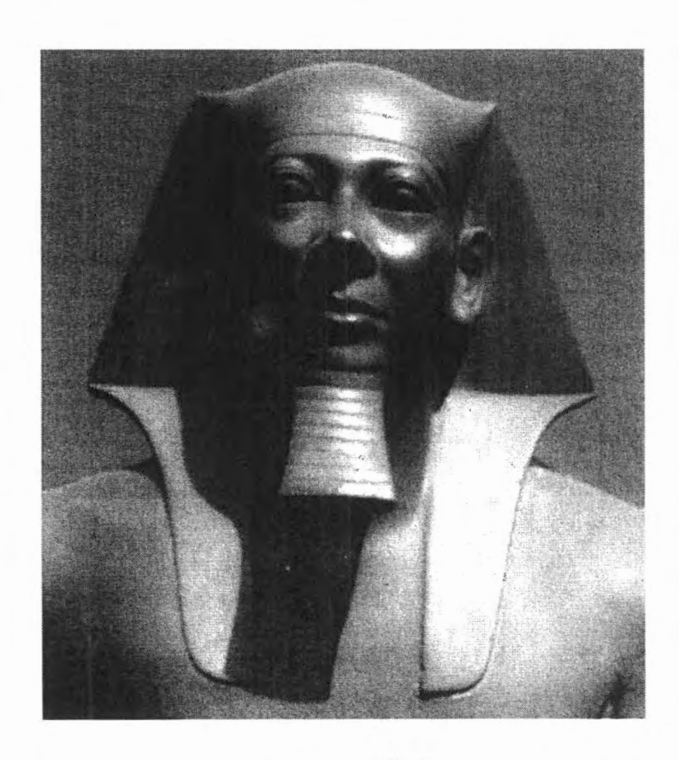
كانت الأجيال القليلة السابقة على بدء الأسرة الأولى ، وتلك القرون الأربعة التى حكم أثناءها ملوك الأسرتين الأولى والثانية هى الفترة التى تفاعلت فيها جميع عناصر الحضارة فى مصر ، كانت هى فترة التجارب والمحاولات التى قضاها شعب فتى في مستهل أيام حضارته حتى استقر أخيراً على أوضاع خاصة ارتضاها لنفسه ووجد أنها تعبر تمام التعبير عما يريده ، سواء فى الدين أو فى الفن أو فى الحياة بوجه عام ، فاستمسك بها وحافظ عليها ؛ لأن أساسها كان قويا متينا ثابت الأركان . فلما تقدمت به مدنيته استطاع أن يرتفع بالبناء فوق ذلك الأساس فلم يخب ظنه فيه ، وعندما اتصل بغيره من الحضارات فيما بعد لم يجد من بينها ما يلائم حياته أو ذوقه خيراً مما كان لديه فزاده ذلك استمساكاً به .

الفصل الثالث

الدولة القديمة

من الأسرة الثالثة حتى نهاية الأسرة السادسة
(٢٧٨٠ – ٢٢٨٠ ق.م.)

- الأسرة الثالثة (٢٧٨٠- ٢٦٨٠ ق.م.)
- الأسرة الرابعة (٢٦٨٠ – ٢٦٥٠ ق.م.)
- الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ – ٢٤٢٠ ق.م.)
- الأسرة السادسة (٢٤٢٠ – ٢٢٨٠ ق.م.)



الملك منكاورع

الدولـــــة القديمـــــة

من الأسرة الثالثة حتى نهاية الأسرة السادسة

(٢٧٨٠ - ٢٢٨٠ ق.م.)

كان لإضطراب الأمور فى النصف الثانى من أيام الأسرة الثانية أثر مباشر على مستقبل مصر . فلا جدال فى أن ثورة ، برى إب سن ، على عبادة حورس أثرت على سير الأمور ، ولا جدال أيضاً فى أن ما تبع ذلك من تطاحن فى البلاد كان ذا أثر سيىء على تقدمها ، ولكن لم يمض إلا وقت قليل بعد أن انكشفت تلك الغمة حتى نرى مصر وقد بدأت تعوض ما فاتها ، وكأنما كان ذلك التطاحن وعدم الاستقرار دافعاً لها فيما بعد ، فتقدمت فى شتى النواحى واستكملت مقومات مدينتها التى أصبحت مميزاً لها على مر العصور ، كما أوضحنا فى نهاية الفصل السابق .

وفى هذا الوقت الحاسم فى التاريخ الحضارى للبلاد ، ذلك الوقت الذى كانت فيه مصر تتدفق شباباً وحيوية ، جلس على عرشها ملك قوى حازم ، فكان ذلك إيذاناً ببدء عصر جديد .

الأسرة الثالثة

(٢٧٨٠ - ٢٦٨٠ ق.م.)

وبالرغم من أن أول ملوك هذه الأسرة وهو الملك زوسر كان على الأرجح ابنا لآخر ملوك الأسرة الثانية فقد اعتبره القدماء مؤسسا لأسرة مالكة جديدة .

بدأ زوسر (١) حياته كغيره ممن سبقه من الملوك وبنى لنفسه مثلهم قبراً على شكل مصطبة كبيرة من الطوب اللبن (٩٥ متراً فى الطول × ٥٠ متراً فى العرض ، وارتفاع ١٠ أمتار) ، ولكنه لم يشيدها فى أبيدوس بل شيدها فى المنطقة المعروفة الآن باسم بيت خلاف جنوبى قنا ، عثر فيها على كثير من الأوانى وعليها أختام تحمل إسم الملك وتحمل أسماء بعض موظفيه والإدارات المختلفة التى كانوا يتولون شئونها (٢) .

وشاء حسن حظ مصر أن يظهر فيها فى ذلك الوقت أحد النوابغ الذين تركوا أثراً واضحاً فى تاريخ البشرية ، وقضت عناية الله أن يكون على عرشها ملك حصيف الرأى عرف قيمة نبوغ ذلك الشخص فمد له يد العون ومكنه من تحقيق آرائه ، فخلد إسم الملك زوسر وخلدت أعماله ، وتقدمت مصر فى عهده تقدماً كبيراً فى جميع النواحى .

إيمحوتب : لسنا نعرف على وجه اليقين إن كان : إيمحوتب ، بدأ حياته فى عهد الملك ، خع سخموى ، وكان من بين موظفيه ، أو أنه ظهر فقط فى أيام زوسر ، وعلى أى حال فان اسمه قد ارتبط باسم ذلك الملك الأخير وحده ، سواء أثناء حياته أو فيما تلا ذلك من أجيال ، فإن المصريين خلدوا اسميهما معا وظل الناس يذكرونهما حتى آخر أيام التاريخ المصرى . واعتبر الكتاب المصريون فى الدولة الحديثة ، إيمحوتب ، إماما وحامياً لهم ، وكان يحرص كل كاتب قبل بدء عمله على إراقة بضع قطرات من الماء قربانا له .

كان الملوك حتى ذلك العهد يدفنون فى قبور على هيئة مصاطب لا تمتاز فى شكلها العام عن قبور رعاياهم إلا بعظم حجمها وفخامتها ، وكانت تبنى من الطوب اللبن ، وإن كانت بعض أجزائها الداخلية ، وعلى الأخص حجرة الدفن ، تبنى من الحجر .

وبنى زوسر قبره الملكى فى الجنوب على نمط من سبقه من الملوك، إن صحت نسبة قبر بيت خلاف إليه ، ولكن إيمحوتب فكر فى تشييد قبر آخر لسيده فى جبانة العاصمة الشمالية ، ووضع تصميمه ليكون أفخم من أى قبر شيد قبل ذلك الوقت لأى ملك قبله ، وكانت الفكرة الجريئة الأولى فى تشييد ذلك القبر هى أن يكون مبنيا بكتل من الحجر بدلا من الطوب اللبن فشيد مصطبة كبيرة من الحجر الجيرى الذى قطعه من المحاجر القريبة ثم كسا جدرانه الخارجية بأحجار جيرية من النوع الأبيض الممتاز الذى كانوا يحصلون عليه من محاجر طرة فى الناحية الشرقية من النيل .

كانت تلك المصطبة دون شك أفخم وأعظم من أى قبر ملكى آخر فى المنطقة ، وقطع تحت تلك المصطبة ممرات وحجرات جانبية تتوسطها حجرة كبيرة استخدم فى تشييدها أحجار الجرانيت لتكون حجرة دفن الملك .

ولم يقنع إيمحوتب بذلك ، فعدل فى تصميمه الأول وفكر فى شىء جديد . إن سيده زوسر إله معبود من شعبه فيجب أن يمتاز قبره عن غيره ، ويجب أن يرتفع ويعلو ، ولهذا أخذ يبنى مصطبة فوق أخرى ، وكل منها يقل فى الحجم عما تحتها

حتى أصبح الشكل النهائى لقبر زوسر هرما مدرجا ذا ست درجات ، كانت كلها مكسوة من الخارج بالحجر الجيرى الأبيض ، وبذلك كان إيمحوتب أول مهندس معمارى فى تاريخ مصر شيد قبرا يشبه الهرم فى شكله العام . ولم يكتف بذلك بل أحاط الهرم بسور كبير مشيد كله من الحجر الجيرى المقطوع من طره ارتفاعه عشرة أمتار وشيد داخل هذا السور مبان عدة كان بعضها لأجل إقامة العيد الثلاثينى والبعض الآخر كان قبرا رمزيا فى الناحية الجنوبية أو معابد تتصل أيضا بالأعياد كما شيد فى الناحية الشمالية من الهرم معبدا قامت فيه تماثيل للملك .

وليس من شأن مثل هذا الكتاب أن يصف تلك المبانى أو يسهب فى الحديث عنها ، ويكفينا أن نذكر أن مجموعة الهرم المدرج تعتبر من أهم ما أبقت عليه الأيام من آثار مصر ، نرى فى مبانيه الخطوات الأولى للمصريين عندما انتقلوا من البناء بالطوب إلى البناء بالحجر . فكثيرا ما نرى المهندس القديم يبذل جهده ليجعل مبانيه شبيهة بمبانى الطوب مثل حجم الأحجار (٥٢ سم فى الطول مثل حجم الطوب فى ذلك العهد ، وهو الذراع المصرى) أو فى تشكيل السقف الحجرى ليكون شبيها بالسقف الذى كانوا يستخدمون فيه فروع الأشجار ، ومثل الأبواب التى تظهر كأنها نصف مفتوحة والأعمدة الحجرية التى تمثل تلك الأعمدة التى كانت تصنع من أعواد النباتات وقد ضمت إلى بعضها .

ويميل أكثر الأثريين إلى قبول الرأى القائل بأن السور الخارجى الكبير الذى رسموا فى جوانبه شكل البوابات الثلاث عشرة فى جهاته الأربع ليس إلا صورة من السور الذى كان حول قصر الملك فى الوادى على مقربة من العاصمة وأن المدخل الرئيسى فى الركن الشرقى الجنوبى (البوابة الرابعة عشرة) شبيه بمدخل القصر الملكى بأعمدته وأماكن حراسه ، وأن تلك المبانى المشيدة بالحجر قد أقيمت بمناسبة الاحتفال بالعيد الثلاثينى للملك زوسر ، إذ أن هذا الملك قد نقل عاصمة الملك بصفة نهائية إلى الشمال . فى تلك المدينة التى أصبحت تسمى منف فيما بعد (١) . ودفن زوسر فى هرمه هذا ، وفى الممرات المحيطة بحجرة الدفن كدسوا آلافاً من الأوانى المصنوعة من المرمر وبعضها من الديوريت أو البرشيا أو الجرانيت أو البازلت وغير ذلك من الأحجار ، وبعضها صغير والبعض الآخر يزيد ارتفاعه عن متر ، وقد أمكن حتى الآن

استخراج عدد من تلك الأوانى لا يقل عن عشرين ألفا ، وما زال الكثير منها باقيا فى الممرات وقد حطمه إلى أجزاء صغيرة سقوط الصخر فوقه .

عرف زوسر قدر مهندسه فكرمه وأراد أن يخلده معه فسمح بأن يكتب اسمه على تماثيله وهذا تقدير كريم لم نعرف له شبيها؛ لأن الملك كان إلها معبودا من شعبه ، وأراد أن يخلد معه إيمحوتپ الذى عرف له مكانه فى دنيا النبوغ . ونعرف من ألقابه أنه كان يتولى وظائف عدة فقد كان مشرفا على الأعمال الإنشائية للملك ، وكان مشرفا أيضاً على إدارة قصره وكان حائزا على لقب رئيس المثالين ، ولكن أهم من ذلك كله فقد كان من ألقابه أنه الرجل الأول بعد الملك أى أنه كان حاكما لأحد الأقاليم وكان كبيرا لكهنة الشمس فى مدينة إيون « هليو – پوليس » . وربما تولى فيما بعد (أي بعد عمل تلك التماثيل) وظيفة الوزير لأنها أصبحت لقبه الرئيسى فى العصور التالية (١) .

وقد ذكر المؤرخ المصرى مانيتون أ زوسر حكم تسعة وعشرين عاما ولكن بعض المصادر الأخرى تكتفى بتسعة عشر عاما فقط . أضاف على ذلك قوله « عاش فى أيام حكمه (أى إيمحوتب) الذى يعتقد الإغريق أنه اسكليبوس (إله الطب) وذلك لمهارته فى الطب . وقد اكتشف هذا الشخص فن البناء والأحجار المنحوتة وكان يقبل إقبالاً كبيراً وبحماس شديد على التأليف .

كان إيمحوتب واحدا من أولئك النوابغ الذين تظهر عبقريتهم فى أكثر من ميدان واحد فلم يقتصر نبوغه على فن العمارة والنحت فأحدث التطور الأكبر فى الفن المصرى بل نبغ أيضاً فى الطب وألف فيه ، كما ألف فى الحكمة . وألهه المصريون بعد وفاته وعبدوه وشيدوا له المعابد فى أواخر أيام حضارتهم وبخاصة فى العصر الفارسى أى فى القرن السادس قبل الميلاد وفى أيام البطالمة بعد ذلك) ، وأطلقوا عليه « ابن الإله پتاح » (٢) . ومن المحتمل أن يكون المصريون قد ألهوا إيمحوتب فى عصر

مبكر (١) ولكنهم لم يشيدوا له المعابد الكثيرة فى جميع أرجاء البلاد إلا فى العصر المتأخر عندما رأى المصريون أن حضارات أخرى مثل حضارات الإغريق والفرس أخذت تغزو البلاد وتبهر أنظهار بعض أبنائها فكان ردهم على ذلك شدة استمساكهم بحضارتهم القديمة التى كانت أصل المدنيات جميعا ، وأنهم كانوا المعلمين الأول للبشرية .

كان المتبع فى مصر حتى ذلك العهد ، وبعد ذلك العهد أيضاً حتى الأسرة الخامسة ، أن جميع الوظائف الكبرى لا يتولى أمورها فى أكثر الحالات إلا أفراد من البيت المالك وبخاصة أولاد الملك نفسه ، فهل كان إيمحوتب ممن لهم صلة بذلك البيت حتى وصل إلى ما وصل إليه ، وما الذى جعل الملك يكتب اسمه على تمثاله وهو تكريم لم ينله أحد من أفراد الشعب قبله أو بعده فى وقت سطوة ملوك الدولة القديمة ؟ لم يكن إيمحوتب إلا فرداً من أبناء الشعب وكان مولده على الأرجح فى بلدة الجبلين بين الأقصر وإسنا فى مديرية قنا ، أما أبوه فكان مثل ابنه مشرفاً على الأعمال ويسمى « كانفر » (٢) وإنما الذى أوصله إلى ذلك المركز العظيم مواهبه وحسن استعداده .

لقد أطلت فى حديثى عن « إيمحوتب » حتى كدنا ننسى الملك « زوسر » ، ولكن الرجل يستحق أكثر من ذلك فقد كان المحرك للنهضة التى شملت مصر كلها . ولكن مهما قلنا عن نبوغه وعبقريته ، فيجب ألا ننسى أنه لولا أنه وجد من يقدره ويشد أزره ويدفع به إلى الأمام لضاع ذلك النبوغ سدى ، إذ كثيراً ما ييأس النابغون عندما يهملهم الناس أو يحاربونهم أو ينسبون إليهم الجنون . فلو لم يكن زوسر عظيما واسع التفكير لما تمكن إيمحوتب من تحقيق كل ما حققه .

وحكم زوسر أعواما طويلة رأت فيها البلاد نهضة عامة ، ولم تقتصر آثاره على سقارة فقط بل شيد معابد أخرى عثر على بقايا من واحد منها كان على مقربة من هربيط فى مديرية الشرقية ، كما نعرف أنه أرسل حملة لتأديب بعض بدو شبه جزيرة

سينا الذين كانوا يتعرضون للحملات التى كان يرسلها ملوك مصر لإحضار النحاس من المناجم التى على مقربة من جبل المغارة هناك :

خلفاء زوسر :

كانت فترة حكم زوسر لمصر فترة زاهرة ولكن منذ وفاته حتى آخر أيام الأسرة لم يخلفه على العرش من نستطيع أن نقارنه به .

ويذكر مانيتون أسماء ثمانية ملوك حكموا فى هذه الأسرة بينما لا نجد فى ثبت أبيدوس إلا أسماء ستة ملوك فقط ، أما بردية تورين المهشمة فلم تحفظ لنا غير خمسة أسماء .

وجاء بعد زوسر ابنه وكان اسمه ينطق حتى عهد قريب « سمرخت » ولكن بعد اكتشاف هرمه المدرج فى سقارة فى صيف عام ١٩٥٤ صار نطقه « سخم خت » أكثر احتمالا ويسمى أحياناً زوسر الثانى .

أراد « سخم خت » أن يشيد بناء شبيهاً ببناء أبيه فاختار له مكاناً قريباً منه ، ولكنه مات دون أن يتمه ، وبدلا من أن نرى تقدماً فى العمارة عما بدأه إيمحوتب نرى أنهم كانوا يقلدون ماشيده تقليداً أعمى، ونرى أيضاً من الشواهد ما يدل على أن خزانة الملك لم تعد تحتمل الإنفاق الكثير . لم يتم ذلك الملك هرمه لا فى تشييد المصاطب التى فوق بعضها ولا فى داخل الهرم ، كما عثر على تابوته فارغاً عند الكشف عنه ، ولكن مهما كانت نتيجة لحفائر حتى الآن فإن هذا الهرم أضاف إلى معلوماتنا شيئاً غير قليل عن طريق تشييد الهرم ، وتأكد لدينا الآن كيف كان المصريون منذ ذلك العهد البعيد يشيدون أهرامهم بواسطة عمل طريق صاعد طويل يجرون فوقه الأحجار اللازمة للبناء وأن ذلك الطريق الصاعد كان يطول ويرتفع كلما تقدم البناء ، فإذا ما تم كل شئ أزالوه من مكانه .

وبالرغم من أنه لم يعثر على جثة مشيدة فى التابوت فإن الأمل مازال باقياً فى العثور عليه فى المستقبل ، ومع ذلك فقد عثر على عدد كبير من الأوانى الحجرية بعضها قد تم صنعه وأكثره لم يتم ، كما عثر أيضاً على بعض الحلى الذهبية القليلة التى ربما كانت من الأسرة الثالثة (١) .

لم يحكم «سخم خت» إلا سنوات قليلة ، وربما كان أهم أثر معروف له قبل العثور على هرمه فى سقارة هو ذلك النقش الذى تركه فى وادى المغارة على مقربة من نقش أبيه زوسر والذى كان يعتقد بعض الأثريين خطأ أن صاحبه هو الملك «سمرخت» من ملوك الأسرة الأولى .

ونعرف من أسماء الملوك الذين حكموا فى الإسرة الثالثة اسم حورس «سانخت» وحورس «خع با» واسم الملك «نب كاوو» أو «نب كاور رع» وثانيهما مشيد الهرم المعروف باسم الهرم ذى الطبقات فى منطقة زاوية العريان بين أهرام الجيزة وأبو صير ، أما ثالثهما فقد أراد أن يشيد هرما على مقربة من هرم من سبقه أى فى منطقة زاوية العريان أيضاً ولكن العمل لم يتقدم أكثر من الإنتهاء من الجزء الأسفل المحفور فى الصخر تحت الأرض ، وفيه التابوت المنحوت من الجرانيت .

وآخر ملوك تلك الأسرة هو الملك «حونى» (وينطقه بعض الأثريين «حو» فقط) الذى حكم أربعة وعشرين عاماً وقد تكرر ذكر اسمه فى أثبات أسماء الملوك ونعرف من إحدى البرديات التى كتبت فى الدولة الوسطى أنه جاء إلى العرش بعد الملك «نب كاوو» وأن الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة قد تولى الحكم بعده .

وربما كان الملك «حونى» هو الذى بدأ هرم ميدوم ، ولكنه مات دون أن يتمه فأتمه الملك سنفرو بعد ذلك ، وربما كان ذلك أيضاً هو السبب فى صلة اسم سنفرو بذلك الهرم ، والذى جعل كثيراً من المصريين القدماء فى أيام الدولة الحديثة ينسبون هذا الهرم إليه فى كتاباتهم التى دونوها على أحجاره عندما كانوا يأتون لزيارته .

ومن الشخصيات المهمة التى عاشت فى أيام الأسرة الثالثة وأمتد به العمر إلى أوائل أيام الأسرة الرابعة أحد كبار الموظفين ويسمى «متن» ومن نقوش مقبرته التى نقلت بأكملها إلى متحف برلين نعرف الشيء الكثير عن التنظيم الإدارى للبلاد فى ذلك العهد ، والوظائف التى تدرج فيها والأقاليم المختلفة التى كان يشرف على إدارتها.

الأسـرة الرابعـــة

(٢٦٨٠ – ٢٥٦٠ قبل الميلاد)

كانت مدة حكم الأسرة الثالثة مائة سنة على الأرجح ، وقد بدأت بعهد زاهر وهو عـهد زوسر ولكن سرعان ما توقفت تلك النهضة ولم تتابع تقدمها على الصورة التى كنا نتوقعها . فقد رأينا كيف عرفت مصر تشييد الهرم المدرج ، ومضت عليها عشرات السنين بعد ذلك فلم تخط الخطوة التالية وهى معرفة بناء الهرم الكامل .

ظلت مصر نحو أربعمائة سنة وهى تبنى مقابر ملوكها فى الأسرتين الأولى والثانية على شكل مصاطب مستطيلة الشكل حتى ولد معمارى نابغ وهو إيمحوتب فارتفع بقبر الملك وجعل منه هرما مدرجا . وظل تجديد إيمحوتب مثلا أعلى مدة تقرب من قرن كامل حتى انتهت أيام الأسرة الثالثة وبدأت الأسرة الرابعة .

وليس فى استطاعتنا حتى الآن معرفة العوامل أو الظروف التى أدت إلى ظروف الأسرة الرابعة ، كما تعوزنا أيضاً المعلومات الضرورية لتجديد صلة مؤسس الأسرة الرابعة آخر ملوك الأسرة الثالثة بالرغم من أننا متأكدون أنها لم تكن صلة عداء بل ربما كانت صلة مودة وقربى لاعتناء سنفرو بإتمام هرمه ومعبده فى ميدوم . وكما رأينا تلك الوثبة الكبيرة فى جميع النواحى الحضارية عند ظهور الأســرة الثالثة ، فإننا نرى أيضاً وثبة أخرى عند ظهور الأسرة الرابعة ، ولنتحدث الآن عن مؤسسها .

سنفرو : (٢٦٨٠ – ٢٦٥٦ ق.م.)

تزوج سنفرو من الأميرة ؛ حتب حرس ، (ومن المحتمل جداً أنها ابنة حونى) وهى الأميرة التى كانت تحمل فى دمها حق وراثة العرش ، وبذلك أصبح مركزه شرعياً فى البلاد . ونحن نعرف أن أمه كانت تسمى ؛ مرس عنخ ، وأنها كانت مدفونة فى ميدوم ولكنا لا نعرف على وجه التأكيد صلته بحونى آخر ملوك تلك الأسرة ، ولو أن بعض الباحثين فى التاريخ المصرى يريدون أن يروا بينهما إحدى صلات القربى (١) .

ومن دراسة حجر بالرمو نعرف لكثير عن نشاط هذا الملك ونعرف العدد الكبير

من القصور والمعابد التى أقامها فى البلاد ، كما نعرف أيضاً أنه أرسل أسطولا بحرياً مكوناً من أربعين سفينة لإحضار كتل من أخشاب شجر الأرز من جبال لبنان ، قد بقى حتى الآن كثير من تلك الأخشاب داخل هرمه القبلى فى دهشور (انظر شكل رقم ٦) ، ومازالت تلك الأخشاب فى حالة جيدة حتى الآن ، ومازالت تؤدى المهمة التى أقيمت من أجلها مثل تثبيت بعض الأحجار أو سندها فى أماكنها رغم مضى أكثر من أربعة آلاف وستمائة سنة .

ويشتهر سنفرو أيضاً بحملته التى أرسلها إلى بلاد النوبة فى الجنوب ليعيد الأمن والطمأنينة إلى حدود مصر الجنوبية ، وقد عاد جيشه بسبعة آلاف من الأسرى ومائتى ألف رأس من الثيران والأغنام .

ولم يقف نشاطه عند ذلك الحد بل نراه أيضاً يرسل حملات التعدين إلى شبه جزيرة سينا وقد خلف رجاله ذكرى تلك الحملات على صخور جبل المغارة على مقربة من مناجم النحاس والفيروز فى تلك المنطقة. وبالرغم من أن سنفرو لم يكن أول ملك استغل مناجـم سينا أو أرسل حملات لتأديب الخارجين على القانون من البدو ، فإن الأجيال التالية اعتبرته إلها حامياً للمنطقة إلى جانب المعبودين «حتحور» والإله «سويد» ؛ لأن أعماله فى تأمين حدود مصر الشرقية وما قام به من تحصينات هناك أصبح المثل الذى يحتذى به . وفى أحد النصوص التى كتبت هناك بعد وفاته بما يقرب من ألف سنة يفتخر أحد الملوك بأعماله هناك ويؤكد لنا بأنه لم يقم أحد بمثل ما قام به منذ أيام سنفرو .

وسرعان ما أتت سياسته فى التوسع التجارى مع الشاطىء السورى والنوبة واستغلال المعادن مع تنظيم الأمور الداخلية فى البلاد بأحسن النتائج وبدأت فى مصر نهضة عامة كان أوضحها أثراً ذلك التقدم الذى نراه ظاهرا فى الحياة الاجتماعية للشعب بوجه عام وفى الفنون بوجه خاص ومن بينها فن العمارة .

هرما سنفرو فى دهشور :

شيد هذا الملك قبره الملكى على مقربة من العاصمة ، وأراد المشرفون على بناء ذلك القبر أن يجعلوه هرما كاملا ، وأن يكون أعظم من أى أثر آخر بنى فى مصر قبل أيامه سواء فى حجم الجزء الظاهر للناس أو فى ممراته الداخلية وردهاته .

وبدأوا بناء الجزء الأسفل من الهرم ، وأتموا تشييد جميع ممراته الداخلية ، وجعلوا له مدخلا فى منتصف الواجهة الشمالية كغيره من الأهرام المدرجة التى بنيت قبله ، ويؤدى هذا المدخل إلى دهليز طويل ينحدر إلى أسفل ثم ينتهى بدهليز آخر ثم

حجرة للدفن . وقد تم الكشف فى عام ١٩٥١ أثناء أبحاثى داخل هذا الهرم عن مدخل آخر فى الناحية الغربية وبذلك يتميز هذا الهرم بأنه وحده من بين أهرام مصر جميعاً له مدخلان فى واجهتين مختلفتين له . وارتفع بناء الهرم بزاوية تزيد قليلا عن أربعة وخمسين درجة حتى وصل ارتفاع البناء إلى ٤٨,٠٧ متراً ، وعند ذلك تغير التصميم الأصلى فنراهم يغيرون زاوية البناء إلى ثلاث وأربعين درجة وواحد وعشرين دقيقة فقط ، فلما تم البناء أصبح شكله غير منتظم لتغيير الزاوية وكأنه هرم كامل فوق هرم ناقص ، إرتفاعه الكلى ١٠١,١٥ متراً أما طول ضلع قاعدته المربعة فهو ١٨٨,٦٠ متراً .

وإذا أردنا البحث عن تفسير عملى معقول لتغيير زاوية بناء هذا الهرم لما وجدنا إلا تفسيراً واحداً ، وهو أن زاوية ٥٤ درجة كانت كبيرة جداً وقدر المهندسون المعماريون ان ارتفاع الهرم سيكون كبيراً وربما سبب ذلك ما يؤثر على سلامة البناء ، خصوصاً وأنه قد بدأت تظهر بعض تشققات عالجوها بملئها بالجبس . كانت هذه المحاولة أولى تجارب المصريين فى بذء الهرم الحقيقى كما نعرفه ، وكان هرم دهشور القبلى ، المدرسة التى درسوا فيها هندسة تشييد هرم آخر لسنفرو على بعد يقل من كيلو مترين إلى الشمال منه ، وجعلوا زاوية ميله مماثلة تقريباً لزاوية ميل الجزء العلوى من الهرم القبلى أى ثلاثة وأربعين درجة ثانية . وأدخلوا أيضاً تحسيناً آخر إذ اقتصروا على المدخل الذى فى الناحية اشمالية فقط ، وبدلا من أن يؤدى إلى حجرة واحدة نراه يؤدى إلى حجرات ثلاث واحدة بعد الأخرى . وارتفاع الهرم البحرى وهو أول هرم حقيقى فى تاريخ العمارة المصرية ٩٩ متراً وطول كل ضلع من قاعدته المربعة ٢٢٠ متراً أى لا يقل إلا نحو عشرة أمتار عن ضلع هرم الجيزة الأكبر .

وهنا يجدر بنا أن نقف لنتساءل فى أى الهرمين دفن الملك سنفرو وأصبح المقر الأبدى لجثمانه ؟ . ولست أريد هنا الدخول فى مناقشة تفصيلية ولكنى أعتقد أنه دفن فى الهرم القبلى إذ نراهم قد أتموا جميع الأجزاء المتممة له ، فبنوا فى الناحية الجنوبية منه ذلك الهرم الصغير الذى أراد أن يسميه بعض الأثريين هرم الروح أو هرم الطقوس، ولكنا لا نعرف تماماً ماذا كانت وظيفته ولسنا متأكدين من شىء يختص به إلا من أنه لم يستخدم للدفن بل ربما كان مقاماً للقيام بشعائر خاصة متصلة بتقديم القرابين . وأقاموا حول الهرم سوراً كبيراً من الحجر وبنوا فى الناحية الشرقية منه معبداً جنازياً صغيراً شبيهاً بمعبد هرم ميدوم ، كما بنوا طريقاً يوصل من الناحية الشمالية من السور إلى الوادى وانحرفوا به نحو الشرق حيث شيدوا هناك معبداً كبيراً على مسافة تزيد على سبعمائة متر من الهرم غطوا جزءاً كبيراً من جدرانه بنقوش

تمثل الملك سنفرو وهو يقوم ببعض الطقوس الدينية المعروفة وأهمها مناظر من العيد الثلاثيني ، ومناظر تمثل زيارته للهياكل في عاصمتي الشمال والجنوب (بوتو ونخن) ، كما نرى فيه أيضاً مناظر تمثل أقاليم مصر وأهم بلادها في ذلك الوقت التي كان يمتلك فيها سنفرو ضيعة من ضياعه ورمزوا لكل منها بسيدة تحمل القرابين وكتبوا أمامها إسم البلد أو الإقليم مرتبة ترتيباً طوبوغرافياً من الجنوب للشمال مما ساعد على تحديد أمكنتها الحالية . وظهرت في حفائر ذلك المعبد بين أعوام ١٩٥١ ، ١٩٥٣ بعض تماثيل مهشمة للملك سنفرو وعدد كبير من تماثيل كهنة المعبد في أيام الدولتين القديمة والوسطى إذ كان هذا المعبد قائما ولم تمتد إليه يد التخريب إلا في الدولة الحديثة .

وإلى الشرق من الهرم البحرى انتشرت مقابر عائلة سنفرو ، ومن بينهم بعض أبنائه وبناته وهي معروفة منذ أكثر من ستين سنة ، كما انتشرت أيضاً مقابر كثيرين من كهنته وموظفيه ، سواء في أيامه أو فيما تلا ذلك من عصور . وما زال عدد كبير من تلك المصاطب والجبانات ينتظر الحفر . ولم نتمكن حتى الآن من حفر المنطقة الواقعة حول الهرم البحرى حتى نستطيع القول إن كان له هو الآخر معبد جنازى إلى الشرق منه ومعبد في الوادى أو أن المصريين القدماء اقتصروا على معبدى الهرم القبلي .

على أى حال فهناك حقيقة مهمة وهي أن النصوص القديمة تذكر دائماً هرمى سنفرو (١) ، وتذكر المدينة التي كانت مركزاً لإدارة ممتلكات هذين الهرمين ، كما نعرف أيضاً أن المصريين في الأسرة الثانية عشرة الهوا سنفروا فأصبح واحداً من الآلهة يذكرونه ويقدمون له القرابين جنباً إلى جنب مع الآلهة الأخرى مثل أوزيريس ورع وسوكر وبتاح وغيرهم .

وقبل أن أعود إلى الحديث عن سنفرو أحب أن أذكر شيئاً قليلا عما بلغه الفن في أيامه ، إذ يكفي أن يلقى الإنسان نظرة على نقوش معبده أو على نقوش المقابر التي شيدت في عصره سواء في منطقة دهشور أو في ميدوم ليدرك مدى ما بلغه فن النحت سواء في النقوش البارزة أو في الرسم بالألوان ، إذ وصل الفنان المصرى في عهد سنفرو إلى حد لم يستطع أن يتفوق عليه في العصور التالية إلا في حالات قليلة .

الملكة حتپ حرس :

ويقف زائر المتحـف المصرى مذهولاً أمام بعض آثار ميدوم مثل تمثال نفرت (انظر شكل رقم ٧) وزوجها رع حوتپ الذى كان أحد أبناء سنفرو ، أو أمام بعض رسوم مقبرة نفر ماعت وخاصة رسم أوز ميدوم ، ولكن إعجابه يتضاعف عندما يقف فى القاعة التى صفت فيها محتويات مقبرة الملكة حتپ حرس زوجة سنفرو فى المتحف المصرى ، ويرى فى تلك القاعة حليها وسريرها المصفح بالذهب وكرسيها الكبير وخيمتها المتنقلة ذات الأعمدة المصفحة بالذهب ، ويرى محفتها كما يرى أيضاً بعض أدوات زينتهـا المصنوعـة من الذهب أو النحـاس . يقف الزائر حـائراً مـوزع الإحساس ، لا يدرى بأيهما يعجب أكثر من الآخر هل يعجب بما وصل إليه المصريون القدماء من حـضارة ورفـاهيه فى حيـاتهم الشـخصية قبل ٤٦٠٠ عام ، أم يعـجب بالصانع المصرى وتفوقه فى ذلك العهد البعيد .

ولمحتويات مقبرة « حتپ حرس » قصة لا تخلو من الطرافة . ففى عام ١٩٢٦ عثرت بعثة هارڤارد – بوسطون الأمريكية على فوهة بئر أثناء حفائرها شرقى الهرم الأكبر فى الجيزة ولم يكن لهذا البئر أى هيكل مشيد فوقه ، وكان مملوءاً بالأحجار المرصوصة . فلما وصل المكتشفون إلى نـهايته وجدوا مدخل الحجرة الجانبى مسدوداً بالأحجار المبنية وخلفه كدست محتويات المقبرة فوق بعضها ، وكان فيها تابوت من المرمر وضع غطاؤه فوق صندوقه .

كان اسم الملكة حـتپ حرس واسم زوجها سنفرو مكتوباً على الأثاث ولهذا توقع المكتشفون أن يكون جثمانها داخل التابوت ، فلما رفعوا غطاءه لم يجدوا فيه شيئاً . كان داخل الحجرة يدل على أن وضع محتويات القبر تم فى سرعة ودون ترتيب ، بل أن بعض الأشياء كان يرمى رمياً فوق البعض الآخر ، وها هو التابوت خال من الجثة، وزيادة على ذلك فأين هيكل المقبرة العلوى إن كان هذا المكان قد أعد ليكون المثوى الأبدى لزوجـة سنفرو وأم خـوفو ؟ ولم يعـد هناك شك فى أن سـراً قديماً يخـتفى وراء ذلك ، وتقدم « ريزنر » رئيس تلك البعثة بتفسير مقبول .

كانت حـتپ حرس مدفونة فى دهشور على مقربة من هرم زوجها بالرغم من أنها عاشت إلى أيام ابنها خوفو الذى اختار منطقة الجيزة لتكون جبانة ملكية له ، فقلت العناية بمنطقـة دهشور . وبعـد دفنهـا بقليل تمكن بعض اللصـوص من الوصـول إلى المقبرة وأخـذوا ما استطاعوا أخذه من الحلى إن كان هناك شىء آخر غير ما عثر عليه المكتشفون فى أحد الصناديق . وحملوا معهم جثة الملكة بما عليها من حلى أخرى كما

جرت العادة . فلما اكتشف الحراس حقيقة ما حدث رأى المسئولون ألا يتركوا القبر فى مكانه بعد ذلك ونقلوا كل شىء إلى الجيزة وقطعوا إلى جانب طريق المعبد الجنازى الذى كانوا يعملون فيه إذ ذاك ذلك البئر العميق وكدسوا فيه ما بقى من محتويات المقبرة .

ويعتقد مكتشفو المقبرة أن نقل التابوت ووضع غطائه فوقه دليل على أنهم أخفوا على « خوفو » حقيقة ما حدث من أخذ اللصوص لجثتها (١) . ولم يعثر حتى الآن فى دهشور أو فى ميدوم أو فى الجيزة على أى قبر أو بقايا من قبر يمكن أن تنسبه إلى هذه الملكة حتى نقول ونحن واثقون إنها كانت مدفونة فيه .

ذكرى سنفرو :

لم يكن سنفرو ملكا عظيما محباً للبناء فحسب ، بل كان شخصاً محبوباً ممن حوله ، عادلاً بين رعيته ، وقد رأينا كيف آلهه المصريون بعد وفاته بأكثر من ستمائة عام ، ونعرف أيضاً أن بعض ملوك الأسرة الثانية عشرة اختاروا منطقة دهشور بالذات ليشيدوا فيها أهرامهم ليكونوا على مقربة منه ، تيمناً بقداسة المنطقة .

ولكن الأمر الذى يستلفت النظر هو ما كانت تكتبه الأجيال التالية عنه ، إذ قلما كان يرد إسمه فى أحد النصوص إلا وكانوا يشفعونه بعض الأوصاف التى لم يكن يستخدمونها عند الإشارة إلى أى ملك أخر من ملوك الدولة القديمة مثل قولهم عنه « الرحيم ، الملك المحسن المحبوب » .

ونقرأ عنه فى بردية وستكار التى كتبت بعدما يقرب من سبعمائة سنة بعد وفاته قصة حرص فيها كاتبها على إظهار وداعة أخلاقه وحلمه وعطفه على من حوله ، واستخدامه أرق الألفاظ عند الحديث معهم (٢) .

وحكم سنفرو أربعة وعشرين عاما ، وكان أبناؤه يتولون جميع المناصب الهامة فى البلاد ، سواء فى العاصمة أو فى الأقاليم ، فلما جاء اليوم الذى ترك فيه أمور مصر إلى إبنه خوفو ، ترك له عرشا ثابت الأركان ، وبلداً غنياً منظم الإدارة وترك له أيضا موظفين مدربين ، وفنانين اكتملت خبرتهم .

خوفو : (٢٦٥٦ - ٢٦٣٣ ق.م.)

لم يعد لدينا الآن أى شك فى أن خوفو كان أحد أبناء سنفرو من زوجته الأولى الملكة « حتب حرس » وبالرغم من ذلك فما زال بعض المشتغلين بالتاريخ يرددون ما كتبه برستد منذ أكثر من خمسين سنة عن اعتقاده بأن خوفو كان زعيماً من إقليم المنيا استناداً إلى وجود بلد باسم « منعت خوفو » أى مربية خوفو ، ولكن الحقيقة الثابتة الآن فى ضوء ما جد لدينا من معلومات أن « منعت خوفو » ليست إلا إحدى الضياع التى ورثها عن أبيه وكانت تسمى « منعت سنفرو » فغير إسمها إلى « معت خوفو » [١] أما عن اسمه فقد فضلت اتباع النطق القديم بالرغم من أن نطقه الأصح هو « خوفو وى » وهو اختصار لاسمه الكامل « خنوم خوفو وى » وذلك لاعتياد قراء العربية عليه منذ أجيال كثيرة .

تولى خولو عرش مصر وجنى ثمار إصلاحات أبيه ، وإذا ألقينا نظرة عن أعماله المختلفة لأدركنا أن السياسة الإنشائية التى وضع سنفرو أساسها قد استمرت ، فقد عثر على اسمه فى كثير من بلاد مصر سواء فى الدلتا أو فى الصعيد ، كما أرسل أيضا حملات إلى جبل المغارة لإحضار الفيروز وربما النحاس من هناك .

وكانت تجارة مصر الخارجية ، وبخاصة مع الشاطىء الفينيقى مزدهرة ، ومن المرجح جداً أنه كانت تقيم فى مدينة جبيل (إلى الشمال من بيروت الحالية) جالية مصر للتجارة منذ أيام الأسرة الثانية ، واهتم سنفرو بتشييد سفنه من أخشاب الـ «مرو» ومن خشب الأرز ، واستخدمه فى مبانيه ولكن منذ عهد خوفو على الأقل قام فى وسط « جبيل » معبد مصرى أضاف إليه من جاء بعهد ، حيث عثر على أحجار منه تحمل اسمه وأسماءهم .

ولكن هذه الأعمال المختلفة لم تكن هى السبب فى تخليد اسمه فى التاريخ على مدى الأجيال بل كان السبب فى ذلك هرمه الذى شيده على هضبة الجيزة ، وهو المعروف باسم الهرم الأكبر ، والذى ما زال شامخاً سليم البنيان يتحدى الزمن ويغالبه ،

ينتزع إعجابنا اليوم كما انتزع إعجاب الشعوب القديمة جميعا . ويعترف الناس اليوم كما اعترفوا بالأمس بأنه ليس واحداً من عجائب الدنيا السبع وحسب بل هو عجيبة العجائب؛ لأنها زالت وبقى وحده على مر الأجيال [1] .

هرم الجيزة الأكبر :

قضى مهندسو « سنفرو» ما يقرب من ربع قرن فى تشييد أهرامه ومقابر أسرته وكبار موظفيه ، استكملوا خلالها خبرتهم العظيمة فى تشييد الأهرام . فلما جاء اليوم الذى بدأوا فيه فى تشييد هرم ابنه « خوفو » أرادوا أن يجعلوه أعظم من أهرام أبيه ليس فى الحجم فقط بل وفى التصميم ، والنسبة بين أجزائه ، وفى الإتقان الكامل لفن البناء.

وإذا أردنا وصف الهرم لطال بنا الأمر ، ويكفى أن نذكر أنه يشغل مساحة لا تقل عن ثلاثة عشر فدانا وأنهم قد استخدموا فى بنائه عدداً لا يقل عن ٢,٣٠٠,٠٠٠ كتلة من الحجر قطعوها من محاجر فى الهضبة نفسها ، ويزيد وزن بعضها عن ثمانية أطنان ويقل وزن البعض الآخر (الجزء الأعلى من الهرم) عن طن واحد . وقد حسب أحد الرياضيين أنه لو تيسر تقطيع الكتلة الكاملة للهرم الأكبر إلى أحجار صغيرة كل منها قدم مكعب واحد ووضعنا هذه الأحجار إلى جانب بعضها لأصبح طول ذلك الخط ثلثى محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء ، كما قدر البعض الآخر أنه لو استخدمت أحجار الهرم فى عمل سور حول فرنسا ارتفاعه ثلاثة أمتار وعرضه متر واحد لكفت .

وارتفاع الهرم ١٤٦ متراً وطول ضلع قاعدته ٢٣٠ متراً ولكن هذا كله يتضاءل أمام إعجابنا بدقة المصريين فى ذلك العهد البعيد وتفوقهم فى فن البناء ووصولها إلى حد الإعجاز فى ضبط الزوايا والأبعاد . وسيزداد الزائر إعجاباً إذا زار داخله واتخذ طريقه فى تلك الطرقات القليلة الارتفاع ثم وجد نفسه فى تلك الردهة المرتفعة ووقف أخيراً يتطلع إلى تابوت الملك خوفو فى حجرة الدفن .

وعندما بدأ مهندسو خوفو فى تشييد هذا الهرم لم يكن التصميم الأصلى هو البناء الحالى الذى نراه أمامنا بل كان يقل عنه . ولم تكن حجرة دفنه فى داخل البناء بل كانت مقطوعة فى الصخر ويؤدى إليها ممر منحدر فى جوف الأرض وأثناء العمل غيروا التصميم وزادوا من البناء وأصبحت حجرة الدفن فى داخل البناء نفسه ، وهى المعروفة الآن خطأ باسم حجرة الملكة ، وللمرة الثانية غيروا التصميم وقام المهندسون بعمل الردهة الكبرى الصاعدة التى توصل إلى حجرة الدفن .

وكان الهرم بأكمله مكسواً من الخارج بكساء من الحجر الجيرى الأبيض الذى قطعوه من محاجر طرة فى الشاطىء الشرقى للنيل ، وكان له معبد جنازى كبير فى الناحية الشرقية منه ما زالت بقاياه موجودة ، وعلى الأخص أرضيته من حجر الدلوريت الأسود المقطوعة من محاجر فى شمال بحيرة قارون بالفيوم .

وكانت بعض جدران هذا المعبد منقوشة وقد عثر على بعضها فى حفائر مصلحة الآثار عام ١٩٣٨ ، وفى الناحية الشرقية من المعبد بنوا جسراً ضخما نزل من حافة الهضبة إلى الوادى ، واستخدموا هذا الجسر ليكون الطريق الموصل إلى معبد الوادى الذى لم يكتشف مكانه حتى الآن ، وإن كان من المؤكد أنه تحت منازل بلدة نزلة السمان الحالية .

وكان هناك هرم صغير فى الناحية الجنوبية من هرم خوفو هدم وزالت أحجاره منذ عهد بعيد ، كما قطعوا فى الصخر أماكن كبيرة الحجم كانوا يضعون فيها سفنا كبيرة من الخشب لتكون تحت تصرف الملك عندما يقوم برحلتى النهار والليل مع إله الشمس رع وفى مختلف الأغراض عند عبور الأنهار والبحيرات فى العالم الآخر . وقد كشفت الحفائر منذ وقت بعيد عن ثلاثة من تلك الأماكن المعدة للمراكب فى الناحية الشرقية من الهرم ، كما عثر فى صيف عام ١٩٥٤ على أماكن اثنتين أخريين فى الناحية الجنوبية ، وقد رفعت الأحجار الضخمة التى سقفوا بها مكان واحد منها فكشفت عن أجزاء مركب كبير من خشب الأرز فى حالة جيدة ومعه جميع معداته من مجاديف وحبال ومقصورة للجلوس . ونعرف الآن أن طول هذا المركب ثلاثة وأربعون متراً ونصف وأن ارتفاع مقدمتها خمسة أمتار وارتفاع مؤخرتها سبعة أمتار . وليس هذا المركب أكبر ما كان يصنعه المصريون القدماء بل كان هناك ما هو أكبر منها طولا إذ ورد فى حجر بالرمو من عهد سنفرو نفسه ذكر بناء كثير من السفن التى كان طول كل منها مائة ذراع مصرى أى أكثر من اثنين وخمسين متراً .

لم تكن فكرة وجود مراكب على مقربة من الأهرام جديدة على الأثريين فقد

وعندما بدأ مهندسو خوفو فى تشييد هذا الهرم لم يكن التصميم الأصلى هو البناء الحالى الذى نراه أمامنا بل كان يقل عنه . ولم تكن حجرة دفنه فى داخل البناء بل كانت مقطوعة فى الصخر ويؤدى إليها ممر منحدر فى جوف الأرض وأثناء العمل غيروا التصميم وزادوا من البناء وأصبحت حجرة الدفن فى داخل البناء نفسه ، وهى المعروفة الآن خطأ باسم حجرة الملكة ، وللمرة الثانية غيروا التصميم وقام المهندسون بعمل الردهة الكبرى الصاعدة التى توصل إلى حجرة الدفن .

وكان الهرم بأكمله مكسواً من الخارج بكساء من الحجر الجيرى الأبيض الذى قطعوه من محاجر طرة فى الشاطىء الشرقى للنيل ، وكان له معبد جنازى كبير فى الناحية الشرقية منه ما زالت بقاياه موجودة ، وعلى الأخص أرضيته من حجر الدلوريت الأسود المقطوعة من محاجر فى شمال بحيرة قارون بالفيوم .

وكانت بعض جدران هذا المعبد منقوشة وقد عثر على بعضها فى حفائر مصلحة الآثار عام ١٩٣٨ ، وفى الناحية الشرقية من المعبد بنوا جسراً ضخما نزل من حافة الهضبة إلى الوادى ، واستخدموا هذا الجسر ليكون الطريق الموصل إلى معبد الوادى الذى لم يكتشف مكانه حتى الآن ، وإن كان من المؤكد أنه تحت منازل بلدة نزلة السمان الحالية .

وكان هناك هرم صغير فى الناحية الجنوبية من هرم خوفو هدم وزالت أحجاره منذ عهد بعيد ، كما قطعوا فى الصخر أماكن كبيرة الحجم كانوا يضعون فيها سفناً كبيرة من الخشب لتكون تحت تصرف الملك عندما يقوم برحلتى النهار والليل مع إله الشمس رع وفى مختلف الأغراض عند عبور الأنهار والبحيرات فى العالم الآخر . وقد كشفت الحفائر منذ وقت بعيد عن ثلاثة من تلك الأماكن المعدة للمراكب فى الناحية الشرقية من الهرم ، كما عثر فى صيف عام ١٩٥٤ على أماكن اثنتين أخريين فى الناحية الجنوبية ، وقد رفعت الأحجار الضخمة التى سقفوا بها مكان واحد منها فكشفت عن أجزاء مركب كبير من خشب الأرز فى حالة جيدة ومعه جميع معداته من مجاديف وحبال ومقصورة للجلوس . ونعرف الآن أن طول هذا المركب ثلاثة وأربعون متراً ونصف وأن ارتفاع مقدمتها خمسة أمتار وارتفاع مؤخرتها سبعة أمتار . وليس هذا المركب أكبر ما كان يصنعه المصريون القدماء بل كان هناك ما هو أكبر منها طولاً إذ ورد فى حجر بالرمو من عهد سنفرو نفسه ذكر بناء كثير من السفن التى كان طول كل منها مائة ذراع مصرى أى أكثر من اثنين وخمسين متراً .

لم تكن فكرة وجود مراكب على مقربة من الأهرام جديدة على الأثريين فقد

كان معروفا لخوفو ، كما قلنا ثلاثة منها من قبل (إثنتين فى الناحية الشرقية والثالثة إلى جانب الطريق الموصل إلى معبد الوادى) . ونعرف أيضاً أمكنة خمسة على الأقل على مقربة من هرم ابنه خفرع . وقد عثر على بعض مراكب خشبية على مقربة من سنوسرت الثالث فى دهشور إثنتان منها فى المتحف المصرى بالقاهرة وثالثة فى أحد متاحف شيكاجو بالولايات المتحدة الأمريكية ولكنها أقل كثيراً فى الحجم وجودة الصناعة ، كما أن مراكب خوفو ليست أقدم ما نعرفه إذ نعرف وجود هذا النوع من المراكب إلى جوار مقابر الأسرة الأولى فى سقارة وحلوان .

ولكن بالرغم من أن الفكرة لم تكن جديدة على الأثريين فإن الاكتشاف الجديدة ذو أهمية لا يمكن التقليل منها ، ولن يزيد هذا الاكتشاف من معلوماتنا عن صناعة السفن والتجارة فى ذلك العهد البعيد فحسب بل ستزداد معلوماتنا كثيراً من دراسة المواد المختلفة التى عثر عليها فى المكان واستخدموها مع السفينة (١) . وكثيراً ما تذكر هذه السفينة على أنها مركب الشمس أو سفينة الشمس ، ولكن يجب الاحتراس من هذه التسمية ؛ لأنه ليس لدينا على الإطلاق ما يثبت أنها كانت إحدى سفينتى رحلة الشمس بل هناك أكثر من قرينة تدل على عكس ذلك القول وأنها كانت واحدة من السفن السبع أو الثمانى التى وردت فى نصوص الأهرام مقترنة برحلة الملك بعد وفاته فى العالم الآخر ، وذلك لأن مخصص سفن الشمس كان ذا شكل خاص كما كان يحتوى على رموز دينية خاصة مقامة فيها وذلك كله لم يتوفر فى السفينة المكتشفة .

أما عن الوقت الذى استغرقه بناء هذا الهرم فنحن لا نعرف إلا ما ذكره المؤرخ اليونانى هيرودوت وقال بأنه سمعه من الكهنة المصريين وهو أن بناء الأجزاء السفلى والممرات الصاعدة قد استغرق عشر سنوات ، وأن بناء الهرم نفسه استغرق عشرين عاما ، وكان عدد العمال مائة ألف يعملون ثلاثة أشهر فى السنة . وللمؤرخين العذر إذا شكوا فى صحة الرواية ؛ لأن هيرودوت لم يسمعها إلا بعد مضى أكثر من ألفى سنة بعد بناء الهرم ولم يكن محدثوه إلا من صغار الكهنة ، وهم لا يزيدون فى معلوماتهم عن الأدلاء الحاليين الذين نراهم حول الهرم إن لم يقلوا عنهم فى المعرفة . وقد ذكر الكهنة له ما كان يردده الشعب من قصص ، وبعضها لا يمكن أن يصدقه العقل ،

ولكن بالرغم من ذلك فقد درس المهندسون المعماريون هذا الموضوع وهم مقتنعون بأن بناء الهرم يحتاج على الأقل إلى مثل ذلك الوقت . أما الرقم الذى ذكره عن عدد العمال فربما كان صحيحاً وأنهم كانوا يأتون بهم فى وقت الفيضان بينما كان المختصون من عمال المحاجر والنحاتين يعملون طول العام . وذكر لنا هيرودوت أيضاً أن خوفو كان قاسياً على شعبه وأنه كان يسخر الناس دون رحمة ولهذا كرهوه وحقدوا عليه ، وسواء أكان ذلك صحيحاً أو غير صحيح فإننا لم نعثر فيما كشفت عنه الحفائر من نصوص ما يثبت ذلك . وكثيراً ما نقرأ لبعض الكتاب نقدا لاذعا من أعمال السحرة أو الرق فى تشييد الهرم ، وعن الحكام الذين يستنزفون دماء الشعب فى سبيل تحقيق أشياء لا فائدة منها للناس بل كل فائدتها تعود إلى الحاكم نفسه ليتباهى بها . وأراد البعض الآخر أن يدافع عن قدماء المصريين فقال بأن خوفو وغيره من الملوك كانوا يشيدون الأهرام ليساعدوا المتعطلين عن العمل فى شهور الفيضان عندما تصبح الحقول مغطاة بالمياه ، فتقل فرص العمل ويندر وجود القوت للفقير الذى لم يستعد لتلك الأيام ، فكان تشييد الأهرام عملا إنسانياً ؛ لأنه يضمن لهم الطعام والشراب .

وكلا الرأيين بعيد عن الصواب لأننا لا يمكن أن نحكم على الماضى بمنطق العصر الحاضر ، أو بتعاليمه وآرائه . كان الملك فى مصر إلها معبودا من شعبه ، إلها كغيره من الآلهة الذين فى السماء ، ولكنه رضى أن يعيش على الأرض لكى يحكمها ويسعد الناس بوجوده بينهم . فإذا وضعنا ذلك فى أذهاننا لأدركنا أنه كان يسر الكثير من الناس وبخاصة الذين يعيشون فى القرى النائية بعيدا عن المدن أن تتاح لهم فرصة فى أيام الفيضان ، وأيام الضيق المادى فى الوقت ذاته ، ليزوروا العاصمة التى طالما سمعوا عن عجائبها والطرف بالنظر إلى معابد الآلهة وقصور العظماء ، وكان يسرهم دون شك أن يساهموا فى عمل شيء لإلههم عسى أن يكون فيه قربى ورحمة لهم ، وكان يسر الفقراء من عامة الشعب أن يضمنوا عدم الحاجة طيلة أيام إقامتهم فى العاصمة .

وربما صعب فهم ذلك على الغربيين الذين طغت على أذهانهم فلسفة المادية ومنطقها ، وربما صعب فهم ذلك أيضاً على بعض أبناء المدن الكبيرة فى الشرق ممن تنقصهم تجارب الحياة ، ولكن ليذهب هذا أو ذاك إلى إحدى القرى الصغيرة فى ريف مصر أو غير مصر ، ويرى الناس وهم يعملون عندما يستقر رأيهم على بناء مسجد صغير أو ضريح لأحد الأولياء ، فيرى أهل القرية جميعا ، بل وبعض جيرانهم من القرى الأخرى وهم يعملون دون أجر ، ويرى القادرين من بينهم يتنافسون فى تقديم

الطعام لغير القادرين من العاملين ، والنساء يعملن طول اليوم فى حمل الماء اللازم للبناء ، بل ويطغى الحماس على أغنياء القرية فيأبون إلا أن يعملوا بأيديهم مع غيرهم راجين المغفرة والثواب . فليذهب إليهم ويرى البشر يعلو وجوههم وهم يعملون طول اليوم تحت وهج الشمس ، وليتحدث بعد ذلك عن السخرة أو غير السخرة .

وقبل أن أترك موضوع هرم خوفو إلى نقطة أخرى أحب أن أشير إلى ما تطلع به علينا بعض الصحف من أن بعض الباحثين استطاعوا أن يتنبأوا بحوادث مقبلة من دراساتهم لمقاييس الردهات والحجرات الداخلية فى الهرم الأكبر ، ولست أدرى لماذا يختصون الهرم الأكبر من بين جميع أهرام مصر فيقولون بأن حكماء المصريين القدماء أو من بنوه هم من بنى إسرائيل كما يقولون – وقد تم تشييد الهرم قبل أن يظهر اسمهم فى التاريخ بقرون طويلة – جعلوه مستودعا لكل تلك الأسرار . ولقد قرأت بعض كتبهم وأكثرها منشور فى انجلترا ، أو فى أمريكا فى المدة الأخيرة ، وكل ما أستطيع أن أقوله هو أن جميع تلك الآراء قائمة على فروض خاطئة ومعلومات مغرضة غير صحيحة ، وأن مقاييسهم التى يبنون عليها نظرياتهم مقاييس أكثرها لا صحة له ، ويكفى أن يتذكر القارىء ما سبق أن ذكرته وهو حدوث تعديلات جوهرية فى تصميم الهرم أثناء تشييده . كما أرجو ألا ننسى أنه لم يقصد من الهرم عند بنائه إلا أن يكون قبرا ومنزلا أبديا لصاحبه وكان المفروض فيه أن يظل إلى الأبد مغلقا لا يدخله أحد من الناس .

جبانة الهرم الأكبر :

وسمح خوفو بأن تشيد مقابر المقربين من أهله ورجال بلاطه وكبار موظفيه على مقربة من هرمه ليكونوا حوله فى الحياة الأخرى، كما كانوا حوله فى دنياهم ، وبذلك يضمنون لأنفسهم الحياة الخالدة السعيدة . وخصصوا الناحية الشرقية من الهرم لأفراد عائلته فترى فى أول صف قريب من ضلعه الشرقى ثلاثة أهرام صغيرة لثلاثة من زوجاته ثم نرى مقابر أبنائه وإخوته وغيرهم من عائلته فى صفوف متراصة حتى تصل المقابر إلى حافة الهضبة . وكان بعض إخوته (مثل « حم إيون » ، وهو ابن لسنفرو وكان مشرفا على تشييد هرم خوفو فى فترة من فترات تشييده – انظر شكل رقم ٨) وغيره مع عدد كبير من رجال البلاط والموظفين مدفونين فى الناحية الغربية من الهرم فى صفوف بينها طرقات مستقيمة . وقد تم فحص الجزء الأكبر من الجبانتين الشرقية والغربية على يدى أعضاء بعثة هارفاردو بوسطون وبعثة أكاديمية العلوم فى ڤينا ، وجاءت تلك الحفائر بنتائج علمية كبيرة جلت لنا كثيراً من النقط

الغامضة فى تاريخ وحضارة هذه الفترة المهمة فى التاريخ المصرى . وقد سطا اللصوص على أكثر هذه المقابر فى العصور القديمة والحديثة ولكن بقى رغم ذلك الكثير من الآثار الهامة وبخاصة النقوش والتماثيل وغيرها . وهناك ما يدل على أن الهرم نفسه قد تعرض لما تعرضت له الجبانة كلها ففتح ونهب فى فترة الضعف الذى أصاب مصر فى عصر الفترة الأولى ، أى فى أعقاب الدولة القديمة .

النزاع بين أفراد العائلة المالكة :

ونرى فى كل من الجبانتين وبخاصة الشرقية أثر النزاع المرير بين أبناء خوفو، وبينها مقابر كثيرة لم يتم بناؤها أو لم يتم نقش جدرانها وبينها نقوش محيت أسماء أصحابها وصورهم . ويتلخص النزاع فى أن خوفو تزوج أكثر من زوجة وولد له أبناء من كل منها ، وظهر الصراع بين الأبناء تساندهم أمهاتهم وبعض رجال البلاط لتولى العرش . ومن إحدى مقابر الجبانة الشرقية ، وهى مقبرة الملكة « مر سعنخ الثالثة » نستطيع أن نلم ببعض نواحى تلك المأساة .

نرى مر سعنخ ووالدتها تلبسان فى رسوم هذه المقبرة ملابس تختلف عن ملابس المصريات كما يختلف أيضا لون شعرها إذ هو أشقر فيه شيء من الحمرة وعيونها زرقاء ، ولهذا أراد ريزنر أن يرى فيها دما شماليا أى أنها ربما كانت سليلة أحد البيوت التى استقرت على الشاطيء الإفريقى الشمالى فى ذلك العهد (قبائل التمحو) وكانت قد هاجرت إلى هناك من مواطنها الأصلية فى شمال أوروبا .

وسواء أكان ذلك صحيحاً ، أى أن تلك الملكة كانت من نسل ليبى عن طريق أمها أو لم تكن ، فإنا نعرف أن أمها الأميرة حتپ حرس الثانية كانت زوجة لولى العهد الأمير « كا وعب » الذى دبر أخ له يسمى « چدف رع » أمر قتله ليتولى العرش . وكان « چدف رع » ابنا لزوجة ثانوية (ربما كانت من أصل ليبى من الفرع نفسه الذى ولدت فيه حتپ حرس الثانية وابنتها) . ونجح فى مؤامرته وتولى العرش واتخذ حتپ حرس الثانية زوجة « كا وعب » لتكون إحدى زوجاته .

ولم تلد حتپ حرس ولدا للملك الجديد بينما ولد هذا الولد من زوجة أخرى فارتفع شأنها وأصبحت حتپ حرس الثانية واحدة من الزوجات الثانويات .

ولم يكن باقى العائلة راضين عما حدث ، وكانت المؤامرات تحاك حول الملك الجديد ، وأخيرا وبعد مضى سنوات ثمانية يختفى « چدف رع » من مسرح الحوادث ويتولى عرش مصر أخ له يسمى « خفرع » كان قد تزوج من إبنة « كاوعب » و « حتپ حرس الثانية » وهى مرسعنخ الثالثة .

ولكن النزاع بين فرعى العائلة لم ينته عند ذلك الحد إذ ندرك من دراسة بردية تورين ومن تاريخ مانيتون أو ذلك الفرع لآخر تمكن مرتين على الأقل من الإستيلاء على العرش فترة قصيرة إحداها بعد موت خفرع وقبل أن يتمكن إبنه من كاو رع من استعادة عرش أبيه ، والمرة الثانية فى أواخر أيام الأسرة بعد وفاة شبسسكاف آخر ملوكها المعترف بهم إذ أن أكثر نصوص تلك الأسرة والوثائق التى كتبت فى العصور التالية اعتبرت أولئك الملوك الذين ينتمون إلى الفرع الآخر مغتصبين للعرش فلم تذكر أسماءهم ، واقتصرت فقط على ذكر أسماء خفرع ومنكاورع وشبسسكاف .

وفى عام ١٩٥٠ اكتشف أحد المشتغلين بالآثار على أحد الصخور فى وادى الحمامات نقشا فيه بيان بأسماء بعض ملوك الأسرة الرابعة وقد وضع اسم كل منهم فى خانة ملكية . وبالرغم من أن تاريخ كتابة هذا النقش لا يمكن أن يكون قبل الأسرة الثانية عشرة فإنه يصور لنا على الأقل ما كان معروفاً من معلومات عن تتابع ملوك الأسرة الرابعة فى أيام الدولة الوسطى .

وترتيب أولئك الملوك فى نقش وادى الحمامات كما يأتى : خوفو ، رع ددف ، خفرع ، حور ددف ، وأخيرا با – اف – رع (١) . أى أنه فى الفترة بعد موت خفرع لم يتول العرش شخص واحد بل اثنان نعرف أولهما وهو حور ددف من كثير من الوثائق إذ كان ابنا لخوفو وكان مشهور بحكمته وله مقبرة فى الجيزة ، أما الثانى فليست له مقبرة معروفة فى الجيزة . وهناك احتمال بأن يكون قد غير اسم الإله رع فى تركيب اسمه إذ نعرف اثنين من أبناء خوفو أحدهما يسمى با – اف – خنوم (والإله خنوم شديد الصلة بهذه العائلة واسم خوفو الكامل هو خنوم – خوف – وى كما ذكرنا) والثانى يسمى « با – اف – حور » . ونعرف من بردية وستكار (وهى من الدولة الوسطى مثل نقش الحمامات أن ابن خوفو الذى قص على أبيه قصة كبير المرتلين زازا – إم – عنخ مع الملك سنفرو كان أسمه « باو فرع » ، وكان ترتيبه فى قص القصة بعد خفرع وقبل حور ددف .

يكفينا هذا القدر من قصة النزاع بين أمراء هذه العائلة ، ويكفى أن نعرف أن الملك « رع ددف » حكم ثمانى سنوات فقط وأنه لم يكن قد انتهى من تشييد هرمه

عند وفاته . ولم يبن « رع ددف » هرمه على مقربة من هرم أبيه بل اختار له بقعة إلى الشمال من هضبة الجيزة فى موقع ممتاز يشرف على الوادى على مقربة من قرية أبو رواش الحالية ، ولم يكن هرمه أول قبر يبنى هناك بل كانت المنطقة معروفة منذ أيام الأسرة الأولى وفيها جبانات عدة من الأسرتين الأولى والثانية .

وعلى مقربة من مبنى الهرم الذى لم يتم حفره حفرا علميا كاملا حتى الآن قطعت بعض المقابر فى الصخر كما بنى البعض الآخر لعدد من موظفيه .

خفرع وهرمه :

وليس فى استطاعتنا أن نقول ما إذا كان « رع – ددف » قد مات ميتة طبيعية أو أنه كان ضحية مؤامرة من المؤامرات . وتلاه على العرش أخوه خفرع الذى طال حكمه فزاد عن حكم أبيه إذ من الثابت أنه لم يقل عن خمسة وعشرين عاما بل ربما وصل إلى تسعة وعشرين . واختار خفرع لبناء هرمه ربوة خلف هرم أبيه ، ولا شك فى أن مجموعة خفرع الهرمية من أعظم ما تم عمله من مبان فى الدولة القديمة ، ولكنا نلاحظ أن مهندسيه وصناعه لم يصلوا إلى ما وصل إليه زملاؤهم فى عهد خوفو من إتقان .

وهو لا يقل فى ارتفاعه إلا أمتارا قليلة عن هرم أبيه إذ كان ارتفاعه الأصلى ١٤٣,٥ متر وطول ضلع قاعدته المربعة ٢١٥,٥ متر أما داخله فبسيط إذا قيس بالهرم الأكبر ، وله مدخلان من الناحية الشمالية .

وكان هذا الهرم كغيره من الأهرام مكسوا من الخارج بأحجار جيرية من النوع الممتاز نزعت منه ومن غيره فى العصور الوسطى ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادى لاستخدامها هى وغيرها مما بقى من أحجار المقابر والمعابد فى الجيزة وهليوبوليس ومنف ، وجبانتها وغيرها من الآثار ، لبناء أسوار القاهرة وبعض مساجدها ومنازل عظمائها ، بل إن أخذ الأحجار من الأهرام والمعابد لأجل البناء كان مستمرا حتى القرن التاسع عشر (١) .

ولم يبق من الكساء الخارجى إلا جزء بسيط فى أعلى الهرم ، أما باقى المجموعة الهرمية فهى لحسن الحظ فى حالة أفضل من مثيلتها فى هرم خوفو ويستطيع زائر المنطقة أن يرى بقايا معبده الجنازى ، ومعبد الوادى ، وبقايا الطريق الصاعد الموصل بين الإثنين كما يستطيع أن يرى حول الهرم الأماكن التى كانت توضع فيها المراكب اللازمة لرحلة الشمس ، وقد عثر منها على خمسة على الأقل ، كما يستطيع أيضا أن يرى بقايا مدينة العمال فى الجهة الغربية منه وهى مقسمة إلى ١١٠ قاعات وتتسع لإيواء عدد يتراوح بين ٣٥٠٠ ، ٤٠٠٠ عامل .

ويعطينا المعبد الجنازى لهذا الهرم فكرة عما وصلت إليه هندسة بناء المعابد بوجه عام فى ذلك الوقت كما يعطينا أيضا فكرة عما كان عليه قصر الملك أو غيره من الأثرياء القادرين .

يدخل الزائر من بابه الشرقى عند اخر الطريق الصاعد ، فيمر فى دهليز ضيق يؤدى إلى بهوين كبيرين كان يحمل سقف كل منهما أعمدة من الجرانيت ثم يرى بعد ذلك بهوا كبيرا لاسقف له وعلى جوانبه بواكى محملة على أعمدة كبيرة الحجم ، ويلى ذلك خمس حجرات صغيرة يرجح أن كل واحدة منها أقيمت لأجل اسم من أسماء الملوك الخمسة ، وأن جدرانها كانت مزخرفة برسوم للملك .

ويأتى بعد ذلك جزء خاص من المعبد كان لا يسمح بزيارته إلا للكهنة القائمين على خدمته ، وكان فيه الهيكل والمخازن التى كانوا يضعون فيها الأدوات التى تلزمهم فى تقديم القرابين أو أداء الصلوات للملك – الإله .

وكان الطريق الموصل بين هذا المعبد ومعبد الوادى مسقوفا ،[1] ونرى بعض بقايا جدرانه عند معبد الوادى الذى شيدوا جدرانه وأعمدته من جرانيت أسوان وبنوا بعض حجراته وأرضيته من كتل المرمر التى أتوا بها من محاجر حتنوب فى الجبل الشرقى خلف تل العمارنة .

وكان هذا المعبد يستخدم فى بعض الطقوس الدينية الخاصة بغسل الجثة وتطهيرها ثم تحنيطها وكان فى الوقت ذاته مدخلا للمجموعة الهرمية . وله بابان يوصلان إلى بهو مستطيل ثم إلى قاعة محمولة على أعمدة جرانيتية مربعة تمتد فى

وسطها فتكون بهوا آخر (الاثنان يكونان شكل حرف T) كان يقوم إلى جانب كل عمود فى الجزء المستطيل تمثال للملك .

وكانت تماثيل خفرع منتشرة فى أرجاء هذا المعبد وبعضها من حجر الديوريت، ومن بينها ذلك التمثال الشهير الذى يعتبر آية من آيات الفن المصرى ويمثل صاحبه وقد جلس على عرشه ووقف الإله حورس على شكل صقر خلف رأسه ليحميه ، وقد نجا هذا التمثال وغيره من تماثيل هذا الملك ؛ لأن كهنة المعبد حفروا فى وقت من الأوقات حفرة عميقة فى البهو الشرقى المستطيل أودعوها تلك التماثيل التى بقيت فى ذلك المكان حتى عثر عليها عند تنظيف مصلحة الآثار لذلك المعبد فى القرن الماضى .

وصل فن النحت إلى قمته فى عهد خفرع وأصبح فى استطاعة الفنان المصرى أن يسيطر سيطرة تامة على أقسى أنواع الحجر ، ويكفى أن يقف الإنسان أمام هذا التمثال المصنوع من الديوريت وهى مادة أصلب من الجرانيت والبازلت (١) ويرى نجاح الفنان فى التعبيرات التى ظهرت على وجهه ودقته فى إظهار عضلات الجسم ، ومظهره بوجه عام ، ليدرك مدى تقدم الفنان المصرى فى فنه ، ذلك التقدم الذى لم يتفوق عليه هو نفسه فى العصور التالية .

تمثال أبو الهول :

ولا يمكن أن يذكر الإنسان منطقة أهرام الجيزة إلا ويجد نفسه مضطرا لذكر « أبو الهول » التمثال الضخم الرابض على حافة الصحراء والذى احتل مكانة كبرى فى آداب العالم ، وكتب عنه الكتاب منذ أيام الرومان كثيرا من القصائد وحاكوا حوله الأساطير ، وطالما تساءلوا عما يخفيه من أسرار .

والحقيقة أنه لم يعد هناك سر يخفيه . فقد كشفت حفائر مصلحة الآثار فى عام ١٩٢٦ ، ومرة أخرى فى عام ١٩٣٦ ، عن كل ما هناك وأصبحنا متأكدين الآن أن هذا التمثال الكبير المقطوع فى صخر الجبل على هيئة أسد رابض وله رأس إنسان ليس إلا تمثالا للملك خفرع بانى الهرم الثانى ، وأن الصخرة التى هيأوها كانت جزءاً فى

محجر من المحاجر التى أخذ منها عمال خوفو بعض الأحجار اللازمة لبناء الهرم الأكبر وتركوا هذه الصخرة لأنها ليست من الحجر الجيد اللهم إلا فى طبقتها العليا .

فلما استقر رأى خفرع على تشييد هرمه على مقربة من هرم أبيه اضطر للانحراف بالطريق الموصل بين المعبدين ليتفادى هذا المحجر وجعل طريقه يسير على حافته وانتهى أخيرا بمعبد الوادى الذى أشرنا إليه .

ولا شك أن وجود تلك الصخرة كان يشوه المكان ، ولهذا رأى المشرف على العمل أن يستفيد منها لعمل تمثال لسيده الملك ، جسده على صورة أسد وهو أقوى الحيوانات ورأسه على صورة لرأس خفرع نفسه أى أنه كان جامعاً للقوة والعقل ، ثم أصلح أنحاء المحجر وبنى معبداً أمامه (١) .

منكاورع :

استطاع الحزب المعارض فى الأسرة المالكة أن يستولى على السلطة بعد وفاة خفرع وقد تحدثنا عن ذلك النزاع فيما قبل ، ولا تساعدنا معلوماتنا القليلة على الخوض فى هذا الموضوع أو معرفة المدة التى استغرقتها فترة عدم الإستقرار أو القول عن يقين إن كان قد حكم بين خفرع ومنكاورع ملك واحد من إخوة خفرع أو حكم ملكان .

ونرى بعد ذلك ، وقد عادت البلاد إلى حالتها الطبيعية أن الملك منكاورع أخذ يشيد هرمه على مقربة من هرمى أبيه وجده وقد وضع المهندسون تصميمه على أن يكون أقل منهما كثيراً فى الحجم (ارتفاعه ٦٦,٥ متر وطول ضلع قاعدته ١٠٨,٥ متر) ولو أنهم كانوا يقصدون أن يكسوه كله من حجر الجرانيت بدلا من الحجر الجيرى الأبيض ، ولكن لم يتمموا إلا نصفه فقط .

وقد ذكر الكهنة لهيرودوت الشيء الكثير عن ظلم كل من خوفو وخفرع للشعب

وكيف كرههما الناس ومقتوهما ، ويذكر أيضاً كيف خالف منكاورع أساليب من سبقه وأبطال الظلم وفتح المعابد فأحبه الناس .

وربما كانت هذه القصة تحمل بين ثناياها شيئا من الصدق ، فلا شك أن تشييد المجموعتين الهرميتين لخوفو وخفرع ومقابر موظفيهما كان عبئا كبيرا على كاهل البلاد والخزانة ، زاد من شدته ذلك التناحر بين فرعي البيت المالك الذى لم تستطع الأيام أن تخفف من حدته .

وبالرغم من أن منكاورع حكم أكثر من واحد وعشرين عاما (وربما امتد حكمه إلى ثمانية وعشرين عاما) فإنه لم يستطع أن يتمم تشييد هرمه الصغير أو معبده الجنازى أو معبد الوادى لهذا الهرم مشيد من الطوب اللبن وليس فيه شيء مشيد بالحجر إلا بعض الأرضيات والأعمدة وعتبات الحجرات ، وقد عثر ريزنر فى هذا المعبد عند حفره له على عدد من مجموعات التماثيل المصنوعة من حجر الشست (نوع من الإردواز) يمثل كل منها الملك منكاورع مع رمز لإقليم من الأقاليم وأحد المعبودات المهمة .

وقد نهب هذا الهرم كما نهب غيره فى عصر الفترة الأولى ولكن اللصوص تركوا الكثير مما لم يكونوا فى حاجة إليه ، وقد عثر پرنج (Perring) عندما فتح هذا الهرم عام ١٨٣٩ على بعض أجزاء من مومياء لرجل وعلى تابوت خشبى مكسور ربما كانا باقيين من الأثاث الجنازى للهرم (١) ، كما عثر أيضاً على تابوت للملك من حجر البازلت زخرفت جوانبه بالكوات الداخلية والخارجية التى تمثل واجهة القصر ، ولكن هذا التابوت غرق مع السفينة التى كانت تحمله إلى انجلترا عندما هبت عليها عاصفة شديدة أمام شواطىء أسبانيا .

السنوات الأخيرة من حكم الأسرة الرابعة :

وتولى « شبسسكاف » الحكم بعد أبيه ولكنه لم يعش أكثر من أربع سنوات ، وقد امتازت هذه المدة القصيرة بحادث مهم كان مقدمة لحوادث أخرى ذات أثر كبير .

أخذ نفوذ كهنة الشمس يعظم ويزداد منذ قيام الأسرة الرابعة ، ولكن هذا النفوذ لم يكن ذا خطر فى أيام سنفرو أو حوفو ولكنه أصبح قوياً منذ عهد خفرع ، ولم يصبح إسم الإله رع جزءا من أسماء بعض الملوك وأمراء البيت المالك للتيمن به فحسب ، بل أخذ الاسم الخامس للملوك وهو اسم « ابن رع » ، يظهر أيضا ابتداء من عهد الملك خفرع.

ورأى «شبسسكاف أن يضع حدا لهذا النفوذ والسطوة للكهنة فترك بناء قبره على شكل هرم لصلة ذلك بعبادة الشمس ، وأراد إهماله فنبنى قبره على شكل تابوت كبير (١٠٠ متر × ٧٢ مترا وارتفاع ١٨ مترا) وهو المعروف باسم « مصطبة فرعون » فى سقارة القبلية وبنى فى جهته الشرقية معبده الجنازى كالمعتاد ، وأقام أيضا معبد الوادى والطريق الموصل بينهما ، إلا أن البناء لم يتم وربما لم يقدر لشبسسكاف أن يدفن فيه .

كانت هناك دون شك حركة ضد كهنة رع ، ولكن شبسسكاف لم يعمر طويلا ليحقق ما كان يهدف إليه وسرعان ما عاد التنازع فى البيت المالك إلى الظهور وقام واحد منهم (وربما كان اسمه چاف پتاح) واستوالى على العرش وحكم نحو عامين.

وفى هذه الظروف المضطربة والفترة الدقيقة من تاريخ الأسرة تظهر سيدة من العائلة المالكة اسمها « خنتكاوس » فتكون الحلقة بين الأسرتين الرابعة والخامسة .

خنتكاوس :

فى شتاء عام ١٩٣١ - ١٩٣٢ كشفت حفائر جامعة القاهرة فى منطقة أهرام الجيزة عن حقيقة البناء الذى كان يطلق عليه « لپسيوس ١٠٠ » الذى كان يظن البعض أنه هرم لم يكمل بناؤه ، فاتضح أنه شبيه فى تصميمه بقبر الملك شبسسكاف أى على شكل تابوت كبير مشيد فوق صخرة فى المكان ، وأنه لم يكن لملك من الملوك وإنما كان لإحدى الملكات واسمها « خنتكاوس » . ومنذ هذا الاكتشاف حاول كثير من الأثريين تحديد مركز هذه السيدة من العائلة . وقد اختلفت الآراء فى بعض التفاصيل ولكن المرجح الآن هو أنها ابنة للملك منكاورع وإن كانت لم تذكر ذلك على آثارها ، وأنها تزوجت « شبسسكاف » وإن لم تذكر ذلك أيضاً ، وأنها عاشت خلال السنتين

اللتين حكمهما ، ددف بتاح ، ، ويظن أنها تزوجت من ، وسر كاف ، الذى أسس الأسرة الخامسة وأصبحت أما لابنيه اللذين حكما من بعده واحدا بعد الآخر . وهما ، ساحورع ، و ، نفر إر كارع ، أى أنها أصبحت أما لأسرة الخامسة .

ويلوح أن هذه الملكة كانت أصل الأساطير التى كان يرويها المصريون فى أواخر أيام حضارتهم ، فقد ردد هيرودوت ما سمعه في مصر من أن الذى بنى الهرم الثالث كان امرأة تسمى ، رودوبيس ، ولكنه كان متأكدا من أن بانيه كان منكاورع وأن رودوبيس لم تكن إلا إحدى المحظيات غير المصريات اللاتى اشتهرن بجمالهن فى القرن السادس قبل الميلاد وكانت لها مغامرات غرامية اشتهر أمرها بين اليونانيين . وقد ذكر مانيتون أن الذى بنى الهرم الثالث ملكة تسمى نيتو كريس وأنها كانت أقوى وأجمل امرأة فى زمانها .

ولكن معنى كلمة رودوبيس هو ، وردية الخدين ، ، وربما كانت الأسطورتان تشيران إلى خنتكاوس التى ربما كانت كبعض نساء أسرتها بيضاء البشرة شقراء الشعر فتحدث بجمالها الناس وأعجبوا بدورها الذى قامت به عندما استعرت نار الفتنة فى أواخر أيام الأسرة الرابعة ثم أصبحت أما لملكين جلسا على العرش .

ولكن كل هذه الآراء تفتقر إلى البرهان والدليل . وكل ما نستطيع أن نقوله هو إن خنتكاوس لم تجلس على العرش وأنها لم تدفن فى هرم وإنما دفنت فى قبر على شكل تابوت ، وأن هذا القبر كان يختلف سواء فى تصميمه أن فى عظمته عن قبور الملكات الآخريات اللاتى عشن فى تلك الأيام .

لقد عجلت ثورة شبسسكاف على كهنة رع بنهاية أيام تلك الأسرة التى تطاحن أفرادها منذ وفاة خوفو ، وأخيرا حوالى عام ٢٥٦٠ ق . م. انتهى عهد الأسرة التى أسسها سنفرو وحلت مكانها أسرة أخرى من كهنة الشمس .

الأسرة الخامسة

(٢٥٦٠ – ٢٤٢٠ ق.م.)

نجح كهنة الشمس فى الإستيلاء على الملك وانتهى ذلك الصراع بزوال الأسرة الرابعة وانتقال العرش إلى بيت حاكم آخر .

وفى حقيقة الأمر لا تمدنا الآثار بمعلومات كافية عن هذا التغيير فنرى أن «وسر كاف» أول ملوك هذه الأسرة قد ترك منطقة أبو صير وذهب إلى منطقة سقارة وإختار مكانا قريبا من الهرم المدرج ولكن مجمرعته الهرمية وما عثر عليه من نقوش معبده لا تختلف عن أهرام ونقوش الأسرة الرابعة [1] فى شىء ذى أهمية .

ولسنا نعرف شيئا عن أصل « أوسر كاف » أو صلته بكهنة الشمس وإن كان من المحتمل أنه كان يتولى منصباً كبيراً فى معبد الشمس واستطاع بمعونة الكهنة أن يصل إلى العرش ويتزوج « خنتكاوس » ليصبح جلوسه على العرش شرعيا فى نظر الشعب .

وسواء أكان ذلك صحيحاً أو كان رجما بالغيب فإن الحقيقة التى لا يمكن التشكك فيها هو أن « خنتكاوس » كانت أما لملكين حكم كل منها عرش البلاد واحد بعد الآخر ، وهناك شبه إجماع بين المؤرخين على الرأى القائل بأنهما الملكان اللذان جاءا بعد (أوسر كاف) وهما « ساحورع » و « نفر ار كارع » .

لم يكن انتقال الملك على هذه الصورة أمراً سهلاً لا يترك أثراً بين المصريين ، بل سببت تلك الحوادث هزة كبرى لم يكن لمصر عهد بها من قبل . إذ كانت بداية لزعزعة سلطة الجالس على العرش ومن السهل علينا أن نتصور أن تلك الحوادث جرت انقساما فى الآراء ، وأن كلا من الحزبين المتنازعين أخذ يبذل كل ما فى جهده لتأييد وجهة نظره والتغلب على حجج غيره .

وفى هذه الفترة المضطربة روج كهنة الشمس بين الناس قصة طويلة وصلت إلينا فى أحد قراطيس البردى التى كتبت فى الدولة الوسطى ، ألفوها ونسبوا حوادثها إلى عصر خوفو وجعلوها تتضمن أسماء بعض الملوك السابقين الذين لم يكن لهم

الشعب احتراما وتقديــــرا ، مثـل زوسر وسنفـرو وخـوفو ، ليعطوها أهميـــة خاصـــة .

تتلخص قصة خوفو والسحرة (أو بردية وستكار) فى أن الملك خوفو جمع يوما من الأيام أولاده وطلب من كل منهم أن يقص عليه قصة عما يستطيع السحرة أن يأتوه من معجزات ، وبدأ أولهم بقصة عن زوسر (لم يحفظ منها إلا كلمات من خاتمتها) وتلاه آخر بقصة من عهد الملك نبكا وثالث بقصة عن الملك سنفرو . لم تكن تلك القصص إلا مقدمات أو تمهيدا فقط لما سيأتى بعد ذلك ، إذ يقول أحد أبناء خوفو لأبيه إنه يعيش فى أيامه ساحر عظيم يستطيع أن يأتى بالمعجزات ، فيرسله أبوه ليأتى من بلده ويقوم الساحر ببعض المعجزات أمام الملك ومنها إعادة الحياة لبعض الحيوانات بعد ذبحها وفصل رأسها عن جسدها . ثم يطلب خوفو من ذلك الساحر أمرا فيرد عليه بأنه لا يستطيع ولكن الذى يمكنه القيام بذلك هو أكبر أطفال ثلاثة فى بطن زوجة لكاهن حملت بهن من الإله رع نفس وأن الإله رع أخبرها بأنهم سيتولون عرش البلاد وأن أكبرهم سيكون الكاهن الأعظم فى مدينة « إيون » أى هليوبوليس . ويضطرب خوفو ولكن الساحر يطمئنه بأن ذلك لن يكون قريبا وأنه لن يحدث فى عهده ، وأن إبنه سيحكم من بعده ثم يحكم ابن ابنه ، ثم يأتى بعد ذلك واحد منهم . وتستمر القصة فتذكر حمل زوجة الكاهن وما تلا ذلك من ظهور عجائب ومعجزات وكيف حضرت آلهات الولادة مولدهن إلى آخر القصة .

وليس فى استطاعتنا أن نقول ما إذا كان النص الذى وصل إلينا ، وهو من عهد الدولة الوسطى ، هو صورة منقولة عن النص القديم الذى وضع فى عهد الأسرة الخامسة كدعاية سياسية لتلك الأسرة ، أم دخل عليه شىء من التغيير مع مرور الزمن، إذ أننا لم نعثر حتى الآن على أى أثر من عهد الأسرة الخامسة عليه رسم أو كتابة تشير إليها (١) . أما الهدف الذى كان يرمى إليه واضع القصة فهو إقناع الناس بأن استيلاء كهنة الشمس على عرش البلاد إنما كان شيئا مقدرا منذ عهد بعيد وأن هؤلاء الذين جلسوا على العرش ولم يكن يجرى فيهم الدم الإلهى الملكى ، إنما كانوا خيرا ممن سبقهم من الملوك ؛ لأنهم كانوا أبناء الإله رع من صلبه .

أوسر كاف :

ومما يؤثر عن عهد « أوسر كاف » ما ذكره حجر بالرمو من تشييده المعابد فى مختلف بلاد مصر مثل بوتو فى الدلتا لأجل عبادة الإلهة حاتحور وما أوقفه من أرض على معبد الإله رع .

وفى مقابر طهنا الجبل فى محافظة المنيا نرى اسمه فى مقبرة « نى – كا – عنخ » الذى كان كاهنا للإلهة حاتحور إذ أوكل إليه هذا الملك حق الإشراف علـــى وقف شخص يدعى « خنوكا » مساحة أراضيه ١٢٠ ستاتاً (الستات مساحتــه نحو ٣/٢ أفدنة على وجه التقريب) وقد ترك « مى كاعنخ » وصيته مكتوبة على جدران قبره مقسما هذه المنح الملكية بين أفراد عائلته على أن يقوموا بجميع ما تتطلبه أعمال الإشراف على إدارة الأوقاف والقيام بخدمة معبد حاتحور سيدة مدينة القوصية ، إذ أن عمل « نى كاعنخ » الرئيسى كان فى ذلك البلد الواقع فى محافظة أسيوط ولكنه دفن فى قبره الذى أعده على مقربة من بلدة الأصلى فى طهنا .

أما عن هرم أوسر كاف فهو فى سقارة كما قلنا وقد عثر فى معبده على رأس لتمثال ضخم كبير من الجرانيت لهذا الملك . ونعرف من مصادر كثيرة أنه أول من بنى معبداً للشمس فى أبو صير ، ومن المرجح جداً أن يكون هو المعبد الذى حفرته بعثة المعهد السويسرى لدراسة العمارة المصرية القديمة بالقاهرة فى السنوات الأخيرة ، وعثرت فيه فى آخر مواسم الحفر عام ١٩٥٧ على رأس من حجر الشست كانت لتمثال وهى على درجة كبيرة من الإتقان تمثل ملكا يحمل التاج على رأسه ، ولكن مما يدعو إلى الأسف أن تخريب المعبد كان كاملا ولم يعثر فيه على أى نقوش أو يعثر فيه على اسم صاحبه مكتوبا على أى أثر حتى يمكن نسبة هذا المعبد وهذا الرأس إلى أوسر كاف دون تردد أو شك .

ساحورع : (٢٥٥٣ – ٢٥٣٩ ق.م.)

حكم أوسر كاف سبع سنوات فقط ثم تلاه على العرش ساحورع الذى حكم أربعة عشر عاما ، وكان أول ملوك الأسرة الخامسة الذين اختاروا منطقة أبو صير ليبنوا فيها أهرامهم [١] وعلى مسافة غير كبيرة من معبد أوسر كاف بنى ساحورع

هرمه على هضبة أبو صير بين أهرام الجيزة وسقارة وتبعه أربعة مما جاءوا بعده وهم « نفر إر كارع » و « شپسسكارع » و « نفرف رع » و « نى وسررع » فبنوا أهرامهم أيضا هناك وشيد أثنان منهم على الأقل معابد للشمس على مقربة من أهرامهم .

ولم يعتن ساحورع بتشييد هرمه إذ نراه فقير البناء صغير الحجم إذا قيس بأهرام الأسرة السابقة ، ولكنه استعاض عن ذلك بتشييد معبد فخم استخدم فى بنائه أثمن المواد المعمارية وعنى بتزيين قاعاته وأبهائه المحمولة على أعمدة الجرانيت ذى التيجان النخلية (على هيئة جريد النحل في حزمة مربوطة) . وبلغ من عناية معماريى الأسرة الخامسة بعمارة هذا المعبد وغيره من المعابد حداً كبيراً لم نعرفه من قبل إذا لم يهملوا فى شيء واحتاطوا لدرء كل ما عساه أن يؤثر على سلامة البناء فلم يسقطوا المطر من حسابهم وجعلوه ينساب من مزاريب كل منها على هيئة رأس أسد تسقط المياه من أفواهها إلى قنوات صغيرة عمقوها قليلا فى الأرضية ، ثم تسير المياه منحدرة إلى الخارج . أما المياه التى كانت تستخدم داخل حجرات المعبد فى أجزائه المختلفة فكانت تسير من مواسير تحت أرضية المعبد ، وكانت هذه المواسير مصنوعة من النحاس وملحومة إلى بعضها بالرصاص ، وتسير إلى خارج المعبد حيث تصب فى أحد الأماكن المنخفضة فى مكان بعيد عن الأنظار .

ولا جدال فى أن فن عمارة المعابد وتشييدها قد تقدم كثيراً فى عهد الأسرة الخامسة كما زادت النقوش التى على جدران تلك المعابد وتنوعت ، و هذا يعوضنا دون شك على انصرافهم عن الاهتمام بالأهرام .

ونعرف من بقايا النقوش التى كانت تغطى جدران معبدى ساحورع والطريق الموصل بينهما كثيراً من نشاط هذا الملك وبخاصة فى ميدان الحرب إذ تعرضت مصر فى أيامه إلى غزو من ناحية الغرب عندما جاءت بعض القبائل الليبية ومعها زعماؤها ونساؤهم وحيواناتهم ليهاجموا الدلتا ويستقروا فى وادى النيل فهزمهم ساحورع .

ونعرف أيضاً من نقوش معبده فى أبو صير أنه أرسل أسطولاً إلى شواطيء فينيقيا ، ولكنا نرى أكثر من إقلاع ذلك الأسطول ثم عوته واستقبال الملك له يحف به كبار موظفيه مما حدا ببعض الباحثين فى التاريخ المصرى إلى الاعتقاد بأن ذلك الأسطول لم يرسل للحرب أو للتجارة وإنما كان فى رحلة ودية وربما عاد بأميرة من أميرات تلك البلاد لتصبح زوجة من زوجات ساحورع .

ولم يقتصر نشاطه على غربى مصر وعلى الساحل الفينيقى بل أرسل أيضاً حملة أخرى نحو الجنوب إذ ترك رئيسها اسم ملكة منقوشاً على أحد الصخور التى

على مقربة من شاطيء النيل عند توماس فى بلاد النوبة ، كما نعرف من حجر بالرمو أنه أرسل حملة إلى بلاد پونت ، وهى المنطقة التى حول بوغاز باب المندب وتشمل الشاطئين الإفريقى والأسيوى أى الصومال واريتريا فى ناحية وجنوبى بلاد الغرب فى الناحية الأخرى . وأن تلك البعثة عادت ومعها مقابر كثيرة من البخور والذهب وعدداً غير قليل من أعواد من الأخشاب التى كان المصريون يهتمون بالحصول عليها ، وربما كان بعضها أو أكثرها من الأبنوس .

وهكذا نرى مصر وقد بدأت صفحة جديدة فى حياتها وأخذت تخرج من عزلتها فتتطلع بعينها نحو الجنوب ونحو الشرق وتعيد إرسال أسطولها التجارى إلى البحر الأبيض المتوسط ، وتفتح عينيها فلا تسمح لبدو الصحراء الغربية بغزو الدلتا ، بل ربما كانت مناظر مهاجمة أحد حصون جنوبى فلسطين الذى نراه مرسوماً فى أحد مقابر دشاشة فى محافظة بنى سويف ترجع أيضاً إلى ذلك العهد الذى أرادت فيه مصر أن تمهد الطريق لإنشاء صلات تجارية مع جيرانها فى الجنوب وفى الشرق براً وبحراً (١) .

نفر إر كارع : (٢٥٢٩ - ٢٥٢٧ ق.م.)

ولم يكن الملك ، نفر إر كارع ، أقل طموحا من أخيه ، وقد فكر فى تشييد هرم أكبر من هرم ساحورع ، ولكنه مات قبل أن يتم جميع أجزاء مجموعته الهرمية . ولم يكن هذا الملك يشبه من سبقه على العرش فى نشاطه الحربى بل كان شخصاً طيب القلب محباً لتقديم الهبات للمعابد ، وفى نفسه شعور أصيل بحب من حوله والاعتراف بخطئه إذا أخطأ .

فأما عن حبه للكهنة والمعابد فيكفى أن نلقى نظرة على أعماله المسجلة فى حجر پالرمو فنرى أكثرها فى السنة الأولى من حكمه لا يعدو منح الأوقاف للآلهة يمنحها مرة للناس ومرة أخرى لأرواح هليوبوليس . أو نراه يقدم مذبحاً للإله رع ومذبحاً آخر للإلهة حتحور ، كما نراه أيضاً يقدم للفلاحين الذين يعملون فى الأراضى التى تملكها المعابد ، بل ويقدم تمثالا من خليط من معدنى الذهب والفضة .

ومن سوء الحظ أن الجزء المحفوظ من حجر پالرمو ينتهى عند ذلك فلا نعرف ماذا قدمه للكهنة والآلهة فى السنوات التالية ، ولكن هذه البداية كافية لتجعلنا ندرك أن عصر هذا الملك كان بدء ظهور سلطة الكهنة ظهوراً تاما واستغلالهم لطيبة نفسه للحصول على كل ما يريدون ، ولا نعجب بعد ذلك إذا رأيناه يصدر فى عهده مرسوماً

ملكياً (١) يسجل معافاة رجال الدين وفلاحي المعابد من القيام بأى عمل آخر تتطلبه مشاريع الإصلاح فى أى إقليم من الأقاليم ، ويهدد كل من يخالف ذلك من موظفى الحكومة فساعد ، نفر إر كارع ، بهذا العمل على تقوية الكهنة وإثرائهم . فإذا وضعنا فى أذهاننا أن المتربعين فى زعامة مراتب الكهنوت كانوا هم فى الوقت ذاته كبار الموظفين فى البلاد فإنا ندرك بسهولة لماذا أخذت سلطة الملك تضعف مع مرور الزمن ولماذا بدأت السلطة المركزية للحكومة فى التفكك ، ولماذا أخذ شأن كبار الموظفين وحكام الأقاليم يعلو ويزداد . ولنترك الآن هذه النقطة المهمة لنعود إليها مرة أخرى ونذكر بعض ما حفظه لنا تاريخ ذلك العصر عن طيبة قلب ذلك الملك .

كان لهذا الملك وزير يسمى ، واش بتاح ، كان يشغل فى الوقت ذاته وظيفة كبيرة القضاء ، والمشرف على جميع الأعمال الإنشائية للملك . وذهب الملك مع أبنائه ليشاهد العمل فى إحدى المنشآت الملكية فى يوم من الأيام وكان وزيره يسير إلى جواره ويشرح له ما تقع عليه عيناه . وسر الملك ومن معه مما رأوا وأثنى عليه كثيرا ، وبينما كان الملك يتحدث إليه سقط ، واش بتاح ، مغميا عليه . وعندما رأى أولاد الملك وأفراد عائلته ما حدث أصابهم الهلع وأمر ، نفر إر كارع ، أن ينقلوه فى الحال إلى القصر وأخرج جلالته صندوقاً مملوءاً بالقراطيس الطبية لعله يجد فيها علاجا له ، ولكنه لم يستطع مساعدته واعتكف فى مقصورته ليصلى لأجله ، وعندما أعلنوا للملك وفاته حزن وعاد إلى حجرته ليرفع صلواته إلى الإله رع ثم أمر بأن يصنع له تابوتاً من خشب الأبنوس المطعم كما أمر أن يكون تحنيطه أمامه وقد ذكر ابنه الأكبر ، الذى غمره الملك بإحسانه وأسند إليه بعض الوظائف الكبرى ، تفاصيل هذه القصة على لوحة أقامها فى القبر الذى شيده له فى سقارة .

وهناك قصة أخرى عرفت وقائعها فى عام ١٩٢٩ عندما كانت حفائر جامعة القاهرة تكشف عن آثار المنطقة الواقعة إلى الجنوب من الطريق الموصل بين معبدى خفرع فى منطقة أهرام الجيزة .

لقد كشفت تلك الحفائر عن مقبرة أحد كبار موظفى ذلك الملك ويسمى ، رع ور ، وكان يحمل بين ألقابه الكثيرة لقب مدير القصر الملكى ، وكاتم أسرار الملك. وكان فى الوقت ذاته كاهن آلهة الوجه القبلى وكاهن آلهة الوجه البحرى . وحدث لهذا الموظف حادث بسيط مع الملك . كان ، رع ورسير ، إلى جوار سيده فى يوم احتفال رسمى بافتتاح عيد خاص وحدث أن الملك كان يحرك عصاه فضربت

دون قصد منه ساق « رع ور » فلما أدرك ما فعله استاء استياء شديداً وقال بأنه أحب شخص لديه واعتذر عما بدر منه ، ولم يكتف الملك بذلك بل أراد أن يجعل هذه الحقيقة معروفة للناس جميعاً وأن تنقش على لوحة حجرية ، وقد عثر على هذه اللوحة فى قبر ذلك الموظف .

وعلى ذكر قبر « رع ور » يكفينا أن نذكر أن عدد حجراته وأبهائه وممراته لا يقل عن خمسين ، ولو عددنا ما بقى من أجزاء تماثيله لتأكدنا أنه كان منها أكثر من مائة فى هذه المقبرة ، ولو ألقينا نظرة على الأحجار التى شيدت بها جدرانها ، وعلى الأخص أحجار الواجهة لأدركنا ثراء الكهنة الذى لم يكن يضارعهم فيه إلا الملوك ولو قارنا قبر « رع ور » بقبور أبناء سنفرو أو خوفو لرأيناه يفوقها فى عدد الحجرات أو الردهات وفخامة المبانى .

وليس قبر « رع ور » هو القبر الوحيد الذى نلمح فيه ثراء كبار الكهنة والموظفين بل تجد أمثلة كثيرة بين مقابر أبو صير والجيزة وسقارة . ولقد أصبح كبار الكهنة والموظفين على شيء كبير من الثراء والنفوذ ، وأصبحوا يبنون لأنفسهم مقابر تزيدفى حجمها وفخامتها أضعاف ما كانت عليه مقابر أبناء الملوك فى الأسرة الرابعة .

نى وسر رع (٢٥١٦ – ٢٤٨٤ ق . م .)

وهناك ملكان آخران حكما بعد « نفر إر كارع » وهما « شبسس كارع » و «نفرف رع» ولكنهما لم يتركا آثاراً مهمة ، وإن كان قد بدأ ثانيهما على الأقل فى تشييد هرم له فى منطقة أبو صير . ولم يظل حكمهما طويلا إذ حكم أولهما سبع سنوات والثانى أربع سنوات ، ثم جاء إلى العرش ملك آخر وهو « نى وسر رع » الذى طالت أيام جلوسه على العرش فزادت عن اثنين وثلاثين عاما وبنى له هرما فى أبو صير ، كما بنى معبدا للشمس فى المنطقة نفسها وحلى جدرانه بمناظر كثيرة ربما كان أهمها تلك المناظر التى تعطينا أهم ما وصل إلى أيدينا من تفاصيل مراسيم العيد الثلاثينى ، ونرى أيضاً بين المناظر التى كانت فى معبده ما يدل على حروب قام بها فى سوريا وحروب أخرى ضد الليبيين ، ولو أن هناك بعض الشك فى أنه لم يقم بمثل تلك الحروب وإنما كان الفنانون يقلدون مناظر معبد ساحورع الذى كان على مقربة منه . وقد عثر على مقابر مهمة كثيرة من عهد هذا الملك ، ربما كانت أهمها جميعا مقبرة «تى » فى سقارة التى قلما لا يذهب لزيارتها شخص يزور تلك المنطقة وهى تعطى بحق فكرة صادقة عن الحياة الاجتماعية فى ذلك العهد .

جد كارع – إسيسى : (٢٤٧٦ – ٢٤٤٨ ق . م .)

وجاء بعد ، نى وسررع ، ملك يسمى ، منكاوو حور ، حكم نحو ثمانية أعوام ولا نعرف عنه إلا القليل [١] . ثم حكم بعد ذلك ملك قوى وهو ، جد كارع – إسيسى ، الذى حكم عهداً طويلا لم يقل عن ثمانية وعشرين عاما .

اهتم هذا الملك بتأمين حدوده واستغلال المناجم والمحاجر فأرسل حملة إلى بلاد النوبة وأخرى إلى وادى الحمامات وحملة أو أكثر إلى جبل المغارة فى سيناء حيث تركت أربعة نقوش باسمه .

وقد عرفنا من تاريخ حياة الرحالة ، حر خوف ، الذى قام برحلات عدة إلى جنوبى مصر فى الأسرة السادسة أنه عاش فى عهد الملك إسيسى أحد قادة السفن ويسمى ، باوردد ، استطاع أن يحصل على قزم حى فكافأه الملك وأغدق عليه من الهدايا الشيء الكثير ، ومعنى ذلك أن السياسة التى بدأها ساحورع فى أوائل أيام الأسرة الخامسة وهى الاتصال بالجنوب وفتح الطرق التجارية إليه والحصول على خيرات السودان وبلاد بونت ، لم يهمل أمرها من جاءوا بعده ، بل استمر عليها باقى الملوك وسنرى أنها ستزداد فى الأسرة السادسة .

كان اسم ، إسيسى ، دائما من الأسماء الشهيرة فى تاريخ الأسرة الخامسة واقترن اسمه بأسماء الكثيرين من كبار الموظفين الذين عثر على مقابرهم ، ومن بينهم الحكيم الشهير ، بتاح حتب ، الذى كان مشرفا على تربيته . والذى ترك مجموعة نصائحه وإرشاداته ، وهى ذخيرة من الحكمة والإرشاد إلى حسن السلوك اعتز بها المصريون فى جميع عصورهم .

وفى عام ١٩٤٨ كشفت مصلحة الآثار عن المنطقة الواقعة حول هرم يسمى الهرم الشواف فى منطقة سقارة فوق الهضبة التى بنيت أمامها فى الوادى منازل بلدة سقارة ، وظهر فى ذلك المعبد كثير من النقوش الهامة فأصبحنا نعرف الآن أين هرمه وأين معبده ، كما كشفت مصلحة الآثار أيضا فى عام ١٩٥٢ – ١٩٥٣ عن هرم ومعبد آخرين لزوجته فى المنطقة نفسها .

ولم يعثر داخل هرم إسيسى على أى نقوش، أما المعبد فلم يكن يقل عن أى معبد آخر من معابد الأسرة الخامسة فى فخامته وجمال نقوشه ، وظهرت فيه بعض عناصر معمارية لم يكن لنا بها عهد من قبل مثل تزيين بعض المداخل بأعمدة فى شكل علامة « چد » وهى شديدة الصلة بعبادة الإله أوزيريس ، كما ظهر أيضا فى حفائر المعبد تماثيل لأسود وثيران وتماثيل لبعض الأسرى من الأجانب [١] .

أونــاس :

وآخـر ملك فى الأسـرة الخـامسـة هو الملك أونـاس (أو « ونيس ») الذى يميل بعض المؤرخين الآن إلى اعتباره أول ملوك الأسـرة السادسة ؛ لأن حكمه قد ارتبط ببعض التغييرات الجوهرية ، يضاف إلى ذلك ما نعرفه عن وفاء الملك تتى أول ملوك الأسرة السادسة له وإتمام ما لم يتمه من آثاره . ولكن ذلك لا يكفى لتغيير التقسيم القديم الذى أورده مانيتون ، وإذا كان « تتى الأول » قد أتم معبد أوناس فإن اسم أوناس نفسه قد عثر عليه فى معبد زوجة إسيسى ، كما نعرف أيضا أن سنفرو وهو مؤسس الأسرة الرابعة قد أتم تشييد هرم آخر ملوك الأسرة الثالثة . وترجع شهرة أوناس إلى ذلك التجديد الذى أحدثه إذ أن مجموعة النصوص الدينية الشهيرة باسم « نصوص الأهرام » لم تكتب على جدران الحـجـرات الداخليـة للأهرام قـبل عـصـر أوناس وأصبحت منذ عهده تكتب داخل أهرام الملوك بل وبعض الملكات ، وقد أمدتنا بالكثير من المعلومات الهامة عن عقائد المصريين القدماء [٢] .

ويرتبط اسم أوناس وهرمه بشيء آخر . فقد أشرنا أكثر من مرة إلى تلك الطرق أو الممرات التى كانت توصل بين معبدى الهرم أو بين الوادى والمعبد الجنازى المشيد فى الناحية الشرقية من الهرم وقلنا إن تلك الطرق كانت مفتوحة للسماء فى أول عهدها وربما أصبحت مسقوفة منذ عهد خوفو ونقشوا جدرانها الداخلية . وقد عثر على بعض المناظر التى كانت فى يوم من الأيام على جدران طرق خوفو وغيره من الملوك مستخدمة فى تشييد هرم أمنمحات الأول فى اللشت كما عثر أيضا على بعض مناظر تلك الطرق فى منطقة أبو صير ، ولكن لم يحدث من قبل أن وجد جزء كبير من ذلك الطريق محفوظا ومرسوما كما ظهر فى طريق أوناس عام ١٩٣٨ . كان هذا الطريق مسقوفا بالأحجار وسقفه ملون كأنه سماء زرقاء زينتها النجوم ، ويدخل إليه الضوء من كوات فى السقف .

وتجمع نقوش جدرانه بين موضوعات مختلفة . فنرى بينها مناظر تمثل أوناس يؤدى بعض الطقوس الدينية ، بينما نرى مناظر أخرى تمثله وهو يقضى على أعدائه. ومن بين تلك المناظر ما يمثل الزراعة والحصاد فى الفصول المختلفة ، ومن بينهما مناظر الصيد فى الصحراء أو فى الماء أو فى الحقول ، كما نرى فيها أيضاً مناظر تمثل بعض أعمدة المعبد وأعتابه المصنوعة من الجرانيت ، وهى تنقل فوق سفن على صفحة النيل .

ولم تقتصر تلك المناظر على ذلك بل أن من بينها ما يمثل بعض الأجانب الذين جاءوا إلى مصر ، وبعض الذين أضرت بهم المجاعة وكادوا يهلكون جوعا ، وفى تفاصيل المناظر كثير من المعلومات التى أضافت الكثير على ما نعرفه عن مصر فى ذلك العهد ، ونرجو أن يتم حفره وأن ينشر نشراً علمياً كاملاً فى وقت قريب (١).

وبالرغم من أننا نعرف الشيء الكثير عن أيام حكم « إسيسى » وعن حكم « أوناس » الذى بلغ ثلاثين عاما ونعرف أيضا الكثير عن حكم الملك « تتى الأول » فإنا لا نجد فى تاريخ تلك الحقبة ما يمكن أن نقول عنه إنه كان سببا لتغيير الأسرة ، وربما كان المستقبل كفيلا بإظهار ذلك .

وهناك رأى نادى به بعض المشتغلين بالآثار وهو أن « أوناس » لم يكن آخر ملوك الأسرة الخامسة ولكنه مؤسس الأسرة السادسة وأول ملوكها .

وما من شك فى أن مدة حكم أوناس امتازت بكثير من التغييرات فى أكثر من ناحية ولكن ذلك كله لا يكفى لإثبات أنه كان مؤسس الأسرة السادسة ، بل من الأفضل اعتباره من الأسرة الخامسة .

تولت الأسرة الخامسة عرش البلاد بعد فترة اضطراب وصراع بين أفراد البيت المالك فى الأسرة الرابعة من ناحية ، وبين ملوك هذه الأسرة فى النصف الثانى من حكمها وبين كهنة رع من ناحية أخرى ، أولئك الكهنة الذين أخذ نفوذهم يزداد وأصبحوا خطر على سلطة الملك .

وانتهى ذلك الصراع بتأسيس أسرة مالكة جديدة وثيقة الصلة بكهنة الشمس فشيدت المعابد المختلفة لرع والآلهة المتصلين به ، وأغدقوا العطايا والهبات والأوقاف والامتيازات على المعابد وكهنتها فماذا كانت النتيجة ؟ لقد ازداد الكهنة نفوذا وقوة ولم يعد للملك ما كان له من سلطان ونفوذ وأخذ كبار الموظفين يزدادون ثراء فهل تأصلت عبادة الشمس فى نفوس الناس وأصبحت وحدها فى البلاد ؟ والجواب على ذلك واضح صريح فقد ضعف نفوذ الملك ، وإن ظلت عبادة الشمس كما هى أى الديانة الرسمية للبيت المالك ، إلا أننا نلاحظ أنه أخذت تظهر عليها عقيدة أخرى ، وهى عقيدة أوزيريس التى كانت قريبة من مدارك الناس .

كان المستقبل السعيد فى الحياة الأخرى ، حسب عقيدة الشمس ، يتوقف على الثراء والنفوذ . فكان الملك المتوفى يدفن فى قبر فخم ويبنى المعابد ، وكان يركب سفينته ليسير وراء سفينة الشمس فى الليل والنهار وينعم بالنور والضياء . وكان عليه أن يحفظ الكثير من التعاويذ التى كان فى حاجة إليها إذا أراد السلامة والاهتداء فى العالم الآخر . وكان المحيطون بالملك يرجون أن يكونوا معه يخدمونه فى الآخرة كما خدموه فى الدنيا وكانوا يبنون المقابر الفخمة ويحبسون عليها الأرض للإنفاق عليه وتقديم القرابين ، ولكن ما هو مصير العامة والفقراء من الناس – وهم الغالبية العظمى للشعب – الذين لم تكن تربطهم بالملك ورجال بلاطه والأثرياء من الحكام رابطة مباشرة ؟ . كان الأغنياء واثقين من نهايتهم السعيدة ؛ لأنهم كانوا أثرياء وفى صحبة الملك ويستطيعون أيضاً الاتفاق مع الكهنة للصلاة على أرواحهم وتقديم القرابين لهم فى أوقات معينة ، ولكن ماذا يفعل الفقراء ؟ كان الناس فى حاجة إلى دين يقول بمكافأة المحسن الطيب القلب الذى لا يفعل السوء دون نظر إلى فقره أو غناه ، وقد وجدوا ذلك فى تلك العقيدة القديمة التى عرفها المصريون منذ أيام الأسرة الأولى بل وقبل ذلك ولكن لم يكن لها النصر والانتشار إلا فى أيام الأسرة الخامسة .

كان أوزير (أو أوزيريس) يمثل الحاكم العادل الذى صرعته عوامل الشر والحسد ممثلة فى أخيه « ست » ولكن وفاء زوجته إيزيس التى خرجت تبحث عن جثته تارة وتجمع أشلاءه تارة أخرى ، وبكاءها عليه واستدرار عطف الآلهة جعل منه ملكا للأموات . وقامت إيزيس مرة أخرى تطالب بحق ابنها « حورس » الذى حملت به من روح أوزيريس بعد موته ، فلقيت ما لقيت من « ست » واتهامه لها ، ثم برأتها الآلهة التى كانت تعرف الحقيقة ، ومع ذلك فقد قامت الحرب بين ست وحورس حتى انتصر ابن أوزيريس وجلس على عرش أبيه وبذلك انتصر الحق على الباطل .

ولم يكن أوزيريس العادل الرحيم وهو ملك فى دنيا الأموات يأبه إلا بالحق والعدل ولا ينعم بجنته إلا من تطهر قلبه وحسنت سريرته ونواياه وابتعد عن أذى الناس ، لا يفرق بين غنى وفقير . كان كل إنسان يلاقى ما فعله حاضراً ، وكانت الجنة لمن أحسن واتقى ولم يظلم الناس أو يأتى بخائنة ، والعذاب والجحيم لمن سولت له نفسه عمل السوء لا تشفع له أمواله أو صلوات كاهن ، أو قرابين يقدمها أهله وذووه .

لقد وجد الناس فى تلك العقيدة صدى لما فى النفس البشرية فأقبلوا عليها ، بل أن الملوك أنفسهم منذ أيام الأسرة الخامسة كانوا يلقبون أنفسهم باسم أوزيريس ثم أصبح استخدام إسم أوزيريس عاما لكل فرد قبل أن يمضى وقت طويل ، ولكن هذا النصر لأوزيريس لم ينل كثيراً من عقيدة الشمس فى مظهر الدولة إذ ظل لقب « ابن الشمس » الذى استخدمه بعض ملوك الأسرة الرابعة وأصبح عاما منذ الأسرة الخامسة لقباً أساسياً حتى آخر أيام التاريخ المصرى ، كما ظلوا ينظرون إلى الجالس على عرش مصر إلها تجسد فيه حورس . وكان الكهنة المصريون كعادتهم حصيفين ، فإذا رأوه إلها من الآلهة يعلو نجمه لسبب من الأسباب ، أسرعوا فى وضع القصص والأساطير التى يربطون فيها بين ذلك الإله وبين الآلهة المختلفة ، وبخاصة الآلهة الرئيسية ، ولهذا لا يدهشنا إذا رأيناهم يضعون قصصاً يربطون فيها بين رع وبين حورس وبين أوزيريس وغيرهم من الآلهة ، ولم تجد طبيعة التسامح المتأصلة فى طبيعة النفس المصرية ما ينفر المصريين من قبول ذلك .

كانت أيام الأسرة الخامسة من الأيام الحاسمة فى التاريخ المصرى ، شهدت ، تطوراً كبيراً فى العقيدة كما شهدت تطوراً فى مركز الملكية وبدأ يعظم فيها نفوذ أعيان البلاد ويزداد ، حتى أصبحوا لا يخشون الجالس على العرش . ورأينا فيها ازدياد شأن عقيدة أوزيريس التى كان يتساوى فيها الناس ولا تفرق بينهم ثروة أو فوارق اجتماعية .

وعلى جدران مقابر تلك الأسرة وأوائل الأسرة السادسة نستطيع أن نرى الكثير من المناظر التى تمثل حياة الشعب ، نرى فيها صاحب القبر يشرف أحيانا على حقوله التى يعمل فيها رجاله ومرة نراه يجلس بين أسرته وأصدقائه يستمع إلى عزف الموسيقى وغناء المغنين ويمتع طرفه برقص الراقصات ، ونرى الصناع وهم يعملون فى الحرف المختلفة فهنا النجارون وهناك الصياغ وعلى مقربة منهم صانعو الأوانى ، وعلى مسافة قريبة نرى بنائى السفن ، وغيرهم .

ونرى الأتباع وهم يحضرون الأزهار والهدايا المختلفة ، ونرى الكهنة وهم يقومون ببعض الطقوس الدينية ، ننظر إليها كلها فنحس كأننا نعيش بين القدماء ننظر إلى ملابسهم وحليهم ونتأمل فى محصولات حقولهم وحدائقهم ، ننظر إلى الطيور والحيوانات التى كانوا يربونها ، ونقف طويلا أمام الأسماك السابحة فى المياه وإلى حيوانات الصحراء التى خرجوا لصيدها ، نراها كلها وقد أبدع الفنان المصرى فى رسمها فإن أصحابها أرادوا تصويرها على مقابرهم لتأنس أرواحهم بما كانوا يرونه فى دنياهم وما أرادوا أيضا أن يكون لهم فى آخرتهم. وقد أحسنوا صنعا ، فلولاها لما عرفنا الحياة فى مصر القديمة كما نعرفها الآن . ولم يترك المصريون تلك المناظر دون شرح قليل فنراهم قد كتبوا إلى جانبها ما يفسرها لنا ، وكثيرا ما نقرأ النكات التى كان يتبادلها الصناع أو العاملون فى الحقل وكلها تنبىء عن ميل أصيل للمرح ، وحب الفكاهة .

الأسرة السادسة

(٢٤٢٠ - ٢٢٨٠ ق.م.)

ذكر مانيتون عن هذه الأسرة أن أصلها من منف ، وهذا محتمل جدا إذ كلما تقدمت الأبحاث الأثرية كلما ازددنا اقتناعا به ؛ لأننا نلاحظ فى أعمال مؤسسها اتجاها صريحا نحو الإعلاء من شأن بتاح إله مدينة منف وتقريب كهنته والانصراف عن كهنة الشمس ، فهل قامت فى مصر فى عهد آخر ملوك الأسرة الخامسة حركة ضد نفوذ كهنة الشمس ، وكان القائمون بها من أهل منف الذين أخذ نجم إلههم يعلو مع ازدياد قوتهم السياسية ووصولهم إلى العرش ؟

ولن نستطيع الإجابة برأى قاطع على هذا التساؤل طالما لا تظهر فى الاكتشافات الأثرية وثائق جديدة تنير أمامنا الطريق أكثر مما لدينا الآن .

كان مقر حكم هذه الأسرة كمن سبقها من الأسرات منذ الأسرة الثالثة على الأقل فى العاصمة أى فى منف ، وكان أول ملوكها « تتى » ، وقد دفن فى هرمه الذى شيده فى سقارة . ويذكر لنا مانيتون أنه لم يمت ميتة طبيعية بل قتله حراسه ، وربما كان ذلك صحيحاً ؛ لأن مؤسسى الحكم الجديد يكونون معرضين دائما لإنتقام من نحوهم عن السلطان وأبعدوهم عن مكان الصدارة ، ويعززه أن من جاء بعده على العرش وهو الملك « أوسر كارع » [١] لم يبق فى الحكم إلا سنوات قليلة ولم يكد يخلف وراءه آثاراً فى البلاد . ولأمر ما أسقطته النقوش القديمة التى تلت هذه الفترة ، إذ ربما كان من البيت المالك القديم ، استعاد عرش أسرته ولكنه غلب بعد ذلك على أمره فلما استتب الأمر للملك « ببى الأول » لم يجرؤ الموظفون على ذكره إذ اعتبروه مغتصبا خارجا على السلطة الشرعية ، ففى تاريخ حياة « ونى » أعظم شخصيات ذلك العهد نراه يذكره كيف بدأ حياته فى عهد « تتى » عندما كان طفلاً صغيراً يتمنطق بحزامه ويذكر الوظائف التى تولاها فى شبابه ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى عهد « ببى الأول » الذى عاصر كل سنى حكمه ثم امتد به العمر بعد ذلك . نرى « ونى » ينتقل مباشرة

إلى عهد ببى دون إشارة إلى حكم من جلس قبله على العرش ، ولم يكن يجرؤ على إسقاط ذلك الملك لو لم يكن متأكداً أن فى ذلك إرضاء للعائلة الذى حاز على ثقة ملوكها وربى فى نعمائهم .

ببى الأول : (٢٤٠٢ - ٢٣٧٧ ق.م.)

انتشل ببى الأول بلاده مما كانت فيه وتمتعت مصر خلال الخمسة وعشرين عاما التى حكمها بعصر زاهر ، ارتقت فيه الفنون وعادت مصر مرة ثانية إلى صلتها بمن جاورها من الأمم ، ويكفى الإنسان أن يرى تمثاله الكبير المصنوع من النحاس فى متحف القاهرة أو تماثيله الأخرى فى غيره من المتاحف وبخاصة تلك التماثيل المصنوعة من المرمر فى متحف بروكلين فى نيويورك أو يزور معبده فى سقارة القبلية على مقربة من مصطبة فرعون ، ويمتع طرفه بجمال نقوشه ليدرك أن المستوى العظيم الذى وصلت إليه النقوش بين أيام إسيسى فى الأسرة الخامسة والملك تتى فى الأسرة السادسة ظل عالياً .

ولسنا نعرف حتى الآن الصلة الحقة التى تربط بين هذا الملك وبين ، تتى ، مؤسس الأسرة ، ولكنا نعرف أن حياته العائلية لم تكن فى مستهل حياته خالية من المؤامرات إذ يذكر لنا ، ونى ، الذى أشرنا إليه أن هذا الملك عينه ليكون بين المحققين مع زوجته لثقته فيه ، ولكنا لا نعرف على وجه التحديد ما هى المؤامرة التى حوكمت هذه الملكة من أجلها .

على أى حال فبعد محاكمة الملكة ، إمتس ، أراد أن يوطد مركزه فى البلاد فالتجأ إلى سياسة جديدة وهى مصاهرته لإحدى العائلات القوية فى الصعيد فاتخذ ابنة أمير منطقة أبيدوس ونجع حمادى زوجة له وأصبحت أما لابنه ، مرى إن رع ، الذى تولى الحكم من بعده ، ثم تزوج أيضاً من أخت لها ورزق منها بابن آخر تولى الملك وهو طفل بعد موت أخيه .

وكان من بين الأعمال التى سجلها ، ونى ، فى تاريخ حياته فى عهد ببى الأول تلك الحملات التى جمع ، ونى ، رجالها من جميع أنحاء الصعيد ، وقبائل النوبة وفى إحداها تعاون الأسطول مع الجيش على قهر أولئك الذين هددوا مصالح مصر فى فلسطين فى ذلك العهد .

خلفاء ببى الأول :

كان ، مرنرع ، (مرى إن رع) طفلا صغيرا عندما مات أبوه ، إذ أنه بالرغم

من جلوسه على العرش نحو عشر سنوات فقد كان عند وفاته شابا يافعا لم يبلغ الحلم إذ كانت تتدلى خصلة من الشعر على جانب رأس مومياته التى عثر عليها فى هرمه . وتكاد معلوماتنا عن عصر هذا الملك تنحصر فيما أمدتنا به لوحة « ونى » التى ذكرت الأعمال التي كلفه بها وكان آخر عمل قام به هو حفر لخمس قنوات فى صخور الشلال عند أسوان لتسهيل الاتصال بين مصر والبلاد الواقعة إلى الجنوب منها ، إذ أصبحت سياسة الأسرة السادسة هى الاتصال بالجنوب وإرسال قواد الحملات لاستكشاف تلك البلاد وإحضار خيراتها وسنتكلم عن ذلك بشيء من التفصيل فيما بعد .

وبعد وفاة « مرنرع » الأول تولى الملك أخوه الطفل « ببى الثانى » وقد ذكر مانيتون أنه حكم أربعة وتسعين عاما وأنه جلس على العرش وعمره ٦ سنوات (١) . وكانت أمه منذ بداية حكمه وصية عليه ، وكان خاله الأمير « زاو » الذى أصبح وزيراً له ، صاحب النفوذ الأول فى البلاد . وقد أقامت هذه العائلة مقابرها منحوتة فى الصخر فى المنطقة المعروفة باسم القصر والصياد على مقربة من نجع حمادى فى محافظة قنا .

وربما كان أشهر ما تم من أعمال فى السنوات الأولى من حكم هذا الملك تلك الحملات التى كان يرسلها إلى الجنوب تحت إمرة حكام الفنتين.

لقد ضعفت سلطة الملوك بازدياد نفوذ حكام الأقاليم الذين أصبح كل منهم أميراً حاكما فى مقاطعته لا يكاد يربطه بالعرش إلا خيط واهن ضعيف من الولاء . وفى مثل تلك الظروف وعندما تتفكك عرى السلطة المركزية تزداد الأعباء على كاهل الحكومة فتتعطل المشروعات العامة ويحاول كل موظف من الموظفين أن يثرى ويجمع ما يستطيع جمعه من الثروة ، فتتكدس الأعباء والمظالم على كاهل الفلاح المسكين الذين يصبح فريسة لكل من هب ودب من الأغنياء أو من موظفى الحكومة.

ومن سوء الطالع أن العمر امتد بذلك الملك الضعيف فازداد انهيار البلاد واشتدت المظالم وعندما فاض الكيل شبت ثورة عاتية فى البلاد ، ثورة على العرش وعلى الحكام وعلى الآلهة . وتولى الحكم فى آخر أيام هذه الأسرة اثنان وكان أولهما يسمى « مرى إن رع الثانى » وقد حكم سنة واحدة ثم جلست على العرش امـــرأة

وهى « نيت إقرت » التى ذكرها مانيتون باسم « نيتوكريس » فلم تبق إلا عامين ثم عمت الفوضى وانتهت أيام الأسرة السادسة وأيام الدولة القديمة .

ذلك هو مختصر التاريخ السياسى لهذه الأسرة ، ولن يكون عرضنا لتاريخ هذه الأسرة صحيحا إلا إذا تحدثنا بشيء من التفصيل عن ثلاثة مواضيع أولها تاريخ حياة القائد « ونى » ، وكثيرا ما يذكر فى بعض كتب التاريخ والآثار تحت اسم « أونى » وهو الأقدم والأكثر شهرة لهذا الاسم ، الذى لعب الدور الأكبر فى تاريخ البلاد فى أيامه وثانيها موضوع الرحالة الذين ذهبوا إلى السودان ، ثم الحديث عن تلك الثورة الاجتماعية التى هب فيها الشعب لينتقم لنفسه ممن ساموه الظلم والاضطهاد .

القائد « ونى » :

كان ضعف سلطة الملوك فى الأسرة الخامسة مشجعاً لبعض كبار الموظفين على أن يتباهوا فى مقابرهم بما فعلوه وبما رفع من قدرهم فى خدمة الملوك . وكلما مر الزمن كلما ازداد هذا التقليد فأكثروا منه ، وربما كان أهم نقش بل وأهم وثيقة تاريخية خلفتها لنا الأسرة السادسة ، وهى لوحة « ونى » الذى كان فى يوم من الأيام قائما فى قبره فى أبيدوس وهو الآن فى المتحف المصرى ، ويقص فيها علينا تاريخ حياته وأعماله المختلفة فى خدمة ملوك تلك الأسرة (١) .

ويذكر « ونى » أنه بدأ حياته فى الحكومة فى عهد الملك « تتى » أول ملوك هذه الأسرة وكان إذ ذاك فتى يافعا ثم رقى فى عهده إلى أن أصبح فى مركز كبير إذ كان مديرا لمكتب الزراعة كما كان فى الوقت ذاته مديرا لأراضى الملك . ويستمر « ونى » فى قصته ، وقد تعمد ألا يشير إلى من حكم بعد « تتى » كما قلنا ، ويذكر باقى تاريخ حياته فى عهد ببى الأول « فيذكر محبة الملك له وثقته فيه إذ أسند إليه أيضا وظيفة كبرى فى القضاء وهى وظيفة « قاضى نخن » وجعله رئيساً لمجلس الستة وبذلك كان من أهم شخصيات ذلك العهد ووصلت ثقة الملك فيه أنه كان يحقق فى قضايا الملك الخاصة بحريمه .

ويقص علينا « ونى » أيضا كيف أسند إليه مهمة تأليف جيش عدد رجاله « عشرات الآلاف » من جميع بلاد الوجه القبلى ، من الفنتين فى الجنوب حتى إطفيح

فى الشمال ، وكذلك من أفراد القبائل التى كانت تعيش فى ذلك الوقت فى بلاد النوبة مثل إرثت وإيام وواوات والمچا وغيرها ، وأسند إليه إمرة هذا الجيش الكبير . ويفخر القائد الشاب بأن النظام كان مستتبا بين جنوده وأن جميع رجال الجيش كانوا مثالا لما يجب أن يكون عليه الجندى فلم يتعرض واحد منهم لأى شخص فى أى بلد مروا به ولم يغتصب أحد منهم شيئا مهما قلت قيمته .

وأتم ما كلفه به سيده ، وبالرغم من أنه لم يذكر اسم مكان خاص بل كان يشير دائما إلى القاطنين فوق الرمال فإن هذه الحملة لم تكن ضد شبه جزيرة سينا بل كانت فى فلسطين ، إذ أنه يذكر فى شعره الذى تغنى فيه برجوع الجيش سالما ، أشجار التين وكروم العنب ويشير إلى بلاد آهلة بالسكان .

وأهم ما فى هذا النقش ما ذكره « ونى » بعد ذلك من أن ثورة أخرى قامت فى تلك البلاد فأرسله الملك لإخمادها ، فجهز جيشين أحدهما سار بطريق البر ، وسار هو مع الجيش الآخر بطريق البحر فنزل عند مكان من المحتمل جدا أن يكون قريبا من جبال الكرمل ، وسار بعد ذلك فى داخل البلاد وانتصر ، وقمع تلك الثورة [١] . كانت حملات « ونى » على فلسطين هى آخر أعماله الهامة فى عهد پپى الأول فلما تولى ابنه « مرى إن رع » حكم البلاد لم يفرط فيه بل زاد من قدره فعينه حاكما على الصعيد كله ، وكان يسند إليه من آن لآخر مهمة إحضار الجرانيت اللازم لهرمه ومعابده من منطقة أسوان وإحضار المرمر من محاجر حتنوب فى محافظة أسيوط . وكان آخر عمل كبير قام به فى عهد هذا الملك حفره لخمس قنوات فى صخور الشلال الأول لتسهيل سير السفن ، وقد أتم ذلك فى عام واحد ، وذهب « مرى إن رع » بنفسه ليرى العمل بعد إتمامه وليقدم له زعماء أسوان وقبائل النوبة ولاءهم ، ويقدم قرابينه للإله خنوم سيد منطقة الشلال . وينتهى « ونى » من قص تاريخ حياته عند إشارته إلى شق القنوات . ويذكر أن كل ما ناله من تكريم كان بسبب مزاياه وقيمته الشخصية وتفانيه فى تنفيذ أوامر الملك ، ويختم نقشه بقوله بأنه كان محبوبا من أبيه ممدوحا من أمه ، ويذكر اسمه مسبوقا بأعظم لقب ناله وهو لقب حاكم الوجه القبلى .

الرحالة المصريون يرتادون الجنوب :

زاد اهتمام ملوك مصر بشئون الجنوب منذ أيام الأسرة الخامسة عندما كانوا يرسلون الحملات لإحضار خيرات السودان . وزاد هذا الاهتمام في الأسرة السادسة فأوكلوا إلى أمراء جزيرة الفنتين وتعرف الآن باسم جزيرة أسوان مهمة القيام بتلك الرحلات إذ كان أولئك الأمراء أعرف الناس بما يلي بلادهم ، وكانوا يشرفون على الحدود المصرية في الجنوب . وأثمرت سياسة ، ونى ، وبخاصة منذ توليه أمر وظيفة حاكم الوجه القبلى ، فوطد صلته بزعماء النوبة وكان هؤلاء الزعماء وأتباعهم يتطوعون في الجيش المصرى عند قيامه بالحروب في فلسطين كما كانوا يختارون من بين أولئك النوبيين حراساً يسهرون على الأمن منذ أيام الأسرة السادسة في العاصمة وربما في غيرها من المدن أيضاً .

وعندما كان ، ونى ، حاكما على الوجه القبلى ، وكان الرجل الذى يلى الوزير في الأهمية ، نراه يهتم بإرسال الرحالة نحو الجنوب فقام حر خوف بحملاته الثلاث الأولى – كما قص علينا في تاريخ حياته المسطر على واجهة قبره في أسوان (١) في عهد الملك ، مرى إن رع ، أما رحلته الرابعة فقد كانت في عهد الملك ببى الثانى .

كان حر خوف حاكما لإقليم إلفنتين ولكنه في الوقت ذاته كان كاهنا لبعض الآلهة أما لقبه الرئيسى الذى كان يعتز به أكثر من كل ما عداه فهو لقب ، رئيسى الحملة ، . كان حر خوف في حملته الأولى في صحبة أبيه وكان يمشى ، إرى ، إلى منطقة تسمى بلاد إيام لفتح الطريق إلى تلك البلاد ، وقد تمت الرحلة في سبعة شهور. ويستمر حر خوف في سرد قصته فيذكر أن ملكه أرسله وحده في المرة الثانى فخرج من ألفنتين ويذكر بعد ذلك البلاد التى مر بها واحدا بعد آخر ويفتخر بأن أحداً من الرحالة الذين سافروا قبله لم يتسن له ارتياد المناطق التي ارتادها أو يعود من رحلته بمثل ما عاد به من هدايا .

وفي رحلته الثالثة اتخذ طريقاً آخر ، إذ سافر على ، درب الواحات ، ووجد حر خوف أن حرباً قد استعرت بين زعيم قبيلة ، إيام ، وبين قبائل الـ ، تمحو ، الذين كانوا

يعيشون فى غربى مصر ، فأصلح بينهم وعاد من تلك الرحلة ومعه ثلاثمائة حمار محملة بالبخور والأبنوس والعطور وجلود الفهد وأنياب الفيلة وبذر السمسم وغير ذلك ، كما رافقه فى عودته بعض زعماء القبائل ليدلوه على الطريق .

ولسنا نعرف تفاصيل ما حدث له فى رحلته الرابعة التى قام بها فى العام الثانى من حكم الملك ببى الثانى ؛ لأن حصوله على قزم من تلك الرحلة قد غطى على كل شىء آخر . ولو حللنا تفاصيل تلك الحملات وتتبعنا البلاد التى ذكرها لخرجنا بالنتائج الآتية :

(١) كانت أولى رحلاته مع أبيه ، وقد وصل إلى بلاد ، إيام ، أى المنطقة الواقعة جنوبى وادى حلفا .

(ب) كانت رحلته الثانية فى مناطق لم يسبقه إلى اختراقها أحد من قبل . وقد كانت هاتان الرحلتان تبدآن بالنزول فى النيل إلى مكان معين قريب من وادى حلفا ثم يبدأ بعد ذلك سيره بالبر .

(جـ) أما الرحلة الثالثة فقد كانت فى طريق البر ، وسار فيها على درب الأربعين [١] . واتصل فيها بالتمحو ، ومن المحتمل جداً أن هدفه الذى حققه كان الوصول إلى دارفور .

(د) وربما شجعه نجاحه فى رحلته الثالثة على السفر مرة أخرى ، ولكن نجاحه فى الحصول على قزم جعله لا يذكر شيئاً آخر سواء عن الطريق الذى اتخذه أو الحاصلات والهدايا التى عاد بها ، أكثر من أنه كان قد وصل إلى المنطقة الواقعة إلى جنوبى وادى حلفا (إيام) . وأرسل حر خوف ينبىء الملك بحصوله على ذلك القزم فتلقى رسالة من الملك كتبها بخط يده ، وقد اعتز بها حر خوف ونقل نصها الحرفى على جانب مدخل قبره وإنى أقدمه هنا مترجماً ترجمة حرفية

لإعطاء فكرة عن صيغة خطابات ذلك العهد ، ولكن يجب ألا ننسى أنه خطاب من طفل صغير حديث السن :

« الختم الملكى نفسه ، فى السنة الثانية الشهر الثالث من فصل الصيف اليوم الخامس عشر » .

رسالة ملكية إلى الصديق الأوحد ، الكاهن المرتل ، ورئيس الحملة حر خوف : فهمت نص خطابك هذا الذى بعثت به إلى الملك فى القصر لتحيطه علما بأنك عدت سالما من بلاد إيام مع حملتى التى كانت معك ، وذكرت فى رسالتك أنك أحضرت جميع الهدايا الكثيرة الجميلة التى قدمتها الإلهة حتحور سيدة بلاد « إماوو » إلى ذات ملك الوجهين القبلى والبحرى الملك نفر كارع (ببى الثانى) عاش خالدا إلى الأبد . وذكرت فى رسالتك هذه أنك أحضرت قزما لأجل رقصة الإله من أرض الأرواح ، وهو شبيه بالقزم الذى أحضره قائد السفينة « باور دد » من بلاد بونت ، فى عهد الملك « إسيسى » . وقلت لجلالتى : « لم يحدث أبدا أن جاء بمثله أى شخص آخر ذهب إلى بلاد إيام من قبل » . لقد أحسنت حقا بعمل ما يحبه سيدك ويشكرك عليه ، إنك تصبح وتمسى فى تحقيق كل ما يحبه ويريده ويأمر به مولاك ، وسيكافئك جلالته كثيرا وسيمنحك ما سيعتز به ابن ابنك إلى الأبد وسيقول كل من يسمع بما فعله جلالتى من أجلك : هل هناك مثيل لما عمل لأجل الصديق الأوحد حر خوف عندما سافر إلى بلاد إيام فأظهر يقظة فى تنفيذ ما يأمر به ويحبه ويمدحه مولاه ؟

تعال إلى الشمال . تعال سريعا إلى القصر ، وأحضر معك هذا القزم الذى جئت به من أرض الأرواح حيا سالما وفى صحة جيدة ليرقص للإله ، ويدخل السرور آلاف المرات على قلب ملك الوجهين القبلى والبحرى الملك نفر كارع عاش إلى الأبد .

فإذا ما نزل معك إلى السفينة فعين أشخاصا أذكياء على جانبها لملاحظته حتى لا يقع فى الماء . وإذا نام فى الليل فعين رجالاً أذكياء ليحرسوه فى حجرتــه ، وفتش (عليهم) عشر مرات كل ليلة ؛ لأن جلالتى يجب ن يرى هذا القزم أكثر من هدايا المناجم وهدايا بلاد بونت . فإذا وصلت إلى القصر ومعك هذا القزم حيا سالما وفى صحة جيدة فإن جلالتى سيعمل لأجلك أشياء كثيرة أكثر مما عمل لأجل قائد السفينة « باور دد » فى أيام الملك « إسيسى » ؛ لأن رغبة جلالتى هى رؤية هذا القزم .

وقد أعطيت الأوامر لحاكم المدينة الجديدة ، الرفيق المشرف على الكهنة ليأمر بإعداد ما يلزم من مأكل وشراب فى كل استراحة ملحقة بالمخازن وفى جميع المعابد بلا استثناء » .

ببى - نخت :

لم يستمر نشاط حر خوف فى قيامه بتلك الحملات أكثر من سبعة أعوام قام خلالها بالحملات الأربع ثم تلاه فى هذا العمل حاكم آخر امتاز بشدة اليأس وكان اسمه « ببى نخت » الذى يقص علينا فى تاريخه الذى كتبه فى قبره فى اسوان شيئا كثيرا عن نشاطه فى الجنوب .

كانت صلة مصر بقبائل النوبة فى أيام ونى وحر خوف صلة صداقة وتعاون ، ولسنا نعرف السبب الذى جعل بلاد إرثت (حول بلدة توماس فى النوبة) تتعرض لغضب الملك فيكلف « ببى نخت » بتأديبهم :

« أرسلنى جلالة مولاى لأؤدب بلاد إرثت فقمت بما جعل مولاى يثنى على وقتلت منهم عدداً كبيراً ، من بينهم أبناء الزعماء ورؤساء المحاربين ، وأحضرت منهم أسرى إلى القصر . كان عددهم عظيما ، لأنى كنت شجاعا ومعى جيش كبير من الجنود الأشداء » .

ويذكر هذا الشخص فى موضع آخر من نصه بأنه ذهب مرة أخرى إلى تلك البلاد لتهدئة الحالة فيها ، وأحضر معه عند عودته زعيمى الثوار ومعهما هدايا من الثيران والأبقار . من المحتمل أن هذه الحملة الثانية لم تكن حملة حربية وإنما كانت لإصلاح مع عساه أن يكون قد أفسدته الحملة الأولى .

ويقص علينا أيضا أن الملك ببى الثانى كان قد أمر أحد ضباطه ببناء سفينة كبيرة على ساحل البحر الأحمر للإبحار بها إلى بلاد بونت ، ولكن بدو الصحراء الشرقية هاجموه وقتلوه هو ومن كان معه . فلما علم الملك بذلك أمر ببى نخت بإعداد حملة وأن يذهب للثأر للضابط المقتول وإحضار جثته (١) ، وقد قام بذلك وقتل من أولئك البدو عددا عظيما . وترينا هذه القصة الأخيرة كيف أصبحت سلطة الملك محدودة وأنه كان يعتمد على ولاء حكام الأقاليم الأقوياء لتنفيذ ما يريده .

ميخو وسابنى :

ولم تحل أعمال ببى نخت فى بلاد النوبة دون استمرار حملات الاستكشاف والتجارة من آن لآخر ، ونعرف من مقابر أسوان أيضاً قصة اثنين من أولئك الرحالة وهما ميخو وابنه سابنى تركا لنا نقوشا فى مقبرتهما بأسوان عرفنا منها أن الأب دفع حياته ثمنا لتفانيه فى خدمة سيده الملك إذ قتله رجال إحدى القبائل النوبية عند عودته

من إحدى رحلاته (١) .

ويذكر سابنى أن أباه كان حاكما لإلفنتين وكان يحمل لقب رئيس الحملة كما كان يحمل عدة ألقاب كهنوتية ، وعينه الملك فى كل تلك الوظائف كما أسند إليه أيضا وظيفة حاكم الجنوب عندما نجح فى إحضار جثة أبيه والإنتقام ممن قتلوه . ويذكر لنا سابنى أن بعض الناجين ممن كانوا مع أبيه قصوا عليه ما حدث : « وعندئذ اصطحبت جنودا من رجالى ومائة حمار وأخذت معى عطورا وعسلا وزيتا وملابس لأقدمها هدايا فى تلك البلاد . واتجهت إلى النوبيين بعد أن بعثت بخطابات إلى الملك بأنى سافرت لإحضار الجثة من بلاد واوات وأرثت ولأهدىء الأمور فى تلك المناطق » . ويستمر فى قصته فيقول إنه عثر على جثة أبيه فى منطق نائية بعيدة فصنع لها تابوتاً حمله على ظهر حمار ثم سار مخترقا البلاد حتى رجع إلى واوات (منطقة كورسكو) وأرسل خطابا إلى الملك ينبئه بما حدث ، كما أرسل إليه ما أحضره معه من هدايا . وأراد الملك أن يظهر عطفه على كل من ميخو وابنه سابنى فأمر بإرسال المحنطين الملكيين من منف ومعهم كل ما يلزمهم لعملهم ، ودفنه دفنة تليق بأحد حكام الأقاليم الذين ضحوا بحياتهم فى خدمة ملكهم ، وأمر بأن يتولى سابنى وظائف أبيه وكتب له قائلا : « لقد فعلت كل هذه الأشياء العظيمة مكافأة لك على عملك الكبير ، لأنك أحضرت جثة أبيك » .

هذه بعض قصص الرحالة المصريين الذين ذهبوا لاكتشاف البلاد الواقعة إلى الجنوب وليفتحوا طرقاتها للتجارة . قام المصريون بتلك الرحلات فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ليكتشفوا قلب القارة الإفريقية قبل أن يولد ستانلى ولفنجستون وغيرهما من الرحالة الحديثين بأكثر من أربعة آلاف ومائتى عام.

كانوا يذهبون إلى الجنوب تنفيذا لسياسة أسسها ملوك الأسرة الخامسة وشجعها واهتم بها اهتماماً خاصاً ملوك الأسرة السادسة ، وقد كانت رحلات أولئك الرحالة وما أنشأوه من صلات مع زعماء القبائل ما حصلوا عليه من معلومات عن البلاد ، تمهيداً لصلات سياسية أقوى كما سنرى عند الحديث على الدولة الوسطى .

الثورة الإجتماعية :

وصلت حالة مصر إلى الحضيض فى أواخر أيام الأسرة السادسة وعمت

الفوضى ، فلما طفح الكيل لم يجد الشعب أمامه طريقاً غير الثورة على تلك الأوضاع ، والإنتقام لنفسه ممن كانوا عليه سوط عذاب .

ومصادرنا عن تلك الثورة ووصف ما حدث فى البلاد ، تنحصر فيما جاء فى برديتين إحداهما تسمى بردية « إيبو ور » [1] والثانية تسمى بردية « نفرتى » [2] وقد كتبت أولاهما وهى الأهم على لسان شخص حكيم استطاع أن يصل إلى مقر الملك الذى لم يذكر اسمه ويطلب منه العمل على إنقاذ البلاد مما تردت فيه ، ويصف له حالتها السيئة فى لغة بليغة .أما الثانية فقد كتبت بعد تلك الثورة ، كتبها كاتبها كدعاية سياسية للملك أمنمحات الأول (يسميه باسمه المختصر أمينى فى النص) وينسب أصل حوادثها إلى عهد الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة الذى طلب من رئيس الكهنة المرتلين فى معبد الآلهة « باست » ويسمى « نفرتى » أن يحدثه عن شيء سيحدث فى المستقبل فقص عليه ما سيحدث فى البلاد من فوضى ويطيل فى وصفها ثم يقول أخيراً أن الذى سينقذ مصر من تلك المحنة ملك اسمه أمينى يأتى من الجنوب وأمه نوبية ويولد فى الصعيد .

وليس فى استطاعتنا أن نقدم هنا نص هاتين البرديتين ، ويكفى أن نشير إلى بعض ما جاء فيهما [3] .

لقد انقلبت البلاد إلى عصابات ، ولم يعد الناس يحرثون حقولهم ، وأضرب الناس عن دفع الضرائب ، وتوقفت التجارة الخارجية وهجم الناس على مخازن الحكومة فنهبوها وعلى مكاتب الدولة فبعثروا محتوياتها . بل أن الملوك المدفونين قد اعتدى عليهم أيضاً وبعثروا أشلاءهم وأصبحت أهرامهم خالية مما كان فيها . وصب الشعب انتقامه على الأغنياء فنهبوا القصور وحرقوها وصار أصحابها محزونين يبكون، بينما كان عامة الشعب يفرحون ويحتفلون . وأصبح الذين كانوا يملكون الرقيق يسيرون في أسمال بالية . وأولئك الذين لم يملكوا شيئاً في حياتهم يرفون في ملابس من خير أنواع الكتان . ويسخر الكاتب مما كان يراه فيقول إن الأصلع الذى لم يكن يستخدم الزيت أصبح يمتلك الأوانى الملأى بخير أنواع العطور ، وأن الذى لم يمتلك صندوقاً صغيراً فى حياته أصبح مالكا لصندوق كبير ، والفتاة التى كانت تذهب إلى الماء لترى وجهها أصبحت مالكة لمرآة .

وياليت الأمر وقف عند ذلك الحد فقد صب الناس نقمتهم على أطفال الأغنياء فصاروا يقذفون بهم الجدران ، وترك الناس أطفالهم الذين طالما تمنوا ولادتهم ، ألقوا في الطريق عساهم أن يجدوا من يمد إليهم يده .

حتى رجال الأمن الذين كان الناس ينتظرون منهم أن يوقفوا تلك الأحداث أصبحوا فى مقدمة الناهبين ، وإنهارت الحكومة المركزية وأصبح الأغنياء فى حزن وغم بينما كان الفقراء فرحين . وكانت كل مدينة تقول ، فلنطرد بعضنا منها ، ومما زاد الحالة سوءا أن عصابات من البدو الذين كانوا يسكنون على حدود مصر فى الشرق وربما أيضا فى الغرب انتهزوا هذه الفرصة فأخذوا يتدفقون على قرى الدلتا وينهبون ما يجدونه مع الناس ، ولم يعد أخ يثق فى أخيه أو صديق فى صاحبه .

إذن لقد انتقم الشعب ، وثار الفلاح الصابر المطيع عندما وجد الظلم قد ازداد ، وأن الأغنياء قد سلبوه كل شيء ، ثار ثورته الجامحة فلم يبق على شيء ولم يفرق وهو فى ثورته بين معبد لإله أو ديوان للحكومة ، أو قصر لغنى ، أو مخزن للدولة ، أو قبر دفنوا فيه حليا مع صاحبه ، ولكن مثل هذه الحالة لا يمكن أن تستمر إلى الأبد فلابد للناس من أن يعودوا إلى الهدوء بعد الثورة وأن يحاولوا خلق مجتمع ونظام جديدين . وإذا كانت الحقول قد تركت دون زراعة وتعكرت مياه النيل بلون الدم وملئت بجثث الموتى ، كان لابد للناس أن يهدأوا وأن ينتجوا ليعيشوا . ولم يعد الشعب يجد من يصب عليه مزيدا من غضبه أو شيئا يمكنه أن يغتصبه ممن كان يملكه ، فخلد إلى الهدوء

وتطلع إلى الذين احتلوا منه مكان الزعامة والمشورة ليخرجوه مما هو فيه ليبدأ حياة جديدة ، لأن الهدم سهل وميسور ولكن البناء شيء آخر يحتاج إلى خبرة ومران .

ومضت فترة طويلة قبل أن تعود مصر إلى ما كانت عليه ، وسنرى في الفصل القادم ماذا حدث خلال عصر الفترة الأولى .

الفصل الرابع

عصر الفترة الأولى

الأسرات من السابعة حتى العاشرة

(٢٢٨٠ – ٢٠٥٢ ق.م.)

- الأسرة السابعة (٢٢٨٠ ق.م – لمدة سبعين يومياً حسب رواية مانيتون)
- الأسرة الثامنة (٢٢٨٠ – ٢٢٤٢ ق.م.)
- الأسرة التاسعة (٢٢٤٢ – ٢١٣٣ ق.م.)
- الأسرة العاشرة (٢١٣٣ – ٢٠٥٢ ق.م.)

عصـــر الفتـــــرة الأولـــى

الأسرات من السابعة حتى العاشرة

(٢٢٨٠ - ٢٠٥٢ ق.م.)

صورت بردية « إيبو – ور » حالة مصر فى آخر أيام الأسرة السادسة خير تمثيل . فقد انهارت السلطة المركزية فى البلاد وأصبحت حدودها مفتوحة ، وما لبثت أن وفدت جماعات كبيرة من البدو المقيمين على الحدود وبخاصة من الشرق وأخذوا ينهبون الناس ويذيعون الذعر فى النفوس . وبدلا من أن يقف رجال الأمن فى وجه العابثين أصبحوا هم الآخرين ينهبون ويقتلون ، فلا عجب إذا قامت ثورة جارفة حطمت كل شيء ولم يسلم منها مدفن أو معبد أو ديوان حكومى ، وامتد غضب الشعب إلى الأثرياء فنهبوا بيوتهم وقتلوا من قتلوا وشردوا من شردوا وأصبحت الخادمات يجلسن فى أماكن سيداتهن وأصبح السوقة والدهماء هم أهل الحل والعقد .

فإذا ما سألنا أنفسنا عن مصير البيت المالك فإننا لا نلبث أن نقف على الجواب مما خلفه لنا مانيتون من أخبار ، وما أبقى عليه الزمن من أسماء مدونة فى بردية تورين وفي ثبت أسماء الملوك بأبيدوس وثبت سقارة وغيرها .

يذكر مانيتون أنه بعد سقوط الأسرة السادسة قامت الأسرة السابعة ، وحكم سبعون من ملوكها مدة سبعين يوما ، ومهما حاولنا تفسير ذلك لا يمكننا أن نجد ما نستطيع أن نسميه جوابا مقنعا ، وأقرب شيء إلى العقل هو أنه ربما اجتمع سبعون من كبار الموظفين وحكام الأقاليم وكونوا من أنفسهم هيئة حاكمة يطلق على كل واحد من أولئك السبعين لقب ملك أو حاكم ، ولكن هذا النظام - أو بعبارة أخرى هذا النوع من الحكم الذى لم يعتد عليه المصريون - لم يجد قبولا منهم فلم يستمر أكثر من سبعين يوما ، وعلى أى حال فإن أكثر المؤرخين الآن يميلون إلى القول بأن أيام هذه الأسرة انتهت فى العام نفسه أى أن عام ٢٢٨٠ ق.م. هو آخر حكم الدولة القديمة [١] هو فى

الوقت ذاته بداية الأسرة السابعة المنفية وعصر الفترة الأولى وأول سنى الأسرة الثامنة التى حكمت ٣٨ عاما فقط .

ولكن الأستاذ شتوك الذى كتب رسالة خاصة عن هذا العصر يرى أن عددا من الملوك قد تولوا الحكم فى الأسرة السابعة فى منف ويقدم ثبتا بأسمائهم . ولكن فى الوقت ذاته ، ومنذ عهد الملك الثالث منهم ، بدأت عائلة مالكـــة جديدة فى الصعيــد (فى قفط أو فى أبيدوس) وهى الأسرة الثامنة ومؤسسها ، نتر - كا - رع ، وبدأت أيضا عائلة مالكة أخرى فى اهناسيا وهى الأسرة التاسعة ومؤسسها أختوى (أوخيتى) الأول (١) . ولكن الرأى الأرجح الذى يجد قبولا من الغالبية الكبرى من الباحثين هو أن الأسرة السابعة لم يزد حكمها فى منف عن عدة شهور ثم تلتها فى منف أسرة حاكمة جديدة من أحد فروع البيت المالك القديم حكموا أيضا فى منف وكان عدد ملوكها خمسة عشر ملكا وأنهم لم يحكموا فى قفط (٢) أو فى أبيدوس كما قال بعض الباحثين .

أما الأسماء التى ذكرها بترى وذكرها شتوك فإنها – أو العدد الأكبر منها – أسماء لملوك حكموا فى عصور تالية ، رلم يخلفوا وراءهم آثاراً إلا جعارين فى أكثر الحالات كتبت عليها أسماؤهم .

كانت البلاد مفككة العرى ، وكان الوجه البحرى بصفة خاصة تحت رحمة عصابات البدو التى أذاعت بين أهله الذعر والخوف ، والتى لم تجد من يقف فى وجهها . أما فى مصر الوسطى والصعيد فقد كانت الحالة أفضل نسبيا إذا استقل حاكم كل منطقة بها وفرض عليها سلطانه ، وفى مثل تلك الظروف يحاول كل حاكم قوى أن يضم إليه أملاك غيره من جيرانه ويخضعهم له فيظل الناس فى كرب مستمر بسبب الغارات التى يتعرضون لها وبسبب ما ينجم عن الحروب من قتل وتخريب ونهب أموال وشل للحياةالعامة . وفى غمرة هذه الحوادث أراد حاكم منف ، وربما كان من نسل ملوك الأسرة السادسة أن يعيد للبلاد وحدتها فأعلن نفسه ملكا على البلاد

وساعده في ذلك بعض حكام الصعيد وامتنع البعض الآخر . ومن المحتمل أيضا أن يكون بعض هؤلاء الحكام قد رأى أنه لم يكن أقل من ملوك منف فادعى الملك لنفسه أيضا ، وفى خلال هذا الضباب الكثيف يمكننا أن نرى بعض صور غير واضحة المعالم تماما . فإن ملوك الأسرة الثامنة كانوا يحكمــون فى منف على الأرجح كما قلنا ، ولكنهم كانوا يعتمدون على مناصرة بعض البيوت القوية فى الأقاليم فكانوا يصاهرونهم ويمنحونهم بعض الامتيازات وقد حفظت لنا الأيام فى خرائب معبد الإله ، مين ، فى قفط بضعة مراسيم منحها آخر ثلاثة من ملوك الأسرة الثامنة لأعضاء هذا البيت فاعتزوا بها ووضعوا صورها منقوشة على لوحات حجرية فى المعبد ، وأكثر هذه المراسيم لمصلحة إثنين من هذا البيت وهما ، شماى ، الذى كان أميراً لذلك الإقليم وإبنه ، إيدى ، [١] .

وتوجد أجزاء من عدد منها فى متحف المتربوليتان بنيويورك واحد منها باسم (واج كارع) (خع باور) وأربعة من أيام (نترى باور) (نفر كارع) الذى خلفه على العرش وقد أصدر هذه المراسيم الأربعة فى يوم واحد ، وذلك فى العام الأول من توليه الملك . أصدر هذا الملك أول تلك المراسيم لتحديد الألقاب التى تمنح لابنته الكبرى ، نبيت ، زوجة الوزير ، شماى ، ويعين ضابطا خاصا ليكون رئيسا لحراسها وفى المرسوم نفسه يأمر الملك بناء سفينة مقدسة للإله ، مين ، ويحدد أطوالها وفى مرسوم آخر يأمر الملك بتعيين ، إيدى ، خليفة لأبيه كحاكم للصعيد وأن يكون له الإشراف على الأقاليم السبعة الجنوبية ابتداء من النوبة إلى مدينة ، هو ، (على مقربة من نجع حمادى) . ولكن نفوذ الأسرة الثامنة لم يطل [٢] ، ولا نلبث أن نرى بيتا

حاكماً جديداً يتولى الملك ويجعل عاصمة ملكه فى مدينة اهناسيا (نن – نى – سوت، قديما) عند مدخل الفيوم ، وهى إحدى المدن القديمة ذات الأهمية الدينية التى عرفها الناس فى عصر اليونان باسم هراقليوبوليس ؛ لأنهم ساووا بين إلهها ، حرى شف ، ومعبودهم البطل هرقل .

ملوك اهناسيا (الأسرتان – التاسعة والعاشرة)

ولسنا نعرف شيئا عن النزاع الذى يرجح أنه قام بين أمراء اهناسيا وآخر ملوك الأسرة الثامنة فى منف ، ولسنا نعرف شيئا عن موقف حكام الأقاليم من الأسرة الجديدة عند نشأتها ، ولكن يمكن القول بأن الأوضاع العامة لم تختلف كثيراً عن ذى قبل واستمر الملوك الجدد يخطبون ود الحكام الأقوياء ويستعينون بهم . ونعرف من بردية تورين أن عدد ملوك هذه الأسرة ثلاثة عشر ، فقدت أسماء الكثيرين منهم بسبب تحطيم هذه البردية ، وأنهم حكموا من ٢٢٦٢ – ٢١٢٣ أى ١٠٩ سنوات .

ومؤسس هذه الأسرة (مرى إب رع) (أختوى) وهو أختوى الأول ، (ويذكر فى بعض المؤلفات باسم ، خيتى ،) الذى وصفه مانيتون بأنه كان ظالما متجبرا ، لاقى الشعب على يديه كل أنواع العنف والشدة أكثر مما أصابهم على يدى أى ملك قبله ، وأنه ظل فى ظلمه وطغيانه حتى أصيب فى أواخر أيامه بالجنون وانتهت حياته عندما فتك به أحد التماسيح .

وربما كان مانيتون صادقا فيما رواه عن قسوة أختوى وطغيانه ، فإننا لا نتوقع من أمثال هذا الشخص من الطامحين المحاربين فى عصر كانت تسوده الفوضى والأطماع ، والبلد يتقاسمها الحكام ، ويتحكم البدو فى الدلتا ويتنافس حكام الصعيد فيما بينهم على النفوذ ، لا نتوقع من ملك قوى جديد يريد أن يؤسس ملكا جديداً ، وله منافسون وحوله حاقدون وناقمون عليه ، ألا يقضى على كل من يقف فى طريقه دون رحمة وهوادة .

ولسنا نعرف الكثير عن هذا الملك ، ولسنا نعرف أيضا من هم حكام الأقاليم الذين وقفوا إلى جانبه ، أو مدى نجاحه فى إعادة النظام إلى الدلتا رغم كل حروبه وكل قسوته ، ولكننا نشك فى أن الحالة تغيرت كثيراً إذ ظل الحكام الأقاليم نفوذهم كما كانت الحالة فى الأسرة الثامنة ، وظلت الدلتا معرضة لما كان يتتابعها من غزوات البدو المتكررة . ووجدت الأسرة التاسعة نفسها فى حاجة إلى موازرة بعض حكام الأقاليم الذين يحكمون بلادهم شبه مستقلين ، والذين ظلوا يشيدون مقابرهم على مقربة من مدنهم ، ويدفع الجزية من يدفعها إلى ملوك اهناسيا رمزا لولائهم ، ولكنهم

لم يعتمدوا إلا على أنفسهم لحماية أقاليمهم وحماية أنفسهم وجمع الضرائب من أتباعهم .

وفي نسخة يوسيبيوس عن مانيتون نقرأ أن عدد ملوك الأسرة العاشرة تسعة عشرة حكموا ١٨٥ سنة وينص على أن كلا من الأسرتين حكم في أهناسيا ولكن الأبحاث الحديثة تثبت لنا أن عدد ملوك الأسرة التاسعة كان أكثر من أربعة حسب ما ورد في بردية تورين وربما بلغ عددهم ثلاثة عشر شخصا حكموا ١٠٩ أعوام ولكن الأسماء الكاملة من بينها عددها خمسة فقط (١) . أما ملوك الأسرة العاشرة فقد كانوا خمسة فقط حكموا من ٢١٢٣ – ٢٠٥٢ ق.م. أي ٧١ عاما (٢) وأن هذه الأسرة الإهناسية كانت معاصرة منذ ظهورها تقريبا لأمراء طيبة الذين دارت بينهم وبين الإهناسيين فيما بعد حروب انتهت بالقضاء على بيت إهناسيا وانفراد الأسرة الحادية عشرة الطيبية بالملك .

والحقيقة أننا لا نكاد نعرف شيئا عن ملوك الأسرة التاسعة حتى الآن وكانت مصر في أيامهم شبيهة بما كانت عليه في عهد الأسرة الثامنة أي ملوك ضعاف يعيشون في العاصمة لا يكاد أن يكون لهم نفوذ في الأقاليم ، وأمراء أو حكام للأقاليم يستقل كل منهم بشأنه وتربط بعضهم بالبيت المالك في إهناسيا رابطة من الروابط والبعض الآخر مستقل بشأنه ، أما البلاد بوجه عام فقد تفككت عراها وتأخرت فنونها وأصابها الوهن .

وكان البيت المالك يزداد ضعفا بينما يزداد أمراء الأقاليم قوة حتى جاء اليوم الذى زال فيه حكم الأسرة ، وتلتها أسرة أخرى أظهرت شيئا من النشاط ، وبدأ الظلام المخيم على تاريخ مصر ينقشع رويدا فنرى خلاله بعض أشباح تتحرك ثم نرى هذه الأشباح تتحول إلى قوى تتطاحن فيما بينها ، وتدخل مصر مرة أخرى فى فترة استيقاظ .

ومنذ الوقت الذى جلس فيه ملوك الأسرة على العرش ظهر فى طيبة بيت قوى كان أفراده يرون فى أنفسهم أنهم أحق بالملك من بيت إهناسيا ولكن ولاء بعض البيوت القوية الأخرى لملوك إهناسيا وبخاصة أمراء أسيوط فى مصر الوسطى أى فى شمالهم وبيت آخر بأرمنت إلى الجنوب منهم جعل مهمة أمراء طيبة مهمة غير يسيرة كما سنرى .

فعلى جدران مقبرة المعلا [1] (بين الأقصر وأسنا) نقرأ بعض الحوادث التى جرت فى تلك الأيام . كان (عنخ تيفى) صاحب هذه المقبرة حاكما للأقاليم الجنوبية الثلاثة أى إلفنتين وإدفو وأرمنت ، أى يمتد نفوذه من النوبة حتى حدود الإقليم الرابع وهو إقليم طيبة . يفتخر ، عنخ – تيفى ، بسطوته وقوة جنوده الذين كانوا يذيعون الذعر إذا خرجوا للحرب ، ويتحدث عن المجاعة التى فتكت بالصعيد ولم ينج منها غير إقليمه لأنه ساعد الناس ، وكان يوزع عليهم الحبوب ، وحمى الضعفاء من الأقوياء حتى مرت تلك المحنة بسلام . ونحن لا يخالجنا شك فى أنه حدثت حرب بينه وبين أمير إقليم طيبة الذى اتحد مع من كانوا إلى الشمال منه وبخاصة بيت قفط وربما بيت دندرة أيضا ، ولكن نتيجة تلك الحرب لم تغير من الأمراء شيئا إذ ظل ، عنخ – تيفى ، حاكما على أقاليمه الثلاثة مواليا لبيت إهناسيا .

عاش ، عنخ ، – تيفى ، فى أوائل أيام الأسرة العاشرة فى عهد الملك ، نفر كارع ، ثانى ملوك هذه الأسرة الذى ورد اسمه فى المقبرة ولكن قوة هذه العائلة لم تستمر طويلا ، ولسنا نعرف إن كان ذلك بسبب ازدياد قوة طيبة أو ضعف الذى خلف ذلك الرجل القوى فى حكم الجنوب ، وربما كان الإثنان معاً .

وجلس على عرش إهناسيا بعد ، نفر كارع ، ملك حازم وهــو (واج كارع) (أختوى) الشهير الذى خلف وصيته لابنه ، تلك الوصية التى تلقى ضوءا كبيرا على ذلك العصر ، وهو المعروف الآن باسم أختوى الرابع لأننا نعرف الآن أن ثلاثة ملوك يحملون هذا الاسم كانوا من بين ملوك الأسرة التاسعة حسب دراسة الترتيب الأخير لبردية تورين منذ سنوات قريبة .

بدأ هذا الملك فى تطهير الدلتا من الفوضى السائدة فيها بسبب وجود عصابات البدو التى كانت تنشر الفزع وتنهب الناس . وبعد أن استتب له الأمر بعض الشيء أراد أن يتخلص من أمراء طيبة وحلفائهم فى الجنوب فحدثت حرب بين الفريقين دارت رحاها فى إقليم ثينيس (ثنى) على مقربة من أبيدوس ، انتصر فيها الإهناسيون بمعاونة أمراء أسيوط ولكن الطيبين عادوا فاسترجعوا ما فقدوه تحت قيادة (واح عنخ - إنيوتف) الذى لم يكتف باستعادة حصن ثينيس بل تقدم شمالا حتى استولى على مدينة كوم اشقاو (أفرود يتوبوليس) فى الإقليم العاشر من أقاليم الصعيد أى إلى حدود إقليم أسيوط نفسه .

وفى عهد الملك الإهناسى ، مريكارع ، ابن أختوى الرابع زادت المتاعب إذ تولى حكم طيبة حاكم قوى وهو منتوحوتب الثانى الذى استأنف الحرب وقضى على أمراء أسيوط ، ثم اندفع نحو الشمال فاستولى على الأشمونين ، ولم يبق للأهناسيين إلا القليل من مصر الوسطى ونفوذ متزعزع فى الدلتا .

ومات مريكارع وخلفه على العرش أختوى آخر وهو الخامس الذى جرت فى عهده حوادث قصة القروى الفصيح ، ولكن هذا الملك لم يبق طويلا على العرش إذ عاودت جيوش طيبة هجومها فقضت على عائلة إهناسيا وأخضعت مصر كلها وبدأت الأسرة الحادية عشرة عهدا جديدا ، وعادت مصر إلى وحدتها القديمة يحكمها ملك واحد كما بدأت أيضا الدولة الوسطى . تلك هى الخطوط الرئيسية لتاريخ ذلك العصر المظلم ولكن يجب علينا قبل الانتقال إلى عصر آخر أن نتحدث بشيء من التفصيل عن ثلاث نقاط وهى :

١ - وصية أختوى الرابع لابنه مريكارع .

٢ - بردية القروى الفصيح .

٣ - آثار ذلك العصر .

أما ما نعرفه عن الصراع بين إهناسيا وطيبة فسنعود له بشيء من التفصيل عند مناقشة موضوع نشأة الأسرة الحادية عشرة فى الفصل القادم .

وصية الملك أختوى لابنه مريكارع :

من أهم المصادر القديمة لدراسة الحالة فى مصر فى أواخر أيام إهناسيا ، تلك البردية التى تحتوى على النصائح والتوجيهات التى وجهها الملك أختوى الرابع

(خيتى) إلى ابنه الملك مريكارع (١) ، إذ أننا نرى فيها كثيراً من المعلومات المهمة عن ذلك العصر الغامض يحاول أختوى أن يعطى خلاصة تجاربه لابنه حتى لا يقع فيما وقع فيه هو من أخطاء ، ويبدأ هذه النصائح بعد الديباجة التى فقدت الآن بتحذير ابنه من أى تابع له يكثر من الكلام ووراءه أتباع كثيرون فإن هذا الشخص يسبب الانقسام بين الناس ، وينصحه بقوله : « اطرده اقتله ، امح ذكراه (هو) وأتباعه الذين يحبونه » . ويوصى ابنه بعد ذلك بأن يكون فنانا في الحديث ؛ لأن « اللسان كالسيف للإنسان » ، وينصحه بأن ينهج سبيل آبائه وأجداده وأن يكثر من قراءة ما خلفوه من كتب الحكمة وألا يفعل الشر وأن يتحلى بالصبر ويترك وراءه ذكرى حسنة من حب الناس له . ويحذر أختوى ابنه من الطمع ونصحه بأن يعتنى بتثبيت حدوده ، وأن يعلى من شأن رجاله ويقويهم ؛ لأن الغنى فى غير حاجة لمحاباة غيره ، أما الفقير فإنه لا يقول الحق الذى يؤمن به وإنما يحابى من يملك شيئا يعطيه له ، يقول لابنه : « ما أعظم الشخص العظيم عندما يكون رجاله المقربون عظماء ، وما أشجع الملك الذى يكون له رجال بلاط ، وما أعظم وأقوى الذى يكون له نبلاء كثيرون » ويكثر من نصح ابنه لاتباع جادة الحق وإقامة العدل ويحذره من ظلم الأرملة ، ويوصيه بألا يحرم شخصا من ثروة أبيه وألا يطرد الموظفين من وظائفهم ، ولكنه فى الوقت ذاته يوصيه وصية حازمة بقوله « حاذر من أن تعاقب الناس دون خطأ جنوه ، لا تقتل فإن ذلك لا يجديك شيئا ولكن عاقب بالضرب والإعتقال فتصلح الأمور فى البلاد ، اللهم إلا الثائر عليك الذى تتثبت من أمره » .

ولأول مرة فى تاريخ مصر نقرأ فى تلك النصائح عن وجود محكمة بعد الموت يقف أمامها الإنسان صاغرا ولا ينفعه أمام قضائها إلا العمل الصالح « فإن أعماله توضع مكدسة إلى جواره » . ويشير أختوى إلى الشباب فينصح أبنه بالعناية بهم

وتقريبهم منه ، وأن يمنحهم الحقول ويكافئهم بإعطائهم بعض الماشية ولكنه يحذره بشدة من أن يميز ابن شخص غني على ابن شخص فقير ، بل يجب أن يقدر كل إنسان حسب كفاءته الشخصية .

ويوصيه بالإكثار من إقامة المنشآت الدينية وترتيب القرابين ، وأن يرضى الله فإن الله يعرف الذين يعملون من أجله ، ثم يتدرج بعد ذلك إلى ذكر ما كان حادثا فى مصر من انقسام فيقول لابنه إنه لا يخلو أحد من وجود أعداء له ، وإن الأعداء فى داخل مصر لا يهدأون ، ثم يشفع ذلك بقوله : إن القدماء قد تنبأوا بأن جيلا سيظلم جيلا آخر وأن مصر ستحارب حتى فى الجبانة وتهدم القبور . لقد فعلت ذلك وأصابنى ما يصيب من يعصى أمر الله » .

يشير أختوى بذلك دون ريب إلى حرب استعرت نارها بين الشمال والجنوب ، إذ ينصحه مباشرة بعد ذلك بأن يحسن علاقته بالجنوب وإذا لم تأت منهم جزية من الحبوب فيكفيه صداقتهم له وينصحه بأن يكتفى بما لديه من خبز وجعة .

ويقول لإبنه إن الجرانيت يمكن الحصول عليه دون عائق ، ويحذره من الاعتداء على آثار الآخرين وأنه يجب عليه الحصول على ما يلزمه من أحجار من محاجر طرة لبناء قبره ، وألا يأخذ أحجارا مما تخرب من قبور الناس .

كانت أيام أختوى مليئة بالحروب ، فلم يحاول الاصطدام ببيت طيبة فى الجنوب بل نشط نشاطا كبيرا فى الدلتا واهتم اهتماما خاصا بالجزء الغربى منها وأخضعه تماما لأهناسيا ، ولكن الأمر لم يكن سهلا فى شرقى الدلتا وإن كانت ضرائبها ظلت تأتى إلى القصر ، ويقول إنه أعاد تنظيم المنطقة من المنيا جنوبا حتى السويس وأنه أسكن فيها أناسا كثيرين انتقاهم من جميع أنحاء البلاد حتى يستطيعوا الدفاع عنها . لقد كان العدو الذى يخشاه ملوك أهناسيا وأقاموا الحاميات وشجعوا تعمير البلاد الواقعة على الحدود لصدهم عصابات الأسيويين حملة القوس ، الذين يلاقون الكثير من المتاعب فى بلدهم « بسبب الماء والأشجار والجبال » ويقول عن الأسيوى « إنه لا يستقر فى مكان واحد ولكن ساقيه صنعتا لكى يتجول ويسير بعيدا . إنه يحارب منذ أيام حورس « أى منذ الأزل » وهو لا يقهر ولا يقهر ، إنه لا يحدد يوما للقتال ، إنه كاللص الذى يعمل فى عصابة » وهذه إشارة دون شك إلى عصابات من البدو جاءت من الشرق وكانت تنتهز الفرص لنهب القوى الآمنة أو نهب المسافرين ، ثم تسارع بالهرب قبل أن يلحق بها المطاردون « ربما أمكنه أن ينهب شخصا (يسير) بمفرده ، ولكنه لا يهاجم مدينة فيها سكان كثيرون » . وينبه ابنه مريكارع إلى أهمية منطقة

البحيرات المرة لحماية مصر من خطر البدو وينصحه بتحصين جزء منها وغمر الجزء الآخر بالمياه ويذكر ما قام به من تحصينات وعدد الذين جعلهم يقيمون هناك وكلهم مسلحون اللهم إلا الكهنة الذين يقيمون معهم . ويشير أيضا إلى تحصينه لمنف وإلى إنشاء قناة (أو ربما جسر) تربط بينها وبين إهناسيا ، ويعيد الكرة فيحذر ابنه من محاربة الجنوب ويقول له بأن ذلك يعطى فرصة للبدو الأسيويين فيعيثون فسادا فى الدلتا . ويعود فيذكر ما جره عليه اصطدامه بالجنوب « انظر ! لقد حدثت نكبة فى عهدى . لقد تحطمت مناطق إقليم ثنى . حدث ذلك حقا بسبب ما فعلت ، ولكنى لم أعلم به إلا بعد حدوثه . أنظر ! لقد جوزيت على ما اقترفت » ويختم نصائحه بحث ابنه على طاعة الله والخوف منه فهو يعلم السر وما يخفى ، ويذكره بألا ينسى آخرته وأن يعمل لليوم الآخر ، ويقول له بأن يذكر دائما نعم الله عليه ويقول عنه : « إنه هو الذى خلق أنفاس الحياة لخياشيمهم (أى الناس) ، وأولئك الذين خرجوا من صلبه ليسوا إلا صورا له . إنه يشرق فى السماء ليلبى رغبتهم ، إنه خلق لهم النباتات والحيوانات والطيور والأسماك ليقتاتوا منها » وما أجمل قوله : « إن الله يقبل أخلاق الرجل المستقيم الضمير أكثر من قبوله للثور الذى يقدمه الشرير (كقربان للآلهة) » وما أصدق عبارته التى يشير فيها إلى أن الله يوقع عقابه على بعض الناس لمصلحتهم : « إنه (أى الله) يقضى على من يملأ الشر قلبه بينهم (أى الناس) كما يضرب الأب ابنه إكراما لأخيه ، لأن الله يعرف كل إنسان » .

تلك هى بردية النصائح التى كتبها أختوى الرابع لإبنه وهى لا تمدنا فقط بتلك المعلومات الهامة عن الحالة الداخلية فى البلاد بل تمدنا بما هو أهم من ذلك ، وهو ظهور تلك النغمة الجديدة من التواضع . فلم يعد الملك ذلك الإله المترفع الجبار الحاكم فوق البشر والذى يرجو جميع الناس تعطفه ورضاه ليصيبهم شيء من إحسانه فى الدنيا والآخرة ، بل أصبح شخصا يتحدث عن ضعفه ويردد عبارات ندمه كسائر البشر . ونقرأ فى البردية أمرا آخر تزداد أهميته لأن قائله ملك يعترف له شعبه – ولو نظريا – بالألوهية الملكية ، وهو أن سعادة الإنسان فى آخرته تتوقف على عمله فى الدنيا ولا تتوقف على رضاء الملك فقط ، ونقرأ فيها أيضا أن كل امرىء مهما كان مركزه سيحاسب على أعماله أمام محكمة الآلهة وأنه سيجد تلك الأعمال مكدسة إلى جانبه بما فيها من خير وشر ، ونقرأ فيها أيضا نغمة حلوة وهى أن السعادة فى الآخرة لم تعد تتوقف على قبر يبنى أو على قرابين تقدم بانتظام ولكن الله يعرف ما فى القلوب ويطلب من عباده أن تحسن نياتهم ويذرون وراءهم الطمع والشر ، لأن النيات الحسنة هى التى يقبلها ، وهى أقرب إلى قلبه من القرابين التى يقدمها المذنبون

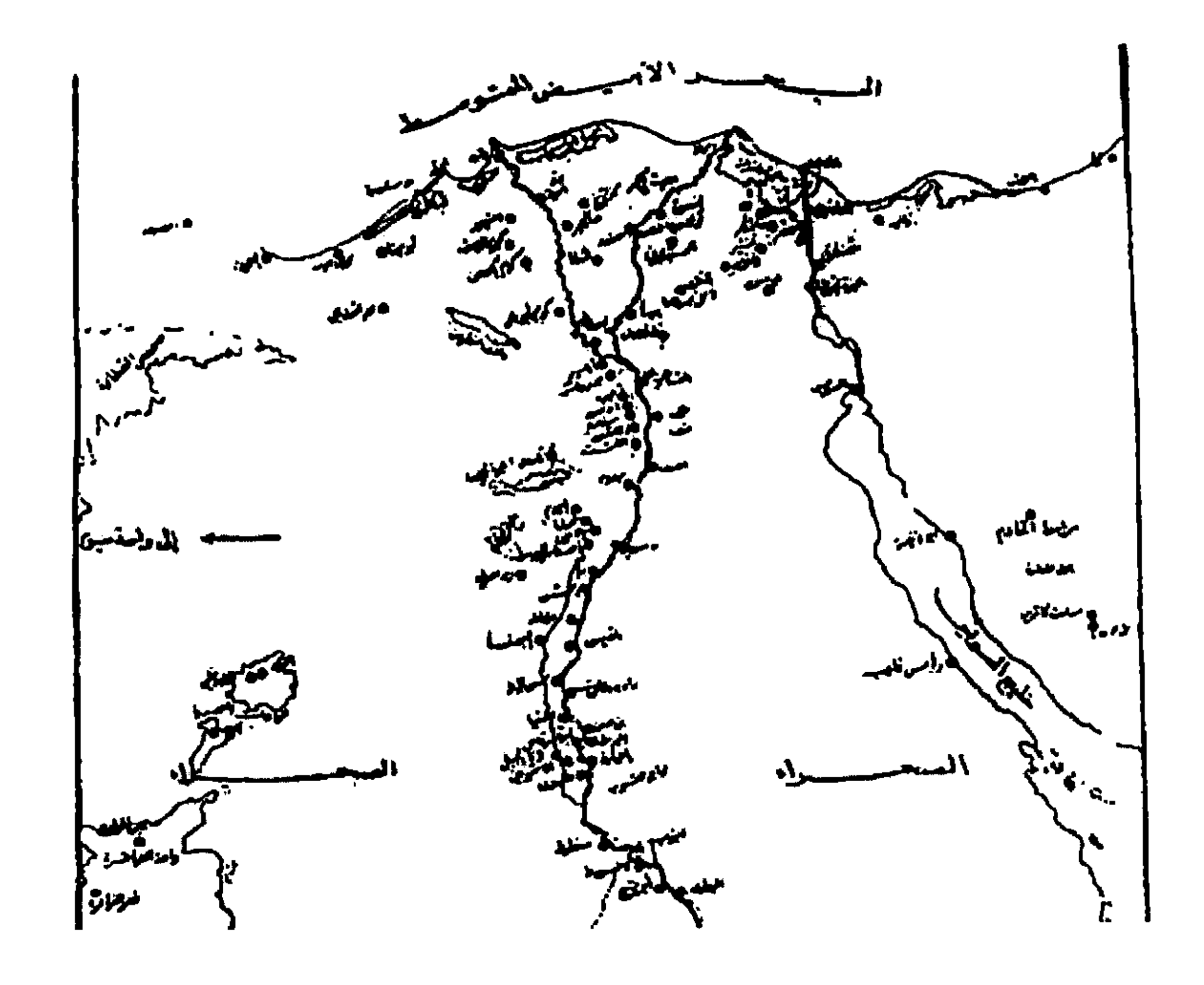
لقد فتكت الثورة الإجتماعية بمصر فدكت عرشها وفككت عراها وقضت على الحكومة المركزية فيها وعرضت البلاد لخطر الغزو الأجنبى ، ولكن مصر خرجت من محنتها بعد أن تعلمت من تلك التجربة القاسية أشياء جديدة عن قيمة الإنسان وحقوقه وعن معنى الخلق الكريم . لقد أثمرت تلك الثورة الإجتماعية إذاً ، وغيرت الشيء الكثير من نظرة المصريين إلى حكامهم بوجه عام وجعلتهم يدركون ما للفرد من قيمة وما له من حقوق ، ويكفى الآن هذا القدر من الحديث فسنعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى ١ـ عند مناقشتنا لبردية القروى الفصيح وبعض النصب التذكارية التى وصلت إلينا من ذلك العصر .

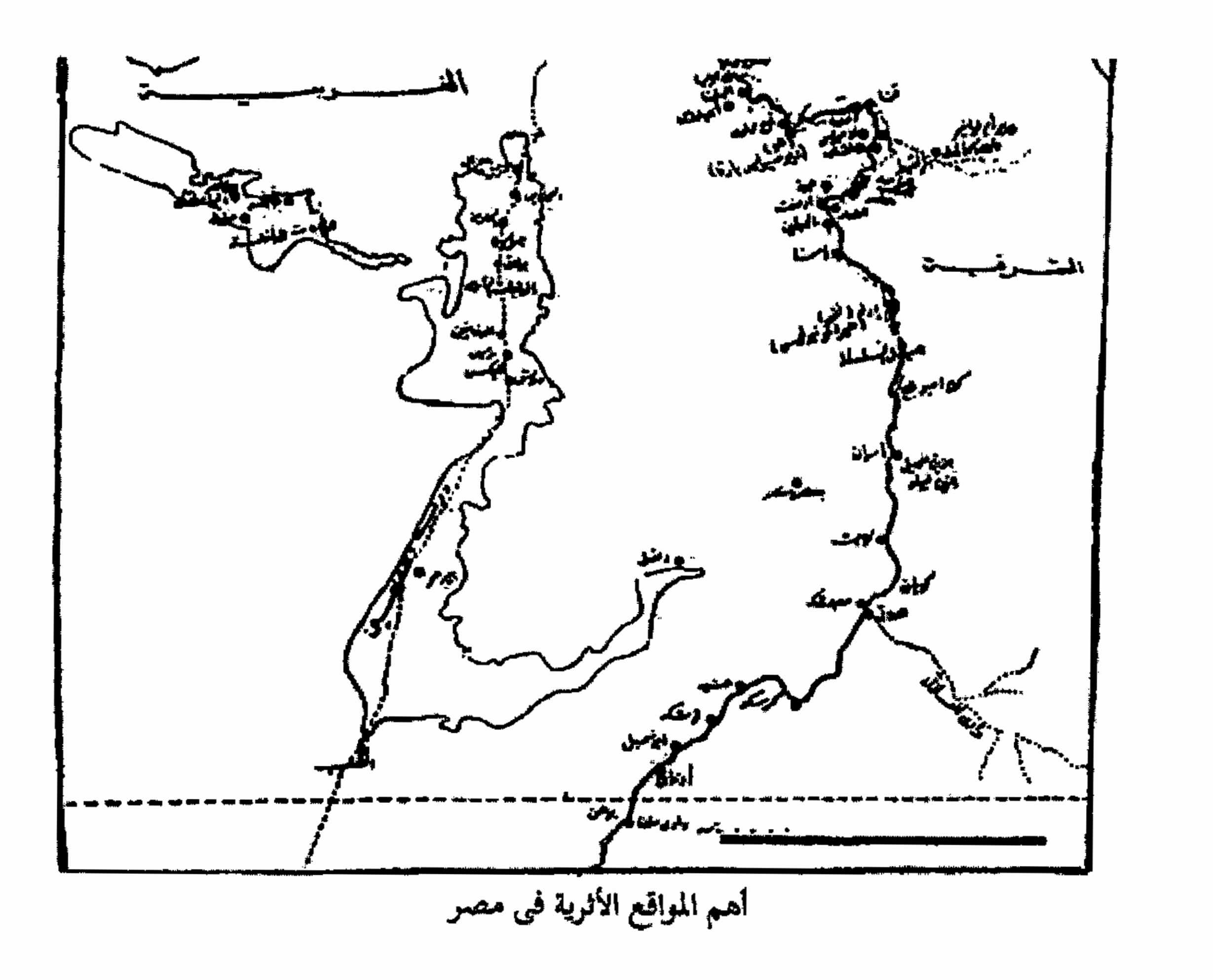
بردية القروى الفصيح [1] :

ازدهر الأدب ازدهارا كبيرا فى عهد ملوك إهناسيا ، وقد أشرنا قبل الآن إلى بردية « إيبرور » التى صورت لنا حالة البلاد وما ساد فيها فى بداية ذلك العصر المظلم الذى تلا سقوط الدولة القديمة وحللنا بردية النصائح الموجهة إلى مريكارع ورأينا فيها لغة مزدهرة وأدبا رفيعا يحوى آراء ناضجة وأهدافا محددة ، ولكن هناك قطعا أدبية أخرى ممتازة تساعدنا أيضا فى الوقوف على بعض نواحى الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر ومن بينها بردية البائس من الحياة ولكنى سأقتصر على واحدة منها فقط وهى بردية القروى الفصيح لأهميتها .

ليست هذه البردية قصة حقيقية وإنما هى قطعة أدبية ذات هدف خلقى أحسن فيها كاتبها اختيار تعبيراتها وصيغها ، وأظهر فيها مقدرته فى اللغة . تتكون من مقدمة على صورة قصة لا تخلو من الطرافة وتسع شكاوٍ فى موضوع واحد وهو الحث على العدل وإعطاء الفقير حقه وحمايته من الغنى الطامع وأن يكون الحاكم سياجا وملجأ للمظلوم ويخشى من عقاب الله إذا انحرف عن الطريق السوى .

كان يعيش أحد القرويين واسمه « خن إن أنوب » فى وادى النطرون وأراد أن يذهب ببعض محاصيل تلك الواحة ليبيعها فى إهناسيا ثم يشترى بثمنها غلالا يعود


البحر الأبيض المتوسط
الصحراء



أهم المواقع الأثرية فى مصر

بها إلى أهله . وطلب من أسرته أن تعد له زاد الطريق ، وحمل حميره ، وسار فى طريقه حتى أصبح على مقربة من العاصمة وكانت فى بلدة إهناسيا . وأثناء سيره رآه من بعيد شخص يسمى ، تحوتى نخت ، من أتباع ، رنسى ، بن ، مرو ، الذى كان رئيس مديرى القصر الملكى ومن كبار موظفى البلاد ، ومن أقرب الناس إلى الملك الحاكم . فلما رأى ، تحوتى نخت ، ذلك القروى آتيا فى الطريق عزم على اغتصاب ما معه ، وكان بيته قريبا من جانب الطريق الضيق وكانت الحقول على أحد جانبى الطريق ، وعلى الجانب الآخر ترعة فيها ماء . وأمر ، تحوتى نخت ، أحد خدمه فأحضر له قطعة من القماش فرشها فوق الطريق فوصل أحد طرفيها إلى الشعير المزروع فى الحقل بينما تدلى الطرف الآخر فى مياه الترعة التى كانت هناك ، أى أن ذلك النسيج غطى عرض الطريق . فلما وصل القروى حذره ، تحوتى نخت ، من أن تدوس حميره على النسيج فصدع القروى للأمر وأجابه سمعا وطاعة . وساق حميره على حافة الجسر من ناحية الحقل وعند ذلك نهره سائلا عما إذا كان يريد أن يجعل من حقل شعيره طريقا لحميره فأجابه القروى بأنه لا يقصد سوءا فالطريق مرتفع وقد غطاه بالقماش ، ولم يعد هناك مكان يسير فيه إلا حقل الشعير . وفى أثناء تلك المناقشة مال أحد الحمير فأكل شيئا من الحقل وعند ذلك قال ، تحوتى نخت ، إنه سيستولى على ذلك الحمار ثمنا لما أكله ، فصرخ القروى سائلاً إذا كان من العدل أن يأخذ حماره مقابل قبضة من الشعير ملأ بها فمه ، وصاح قائلا ، أننى أعرف صاحب هذه الضيعة ، إنها ملك رئيس مديرى القصر رنسى بن مرو ، أنه هو الذى يقف فى وجه اللصوص فى أنحاء البلاد فهل أسرق فى ضيعته ؟ ، وعند ذلك نهره ، تحوتى نخت ، وأخذ غصنا من شجرة وأوسعه ضربا وأخذ كل حميره وساقها إلى الضيعة .

وبكى القروى من آلامه بكاء مراً فلم يتركه ، تحوتى نخت ، وشأنه بل نهره وأمره بالسكون لأنه على مقربة من معبد ، رب السكون ، (أى أوزوريس) فصاح القروى : ، إنك ضربتنى وسرقت متاعى وتأبى إلا أن تأخذ أيضا الشكوى من فمى !! يا رب السكون ، رد إلى بضاعتى حتى لا أصيح .. ، . وظل القروى المسكين عشرة أيام كاملة يستسمح ويستجدى ظالمه دون جدوى ، فلما يئس منه سار فى طريقه ليشكو إلى رنسى نفسه فى العاصمة . ورآه عندما كان يهم بالخروج من باب بيته لينزل إلى سفينة ليعقد فيها جلسة للمحكمة فقال له ، هل لى أن أرفع إليك أمرا ؟ أرجوك أن ترسل لى تابعك الذى تثق فيه حتى يصل إليك عن طريقه ما أريد قوله ، فأرسل رنسى إليه تابعه فشرح القروى له القصة بحذافيرها . وعند ذلك رفع رنسى قضية ضد ، تحوتى نخت ، أمام القضاة الذين كانوا معه . فما كان من القضاة إلا أن قالوا إن

هذا القروى لابد أن يكون أحد فلاحي تحوتى نخت الذين تركوا العمل عنده وذهب ليعمل عند الآخرين ، وأن ما حدث له هو ما يستحقه أى قروى يفعل ما فعله ، وقالوا : أعلى مثل ذلك يعاقب تحوتى نخت بسبب كمية تافهة من النطرون شيء قليل من الملح ؟ اصدر إليه أمرك بأن يعوضه عنها وسيفعل ذلك ، ولكن رنسى لزم الصمت فلم يرد على القضاة ولم يرد على القروى .

وجاء القروى مرة ثانية ليشكو وصاح مخاطبا رنسى ومذكرا لهم باليوم الآخر ويطلب منه أن يقيم العدل حتى ينال العدن بعد موته ، ويقول له : إنك أبو اليتيم ، وزوج الأرملة ، وزوج المرأة المهجورة ، ودثار من لا أم له » . وذهب رنسى إلى الملك نبكاورورع (آخر ملوك الأسرة العاشرة وكان يسمى أختوى أيضا) وقال له : سيدى : لقد وجدت واحدا من هؤلاء القرويين ، فصيحا بحق ، لقد تعدى عليه أحد رجالى وسرق ما معه وجاء إلى يشكو من ذلك ، فنصحه الملك بأن يجعل ذلك القروى يطيل إقامته ليستمر فى الشكوى ، وأمره أن يكتب كل ما يقوله وفى الوقت ذاته يعنى بأمر زوجته وأطفاله فيرسل إليهم ما عساه يكفى لقوتهم ، وأن يعنى أيضا بأمر القروى نفسه فيرسل إليه الطعام دون أن يعرف أنه هو الذى أمر بترتيبه له . فرتبوا له فى كل يوم أربعة أرغفة من الخبز وإناء من الجعة . وجاء القروى مرة أخرى وكان فى كل مرة يلقى شكواه بأسلوب فصيح يملؤه بالاستعارات والتشبيهات حتى بلغت شكاواه تسعا ، أبدع فيها كاتب القصة ، وكلها تدور حول العدل ومسئولية الحاكم عن الدفاع عن المظلوم ومساوىء الطمع والتكبر على الناس ، وفى آخر شكواه التاسعة يئس القروى وصمم على قتل نفسه فختمها بقوله : أنظر ! إنى أشكو إليك ولكنك لم تسمع فهل تريد منى أن أذهب وأشكوك إلى (إله الموتى) أنوبيس ؟ » وترك القروى مكانه وسار فى طريقه فأرسل رنسى وراءه إثنين فأعاداه . وظن المسكين أنهم سيعاقبونه على ما بدر منه ، فلما وقعت عيناه على رنسى إبتدره قائلا : « إنى تواق إلى الموت كما يتوق الظمآن عندما يقترب من الماء ، وكما يتوق الرضيع إلى لبن (أمه) » ، ولكن رنسى رد عليه قائلا : « لا تخف أيها القروى ، انظر ! إنك ستقيم معى » ولكن يأس القروى كان قد بلغ نهايته : « لن آكل خبزك أو أشرب من جعتك ما حييت » . ولكن رئيس البيت الملكى قال له : تعال من هنا حتى تستمع إلى ما قلته من شكاو » وأمر أن تقرأ له بردية سطرت عليها ، ثم أرسلها رنسى بعد ذلك إلى الملك ، وقال الملك لرئيس بيته أن يتولى هو الحكم فى القضية فأرسل إثنين من الشرطة لإحضار تحوتى نخت ، وأرضى القروى إذ عوضه عن كل ما فقده كما انتقم له ممن ظلمه دون وجه حق فأعطاه كل ما كان يمتلكه تحوتى نخت .

أى أن القضية نفسها إنتهت بما كانت تدعو إليه الشكوى وهو حماية الفقير من الغنى وأن يكون الحاكم سياجا يحمى الضعيف من عسف القوى وألا يعتقد الموظفون أو الذين ينتمون إلى ذوى النفوذ من بين الحكام أنهم يستطيعون أن يظلموا القرويين المساكين دون أن تنالهم يد العدالة .

لقد رأينا الملك أختوى الرابع يوصى إبنه الملك مريكارع أن يتعلم حسن الحديث وإجادة التعبير عن آرائه ، وبعبارة أخرى يمتدح الفصاحة وعدم السكوت عن الظلم ، ونرى فى هذه القصة تطبيقا لذلك المبدأ وهو الإعلاء من شأن الفصاحة وضرورة السعى وراء الحق ، وهى تصور لنا أيضا أمرا آخر ، وهو ظلم صغار الموظفين للفقراء من الناس بينما يعنى كبارهم برد الحق إلى أصحابه متى وصل ذلك إلى سمعهم ، لأنهم هم المسئولون عن ذلك . ونرى فيها أيضا بوضوح أمر الخوف من عقاب الذى لا تخفى عليه خافية إذ طالما ذكر القروى رئيس البيت الملكى بأنه هو المسئول عن نكبته ، وأنه سيقف يوما أمام الملك ليجيب عن ظلمه له ، لأنه لم يستمع إلى شكواه ولم ينصفه من تابعه .

لم نعرف لمثل هذه الشكوى وجودا فى الدولة القديمة ، وهى مثل غيرها من آداب ذلك العصر نتيجة لما نشأ فى مصر من وعى إجتماعى بعد تلك الثورة التى قام بها الشعب فى أعقاب الأسرة السادسة ، ولقى هذا النوع من الأدب وتلك الآراء قبولا من الناس فى الدولة الوسطى وخاصة فى أوائل أيام الأسرة الثانية عشرة ، ولكن ما جاءت الدولة الحديثة حتى تغيرت الأمور وأصبح للمصريين مثل عليا مختلفة .

أهم آثار عصر الفترة الأولى :

أهم آثار ذلك العصر هى دون ريب تلك البرديات الأدبية التى نرى فيها صدى لما طرأ على الحياة الإجتماعية من تغيير ، وما ظهر من آراء جديدة مهمة . ويليها فى الأهمية المراسيم التى كان يصدرها الملوك ثم ما وصل إلى أيدينا بعد ذلك من آثار سواء من أطلال أهرام أو مقابر ذلك العصر ، أو ما وصل إلى أيدى العلماء من أشياء أخرى .

ولم يعثر على أى أثر لمقابر ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة فى إهناسيا حتى الآن ، ولكن عثر على ما يكفى للترجيح بأن منف ظلت العاصمة الإدارية للبلاد ولم تكن إهناسيا غير مقر الملك كما أن ملوكها ورجال بلاطهم إستمروا على التقليد القديم ، وكان الكثيرون منهم يدفنون فى جبانة منف وعثر على آثار لبعضهم حول هرم تيتى فى الجزء الشمالى من الجبانة وحول هرم ببى الثانى فى سقارة الجنوبية .

وعثر أيضا على الكثير من النقوش التى بقيت من جدران بعض مقابر ذلك العصر فى سقارة كما عثر أيضا على لوحات جنازية لبعض الأفراد كانت فى مقابرهم التى شيدت هياكلها من الطوب اللبن أما القبر فكان تحت الهيكل وغالبا ما يكون على شكل حجرة صغيرة (شكل رقم ١٠ وشكل رقم ١١) من الحجر – وذلك للقادرين من الأغنياء – تلون جدرانها ويوضع فيها صاحب القبر داخل تابوت من الخشب محلاة جوانبه بالكتابة أو الرسوم ، وقد عثر على مئات من هذه التوابيت فى جميع أرجاء مصر وبخاصة فى مصر الوسطى وهى من أهم مصادرنا لدراسة ذلك العصر سواء من الناحية الدينية أو من الناحية الاجتماعية ، وذلك لرسم كثير من الأدوات على جوانبها بدلا من وضعها فى القبر [١] . ومن بين العادات الجنازية فى تلك الفترة الإكثار من وضع نماذج خشبية للخدم أو الجنود أو العمال وهم يؤدون أعمالهم المختلفة .

واستمر أمراء الأقاليم يدفنون على مقربة من بلادهم ، ولهذا نجد كثيرا من مقابر ذلك العصر منحوتة فى الصخر فى مصر الوسطى والصعيد ، أما الفقراء فكانوا يدفنون فى السفح تحت مقابر الحكام . وتقتصر المقابر غالبا على حجرة صغيرة تقطع فى الطبقة المتماسكة من الأرض أو تبطن بأحجار أو طوب ، ويوضع فى وسطها تابوت أو أكثر من الخشب وفوقه أو بجواره بعض النماذج الخشبية ، وأهم مقابر الأقاليم نجدها بين مقابر زاوية الأموات وبنى حسن والبرشا وأسيوط ودير الجبراوى والهجارسة وأخميم ودندرة والمعلا وأسوان .

ومن بين الأشياء المهمة التى تقرن بذلك العصر ظهور الجعارين وكان الجزء العلوى منها غير مقتصر على رسم الجعر فقط بل كان أيضا على هيئة حيوانات مختلفة ويكتب فى أسفله على الجزء المسطح ما يشاؤون أو يكتفون برسم هندسى أو زخرفى .

وإذا درسنا لوحات القبور التى يرجع تاريخها إلى هذا العصر نرى فيها أيضا أثر التطور الإجتماعى الذى رأيناه جلياً فى البرديات . فلم يعد الأفراد يقتصرون على ذكر الملك والآلهة وتقديم القرابين لهم بل نراهم يفخرون بأنفسهم وبأعمالهم ، ويتحدث كل منهم عن نفسه بأنه كان محبوباً من أهله ومن غيرهم من الناس وأنه كان بعيدا عن الدنايا ، عونا للفقير محبا للرزق الحلال مجدا فى عمله حائزاً على رضاء الناس .

لم تقتصر تلك الصيغ على لوحات القبور التى عثر عليها فى جبانة منف بل كانت شائعة جداً فى الأقاليم ، وقد عثر على مئات منها فى جبانات الصعيد ، وعلى أكثرها صيغ تمجد قيمة الفرد وفضائله الشخصية التى ساعدته على التقدم فى مضمار الحياة .

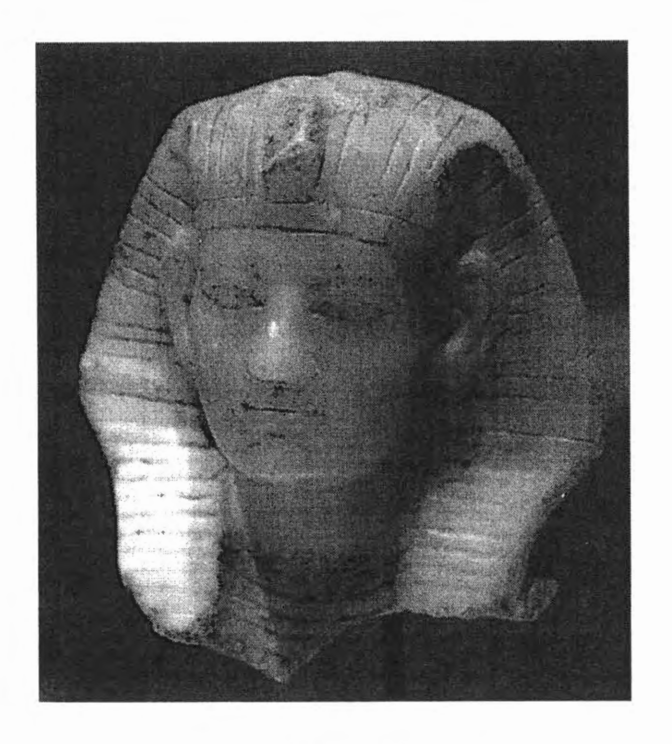
ويجب ألا يغيب عن ذهننا مـا أشـرنا إليـه من قبل وهو أنه أثناء حكم ملوك الأسرة العاشرة فى إهناسيا كانت هناك بيوت قوية فى مصر الوسطى وبخاصة فى أسيوط وفى جرجا وفى طيبة ، وأن رؤساء تلك البيوت خلفوا وراءهم أثاراً ، وسنتحدث عنهـا فيمـا بعـد عندمـا نصل إلى الفصل القـادم ؛ لأن حكام طيبـة هم أصل الأسـرة الحادية عشرة التى تبدأ بها الدولة الوسطى .

الفصل الخامس

الدولة الوسطى

الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة (٢١٣٤ ـ ١٧٧٨ ق.م.)

- الأسرة الحادية عشرة (٢١٣٤- ١٩٩١ ق.م.)
- الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ ـ ١٧٧٨ ق.م.)



امنمحات الثالث

الـــدولـــة الوســـطى

الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة

(٢١٣٤ – ١٩٩١ ، ١٩٩١ – ١٧٧٨ قبل الميلاد)

****

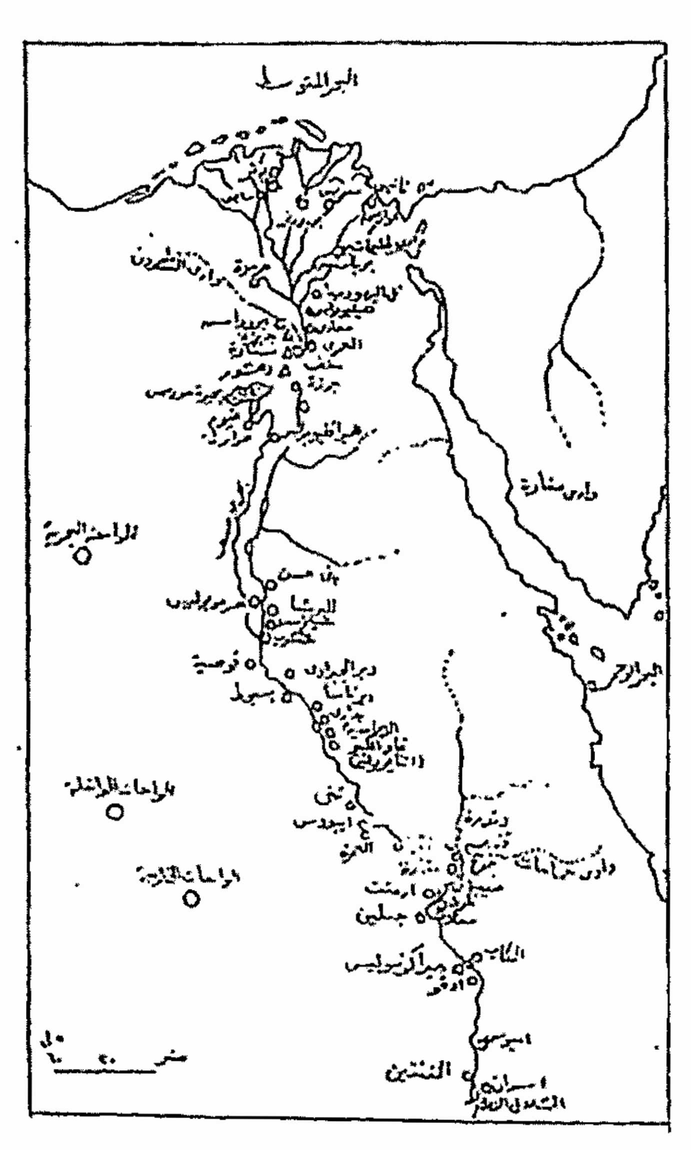
الأسرة الحادية عشرة

نشأة حكام طيبة وتأسيس الأسرة :

نشأ فى طيبة منذ أيام الأسرة السادسة بيت حاكم ، كما حدث فى أكثر الأقاليم عندما ضعفت الحكومة المركزية فى منف ، وقطع بعض أولئك الحكام مقابرهم فى صخور تلال جبانة طيبة فى البر الغربى من النيل حيث يوجد عدد قليل منها بين مقابر العصور الأخرى .

ولسنا نعرف كثيراً عن أولئك الحكام أثناء الفترة التى تلت الأسرة السادسة ، ولكن لا يخامرنا شك فى وجود بيت و حد قوى أو أكثر من بيت فى هذه المنطقة الغنية ، وأن هذا البيت كان يعيش تارة فى سلام ، ويتنازع على السيادة تارة أخرى مع جيرانه فى أرمنت فى الجنوب وقفط فى الشمال ، حتى انتهت أيام الأسرات السابعة والثامنة فى منف . ثم نشأت بعد ذلك الأسرة التاسعة فى إهناسيا . ولكن عندما تغيرت الأمور وانتقل الحكم إلى ما نسميه الأسرة العاشرة فى إهناسيا أحس بيت طيبة بأنه لا يقل فى أحقيته للملك عن ملوك الشمال فأعلنوا عدم طاعتهم لإهناسيا ، وكونوا منهم ومن جيرانهم الأقربين إتحاداً فى الجنوب ، أى أن الأسرة الحادية عشرة فى الجنوب تبدأ فى الحقيقة منذ بدء الأسرة العاشرة فى الشمال ، لكن هؤلاء الجنوبيين احتاجوا إلى وقت طويل يزيد عن ثمانين عاما حتى أصبحوا يحكمون البلاد كلها دون منازع ، وأصبح الملك منتوحوتپ الثانى ملك مصر كلها ووحد البلاد لتبدأ فترة جديدة فى تاريخها .

ومؤسس هـــذا البيـــت الذى سمى بإسم الأسرة الحادية عشرة فيما بعد ، يسمى إنيوتف ، (يكتبه أحيانا بعض الأثريين أنتف) ، ولا نعرف عنه أكثر من أنه كان



مصر في عصر الدولة القديمة والدولة الوسطى

مؤسس هذا البيت وأن أمه تسمى « إكو » وأن أهل طيبة فيما تلا ذلك من الأيام كانوا ينظرون إليه نظرة تقديس خاصة ، وكانوا يلتمسون بركته [1] .

وورد اسم هذا الشخص أيضاً في لوحة الأجداد التي أقامها تحوتمس الثالث في الكرنك كأول حاكم للأسرة الحادية عشرة ، ولكنهم لم يكتبوا إسمه في خانة ملكية بل إكتفوا بأنهم كتبوا ألقابه « الحاكم والأمير الوراثي إنيوتف المبجل » [2] . لم يدع إنيوتف الملك منذ البداية بل ظل على إستقلاله الذاتي بإقليمه ولم يقطع صلته بملوك الشمال إذ ذكر على لوحته الشهيرة التي عثر عليها ماربيت في القرن الماضي وتوجد الآن في متحف القاهرة أنه الحاكم ، الأمير الوراثي ، والسيد العظيم لإقليم طيبة الذي حاز على رضاء الملك كحارس لباب الجنوب ، العماد العظيم لمن يحيي الأرضين (يشير طبعاً إلى الملك) ، الكاهن الأكبر .. إنيوتف .

وفي وقت من الأوقات في أواخر أيام حكمه ، كتب إنيوتف هذا – وكان يسمى أيضاً « سهر تاوي » أو مهدىء الأرضين – إسمه في خانة ملكية وأصبح معروفاً لنا بإسم إنيوتف الأول ، وأحاط نفسه برجال البلاط ، ودفن في قبر كبير أمامه صف من الأعمدة المقطوعة في الصخر ، وكان هناك هرم من الطوب فوق قبره في جهة الطارف ، وهي المنطقة الشمالية من جبانة طيبة .

إنيوتف الثاني (٢١٣١ – ٢٠٨٢) :

وتلاه إنيوتف الثاني المسمى « واح عنخ » وقد حكم نحو خمين عاماً (من حوالي ٢١٣٠ – ٢٠٨١) على الأقاليم الخمسة الجنوبية في الصعيد ، وبدأ في عهده التوسع نحو للشمالي ، وبدأ الطيبيون في مهاجمة الإقليم السادس ، وهو إقليم ثيني حيث توجد جبانة أبيدوس ، ولكن الإهناسيين ظلوا على قوتهم خصوصا وأن أمراء أسيوط الأقوياء كانوا حلفاء لهم .

كان إنيوتف الثاني معاصراً لإختوي (أو « خيتي ») أمير أسيوط ، وفي مقبرة هذا الأخير نقرأ بعض إشارات عن جمع الجنود وإعداد الرماة والتفاخر بالأسطول

ولكنه لا يذكر وقائع حربية صريحة بينه وبين الطيبيين ، ويفتخر أختوى أمير أسيوط فى مقبرته بأن الملك (أى ملك إهناسيا) عينه حاكما وهو ما زال فى طفولته وأنه تعلم السباحة مع أبناء الملك .

ولكن الأمور لم تكن على هذه الصورة من الهدوء والإطمئنان الذى نراه فى نقوش أختوى فى أسيوط ، فإنا نعلم أن غيره من الأمراء فى الشمال مثل أمراء بنى حسن وأمراء البرشا أخذوا بدورهم يعلنون إستقلالهم ويؤرخـــون الحوادث بتاريخ حكمهم ، وبعبارة أخرى أخذ زمام الأمور يفلت من أيدى ملوك إهناسيا .

ومن نقوش مقبرة « تف إب » إبن أختوى الذى تلاه فى حكم أسيوط نقرأ شيئاً عن حروبه مع الطيبيين فى ثنيى ، إذ يتحدث عن معاركه مع أعداء الملك ويقول عن زعيم الطيبيين إنه وقع فى الماء وأن سفنه تفرقت وإستطاع أن يملى عليه ما يريد . ولكن رغم هذا التفاخر بنفسه وبقوة جنوده فإن الحقيقة كانت إنتصار طيبة وضم إقليم ثنيى إليها فأصبح تحت حكم إنيوتف الثانى ستة أقاليم من الصعيد ، وأصبح الحد الشمالى لملك الطيبيين عند مدينة كوم اشقاو (افروديتوپوليس) كما نعرف ذلك من عدة مصادر أخرى وهى لوحات بعض موظفى إنيوتيف التى عثر عليها فى طيبة .

كان إنيوتف الثانى من الحكام الأقوياء ، وقد أحسن إدارة الأقاليم الستة وبدأ فى تشييد بعض المعابد وبخاصة للإله « مونتو » ورمم الهياكل والمعابد التى كانت للآلهة الأخرى فى تلك الأقاليم ، وبنى لنفسه قبرا كبيرا كان يعلوه هرم من الطوب ، وأمام هذا الهرم أقام لوحة .

ولقبـــر هذا الملك ولوحتـــه قصـــة طريفـة ، جاء ذكرهـــا فى برديـــة أبوب (Abbot Papyrus) التى نعرف منها تفاصيل سرقات مقابر الملوك فى الأسرة العشرين ، إذ زارت لجنة التحقيق هذا المكان وأشارت إلى تلك اللوحة بأنها كانت فى مكانها أمام الهرم وأن « رسم الملك على هذه اللوحة وكلبه المسمى (بحك) بين قدميه » ويزيد التقرير بأنهم فحصوا القبر فى ذلك اليوم ووجدوه سليما لم يسرق . وعثر ماريت فى عام ١٨٦٠ على هذه اللوحة وتركها فى مكانها ثم عثر عليها رجال الآثار مرة أخرى فى عام ١٨٨٢ ، ورغم تحطيمها فإن أجزاءها جمعت إلى بعضها وهى الآن فى المتحف المصرى ، ونرى عليها « إنيوتف » واقفاً ومعه خمسة من كلابه سماها بأسماء ليبية وكتب إلى جانب ثلاثة منها معانيها باللغة المصرية . ومن المعتقد أن هذه اللوحة لم تكن قائمة وحدها عند قاعدة الهرم بل كانت هناك لوحات صغيرة مختلفة بأسماء الموظفين المقربين إليه عثر على بعض منها فى المكان نفسه أثناء حفائر ماريت (Mariette) ثم حفائر ماسبرو (Maspero) ودارسى (Daressy) بعد

ذلك ، وتسرب أكثرها إلى المتاحف الأوروبية والأمريكية .

إنيوتف الثالث (٢٠٨٢ - ٢٠٧٩) :

ومات بعد أن حكم خمسين سنة فتبعه إبنه ، نب تپى نفر ، على العرش ، ويسمى أيضاً إنيوتف ، وكان متقدما فى العمر فلم يبق فى الحكم إلا سنوات قليلة ، ولم يبق من عهده إلا القليل وأهمه لوحة أحد موظفيه المسمى ، مججى ، [١] .

منتوحوتب الأول (٢٠٧٩ - ٢٠٦١) :

وتلاه على العرش ابنه ، منتوحوتب ، المسمى ، سعنخ إب تاوى ، ، وفى عهده أراد ملوك إهناسيا أن يسترجعوا ما فقدوه فحدثت بينهم وبين طيبة تلك الحرب التى عاد فيها إقليم ثينى (أبيدوس) إلى الشماليين وكان ذلك فى عهد الملك أختوى الرابع من ملوك إهناسيا كما أشرنا . وربما كان إبنه الأمير ، هرو نفر ، قد مات وهو يحارب دفاعا عن أبيدوس .

ولسنا نعرف عن هذا الملك شيئاً آخر ذا أهمية اللهم إلا أنه وضع تصميما لقبر يزيد فى حجمه عن قبور كل من سبقه من الملوك ولكنه مات بعد أن حكم ثمانية عشر عاما وترك قبره دون أن يتمه ، وخلفه على العرش إبنه منتوحوتب الثانى .

منتوحوتب الثانى (٢٠٦١ - ٢٠١٠) :

كان منتوحوتب الثانى أقوى وأهم ملوك هذا البيت . لم يسترجع إقليم أبيدوس فحسب ، بل اندفع نحو الشمال حتى سقطت إهناسيا نفسها فى العام التاسع من حكمه وكان أول ملك من ملوك طيبة يصبح حقيقة ملكاً على الوجه القبلى والوجه البحرى ، وكان ذلك حوالى عام ٢٠٥٢ ق.م. ولهذا يرى بعض المؤرخين إعتبار من سبقه من ملوك هذه الأسرة والتسعة أعوام الأولى من حكمه وقتاً معاصراً للأسرة العاشرة وأن الأسرة الحادية عشرة تبدأ من هذا التاريخ فقط ، ولكن الإنصاف فى البحث يحتم علينا إعتبار أيام الأسرة الحادية عشرة منذ عهد إنيوتف الأكبر أى قبل ذلك بإثنين وثمانين عاماً ، إذا لم ينس الطيبيون كما ذكرنا ذكرى مؤسس هذا البيت فالهموه وذكروه دائماً على آثارهم وفى وثائقهم وكانوا يقدمون له القرابين .

بذل منتوحوتب كثيراً من الجهد لإخضاع كل معارضة قامت فى طريقه . ولا

شك أنه حارب فى الدلتا وحارب البدو فى الشرق والغرب كما أخضع المنطقة جنوبى الفنتين ، ولكنه ترك الأمراء القدماء يحكمون أقاليمهم واكتفى منهم بالطاعة والجزية وحسن الولاء .

كان إسمه عند توليه العرش : حورس نترى حزت ، ولكنه بعد العام التاسع عندما تغيرت الأوضاع وأصبح ملك مصر كلها دون منازع ، غير لقبه إلى « سما تاوى » أى موحد الأرضين وأصبح إسمه الآخر « نب حيت رع » وهذا هو الإسم الذى أصبح معروفاً به فيما بعد على جميع ما خلفه من آثار ، وهو الإسم الذى نراه فى معبد الرمسيوم بين إسمى « منا » مؤسس الأسرة الأولى و « أحمس » مؤسس الأسرة الثامنة عشرة ، أى أن هؤلاء الملوك الثلاثة كانوا فى نظر المصريين أنفسهم ، فى الأسرة التاسعة عشرة ، هم مؤسسو الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة .

بدأت طيبة عهداً جديداً فى تاريخها ، وأخذت ضرائب البلاد كلها تتدفق على خزائنها ولم يدخر منتوحوتب وسعاً فى تجميل عاصمته وإنشاء المعابد المختلفة فيها وفى غيرها من البلاد . وقد رأينا منذ عهد أسلافه أن الفن الذى كان قد تأخر وانحط ، أخذ يعود إليه شيئاً فشيئاً بعض روائه القديم ، ولكنه ظل متأثراً بالفن المحلى فى بعض نواحيه . وقبل أن نتحدث عن منتوحوتب وطيبة فى عهدها الجديد يحسن بنا أن نقف قليلا لذكر أهم ما نعرفه عن تلك الفترة . فقد أخذ ذلك الملك يوجه عنايته لتشييد المبانى ولا عجب إذاكان الفنانون قد أخذوا يستردون بعض ما كان لهم من مهارة فى الدولة القديمة .

وأخذت تعود للفن بعض مظاهر رقيه وها هو المثال « إرتى سن » نراه مرسوما مع زوجته وأبنائه على إحدى اللوحات ، ويفتخر بأنه كان يعرف كيف يرسم حركات التقدم والتأخر ، وكذلك حركات رسم الرجل وجسد المرأة ، وكيفية رفع الذراع عند صيد فرس البحر ، وحركات الشخص الجارى وأنه لم يكن هناك من ينجح فى عمل ذلك غيره هو وإبنه الأكبر (١) .

وكان بين أعمال منتوحوتب الثانى التى بدأها فى وقت مبكر من حياته إختيارمكان مدفنه ومعبده ، وقد عثرت بعثة متحف المتربوليتان على جثث ما يقرب من ستين جنديا ربما كانوا قد سقطوا عند مهاجمة هراقليوبوليس (إهناسيا) ونقلوا جثثـــهم إلى طيبة ليدفنوهم على مقربة من ملكهم الذى حاربوا معه .

كان انتصار منتوحوتب الثانى على أعدائه وتوحيد مصر كلها تحت سلطانه بداية عصر جديد . وأخذت مصر تنهض من كبوتها شيئاً فشيئاً وأخذ منتوحوتب يرسل الحملات إلى مناطق المناجم للعمل فيها ، كما أنه لم يهمل فى نشر الطمأنينة على الحدود فبعث بحملة وراء أخرى لإخضاع كل من حدثته نفسه بالبقاء بعيداً عن حظيرة وحدة البلاد .

واختار منتوحوتب الثانى المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم الدير البحرى ليشيد فيها معبده الجنازى ويحفر فيها قبره . ومنذ البداية أراد مهندسوه أن يجعلوا من مجموعته الجنازية ما يناسب عظمته ، ولو إنهم استوحوا كثيراً من تفاصيله المعمارية من مقابر أسلافه فى منطقة الطارف التى تبعد كيلو مترين إلى الشمال من الدير البحرى.

وفى العام التاسع والثلاثين من حكمه أى بعد ثلاثين سنة من إستيلائه على إهناسيا إحتفل بعيده الثلاثينى ، الحب (عيد) سد ، وغير لهذه المناسبة فى بناء معبده الجنازى ، كما أقام بعض التماثيل التى تمثله فى صورة الإله أوزيريس فى ذلك المعبد. وفى العام نفسه نرى منتوحوتب يقوم برحلة نيلية إلى الجنوب بصحبة عدد كبير من أفراد عائلته ورجال حاشيته ، ووصلوا فى تلك الرحلة إلى ما بعد جبل السلسلة التى كانوا يعتبرونها آخر حدود مصر الجنوبية وبداية إقليم النوبة ، وبقى فى ذلك المكان فترة من الوقت عند مكان يقال له شط الرجال وكان التفسير السائد لهذه الرحلة والنقوش والرسوم التى نقشت على الصخر أن منتوحوتب أتى لينتظر إبنه الأكبر الذى كان يسمى إنيوتف ، ومن المحتمل أنه كان على رأس حملة إلى بلاد النوبة .

وقيل أيضاً من الجائز أن يكون منتوحوتب قد أعلن إبنه ولياً للعهد وربما أيضاً شريكاً فى الملك بهذه المناسبة ، لأننا نرى إسمه مكتوباً فى النقش الكبير الذى نرى فيه اسم منتوحوتب وأسماء عائلته وبخاصة أمه وزوجاته ورجال بلاطه ، نقرأ إنيوتف ، الأب الإلهى ، محبوب الإله ، إبن الشمس إنيوتف الذى يعيش إلى الأبد ، وقد كتبوا إسمه فى خانة ملكية . ولكن إنيوتف هذا لم يعش طويلاً بعد ذلك ، ومات ودفن على مقربة من القبر الذى أعده له أبوه داخل حرم معبده الكبير فى طيبة . ولكن هذا التفسير وجد بعض المعارضة ويظن بعض المشتغلين بالتاريخ أن إنيوتف هذا لم يكن إبناً للملك بل كان أباه وأن منتوحوتب الثانى لم يكن إبناً لمنتوحوتب الأول بل حكم بينهما لفترة قصيرة جداً إنيوتف الذى خلد إبنه ذكراه فى شط الرجال .

وفى جهات مختلفة من مصر وبخاصة فى الصعيد ، فى الجبلين وفى الطود وفى دير البلاص وفى دندرة وفى أبيدوس وغيرها ، أقام هياكل جديدة وأصلح ما تهدم من مبانيها ، ولكن خير مبانيه جميعاً هو ما شيده فى طيبة ليكون مقراً أبدياً له بعد وفاته .

مقبرة منتوحوتب ومعبده الجنازى :

يرى زائر منطقة الدير البحرى أطلال معبد الأسرة الحادية عشرة إلى الجنوب من معبد حتشبسوت ، والواقع أن مهندسى الأسرة الثامنة عشرة كانوا متأثرين بمن سبقهم فى أوائل الدولة الوسطى ، ليس فى اختيار المكان فحسب ، بل وتأثروا أيضاً بعمارته وتشييده على نظام المدرجات . وإذا كانت أطلال معبد الدولة الحديثة أصبحت أكثر أهمية الآن لكثرة ما بقى من مبانيه ونقوشه الهامة ، فإن الذى يعنى بفحص كل من المعبدين سيدرك بلا شك أن معبد منتوحوتب عندما كان كاملاً كان أفخم وأجمل من معبد حتشبسوت .

شيد مهندسو منتوحوتب معبده على مرتفع أقاموا أمامه صفوفاً من الأعمدة ، وفوق ذلك المرتفع قام هرم تحيط به الأعمدة أيضاً ، وكان يوصل بين الردهة السفلى لذلك المعبد وبين معبد آخر على حافة الوادى طريق طويل بين جدران ، وعلى جانبى الطريق الموصل أقاموا تماثيلاً للملك منتوحوتب تمثله فى صورة المعبود أوزيريس .

فإذا ما وصل زائر المعبد الذى كان يأتى من الوادى ، ويصعد إلى آخر الطريق ويمر فى الباب الموصل إلى المعبد ، يرى نفسه يسير بين صفين من أشجار الجميزة وخلفهما من اليمين واليسار حديقتان غرز فى كل منهما عدد كبير من أشجار الأثل . ويسير بعد ذلك فى طريق صاعدا حتى يصل إلى الرصيف الذى أقيم عليه المعبد . فإذا أراد هذا الزائر أن يدور حول الهرم فإنه يرى هناك ١٤٠ عموداً على جوانبه وهى مثمنة الجوانب ، ثم يجد نفسه بعد ذلك فى ردهة مفتوحة للسماء تحيط بها الأعمدة فقط على جوانبها على هيئة بواكى . وفى وسط هذه الردهة فتحة تنزل إلى الصخر يليها دهليز طويل يقل قليلاً عن ١٥ متراً ، وكسيت جوانبه بالحجر الرملى الأرجوانى، وفى نهاية حجرة الدفن المشيدة من الجرانيت ، وفى وسطها تابوت من المرمر .

ولنترك الآن حجرة الدفن والتابوت ونعود أدراجنا لنستأنف وصف باقى المعبد. فعندما يصل الزائر إلى نهاية الردهة يجد فى آخرها من ناحية الجبل بهواً يحمل سقفه ثمانين عموداً مثمنة الجوانب وفى الجهة الغربية من ذلك البهو مذبح أمام هيكل

مقطوع فى الصخر كان فيه تمثال للملك ، وبعبارة أوضح لقد جمع هذا البناء بين قبر الملك ومعبده كما إحتفظ أيضاً بفكرة الهرم إذ أقيم هرم فى وسط المعبد ولكنه كان هرماً أصماً ولم يدفن فيه أحداً .

وكشفت الحفائر فى هذا المعبد عن حقائق مهمة تتعلق بتشييده ، إذ ثبت أن مشروع تشييده قد تغير عدة مرات بعضها أثناء العمل والبعض الآخر بعد الإنتهاء منه، وذلك بهدم بعض الأجزاء وإعادة بنائها على نظام آخر .

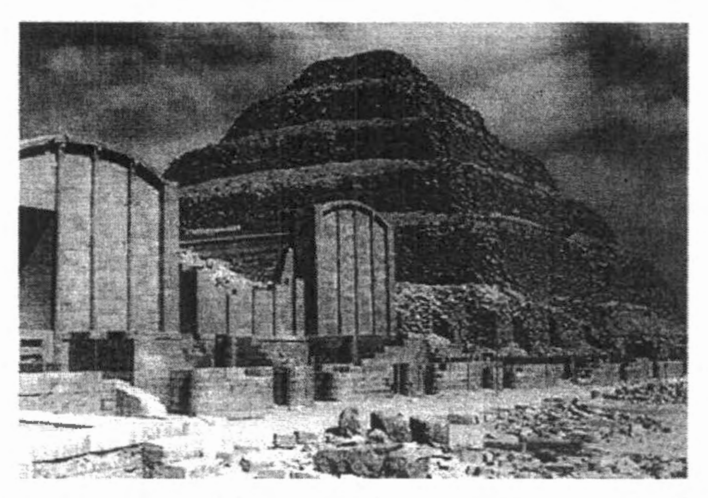
وقبل أن يشيدوا شيئاً ، مهد المهندسون أرضية المكان وحفروا إثنتى عشرة حفرة فى الأرض فى محور المعبد ، ووضعوا فى كل منها أرغفة خبز مخروطية الشكل ، ثم حفروا عند كل ركن من أركان ذلك الرصيف المتسع حفرة مربعة ووضعوا فيها القرابين المختلفة ووضعوا فوق تلك القرابين أربعة قوالب من الطين ، وضعوا فى ثلاثة منها قوالب صغيرة صنعت إحداها من الخشب والثانية من الحجر والثالثة من المعدن وهى المواد التى استخدمت فى تشييد المعبد إلى جانب الطوب اللبن، وعليها اسم الملك وألقابه . أما القرابين فقد وضعوها فى أوانٍ فخارية ، كما حوت هذه الحفر قطعا من اللحم ورأس ثور وفخذه وبعض قطع من ضلوعه وكثيراً من أرغفة العيش ، من مخروطية ومستديرة ، وبعض حبوب الشعير والفاكهة وبخاصة التين والعنب ، كما وضعوا بينها أيضاً أوان صغيرة رمزية فيها جعة ونبيذ سدوا فتحاتها بالطين . وتسمى محتويات أمثال هذه الحفر ودائع الأساس ، وكثيراً ما نجد أمثالها فى أركان المعابد وتحت بعض عتباتها أو أعمدتها ، ويجد فيها رجال الآثار أحياناً كثيراً من الجعارين والحلى وغيرها وعليها اسم الملك الذى شيد المعبد .

وعثر أثناء الحفائر على عدد كبير جداً من أجزاء الجدران المنقوشة وعليها رسوم ملونة تبين بوضوح تقدم الفن المصرى فى ذلك العهد كما عثروا أيضاً على كثير من أجزاء التماثيل وبعض التماثيل الكاملة ، وعلى قطع كثيرة من الأعمدة ، كما عثروا على قطعة من الحجر عليها رسم قديم خطه المهندس القديم بفرشاة يمثل التصميم الأصلى لجزء من المعبد وعليه رسم واضح للرصيف وأماكن الأشجار .

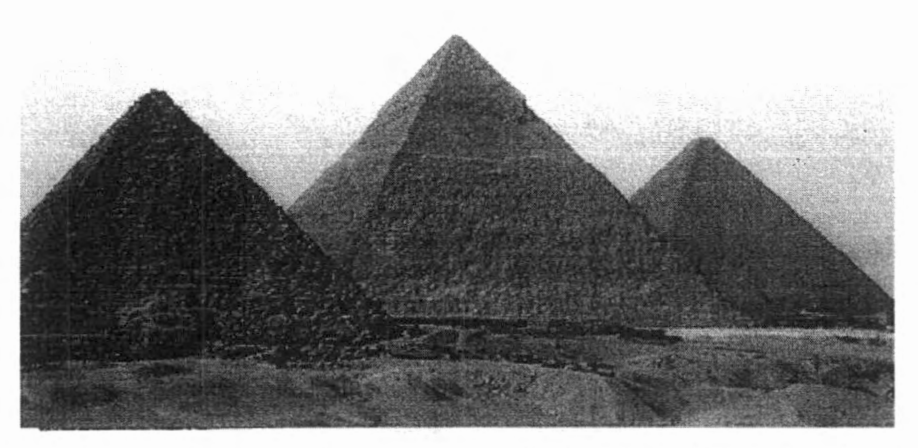
لم يكن هذا البناء وقفا على منتوحوتب الثانى وحده ، بل ضم أيضاً عددا كبيرا من مقابر أهله وبخاصة زوجاته ومحظياته ، ويبلغ عددهم أكثر من ثلاثين ، وأهمها مقابر أمه وزوجاته الملكات « نفرو » و « تم » وكذلك « عشاييت » ، و « كمسيت » ، و « كاويت » وغيرهن اللاتى عثر على توابيتهن الجميلة هناك ، وبعضها فى متحف القاهرة الآن والبعض الآخر فى نيويورك ، وكلها من الحجر الجيرى وعليها نقوش

جميلة . كان هؤلاء الزوجات مدفونات تحت أرضية المعبد وكان لكل منهن عند آخر البهو هيكل صغير لتمثالها وعليه اسمها وبعض ألقابها ، كما عثر في مقابرهن على بعض الحلى التى كن يتزين بها أثناء الحياة . ولم تقتصر المقابر على زوجات الملك فقط بل كان هناك أيضا بعض الوصيفات والتابعات بل والراقصات النوبيات .

وفى جبانة طيبة ، وبخاصة على جانبى الطريق الصاعد للمعبد ، وفى علوة عبد القرنة ، وفى المرتفع الذى يطل على الدير البحرى ، نرى مقابر كثيرة لموظفى ذلك العهد فقد حكم منتوحوتب الثانى واحداً وخمسين سنة تمتعت فيها البلاد بالرفاهية والاطمئنان ، وترك كثير من رجال بلاطه مقابرهم على مقربة من قبر سيدهم أمثال أختوى وحننو والوزير إيبى ، الذى عثرت بعثة متحف المتروبوليتان فى فنائه الخارجى على مجموعة من الرسائل التى كتبها أحد كهنة الروح لذلك الوزير ، وكان يسمى ، حقا نخت ، وعثروا أيضا على كل ما تبقى من مواد التحنيط وما كان معها من أوان وأدوات ، وضعها مخبأة فى مكان فى ذلك الفناء بعد تحنيط الوزير .



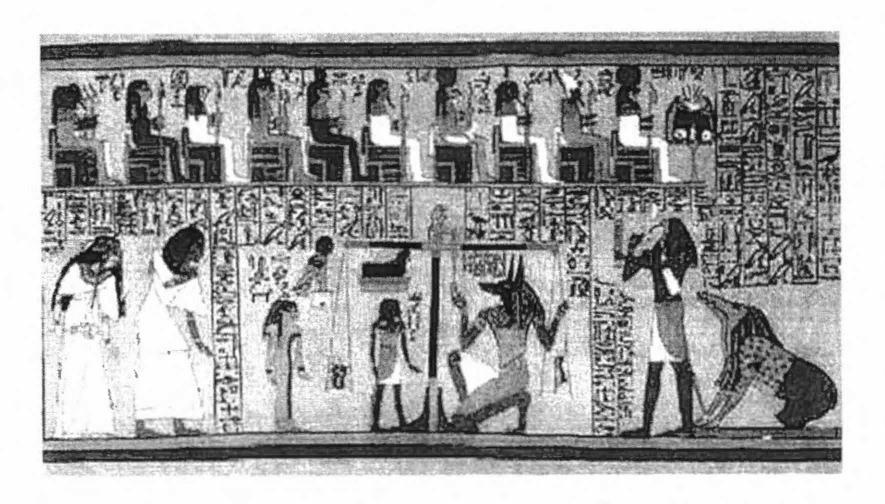
شكل رقم (١) : هرم سقارة المدرج والمبانى التى حوله كما كانت عند تشييدها - صورة لنموذج حديث الصنع .



شكل رقم (٢): أهرام الجيزة الثلاثة: من يمين الصورة إلى يسارها ، هرم خوفو (الهرم الأكبر)ثم هرم خفرع (الهرم الثانى) ثم هرم منكاورع (الهرم الثالث).



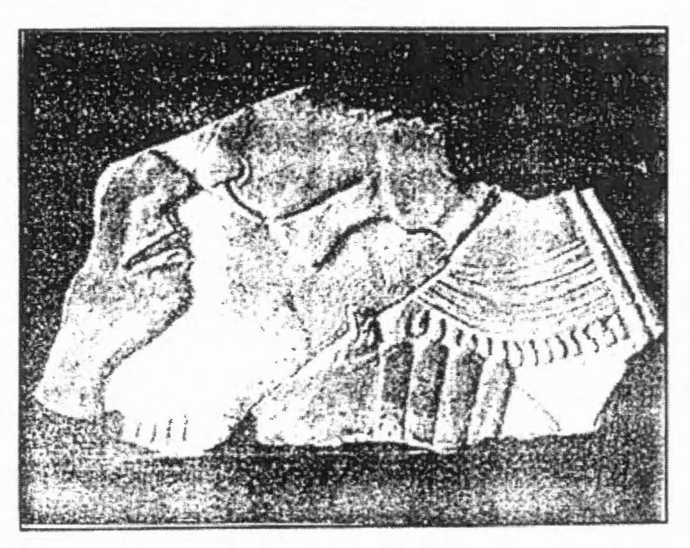
شكل رقم (١) : هذا النمط من الرقص يعود إلى الدولة القديمة



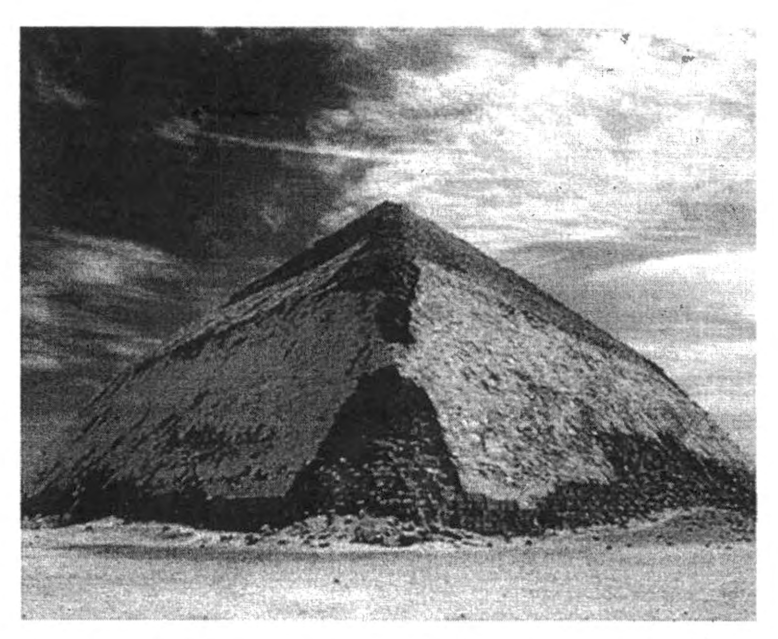
شكل رقم (٢): رحلة الجسد بعد الموت (التحنيط الفرعوني)



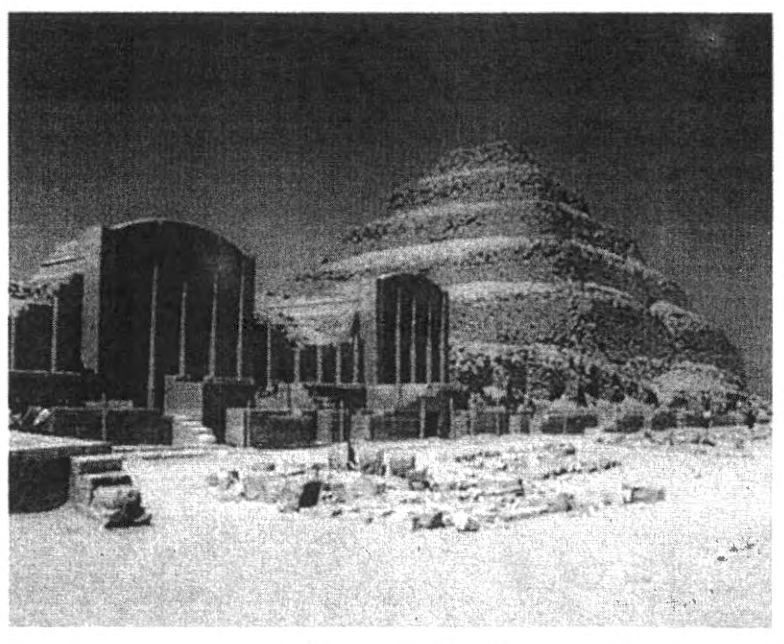
شكل رقم ٣
«سنفرو» مؤسس الأسرة الرابعة يرتدى ملابس عيد «السد» . من إحدى لوحاته التى عثر عليها فى حفائر دهشور عام ١٩٥١ .



شكل رقم ٤ : الإلهة «سخمت» تعانق «سنفرو» . جزء من أحد المناظر التى كانت فى معبد الوادى بدهشور ، مازالت محتفظة بما عليها من ألوان ؛ وتظهر لنا المستوى العظيم الذى وصل إليه فن النقش فى ذلك العهد المبكر فى الحضارة المصرية .



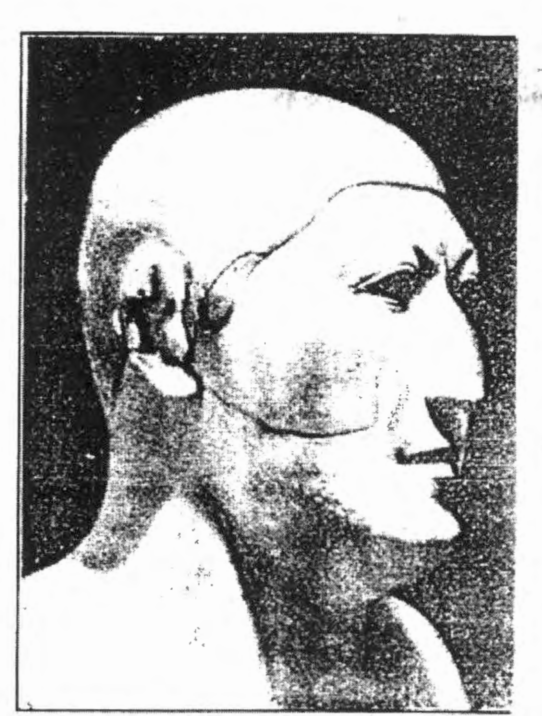
شكل رقم (٥) : الهرم الاحمر - هرم سنفرو - دهشور



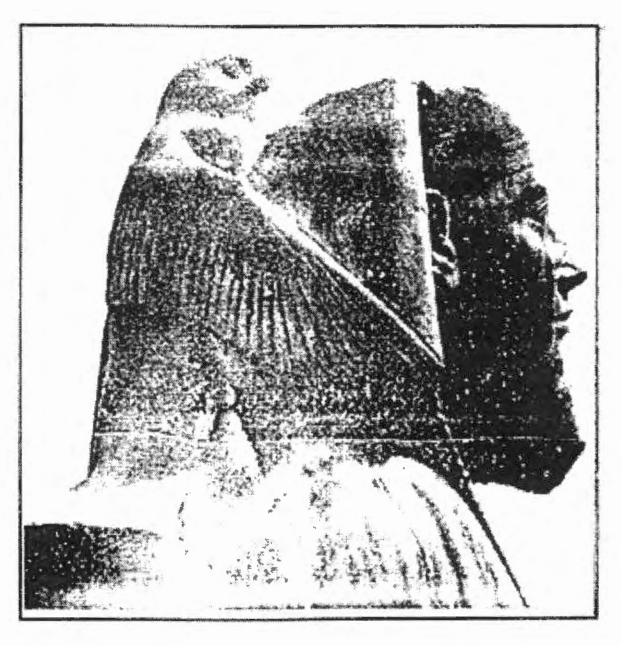
شكل رقم (٦): هرم زوسر - سقارة



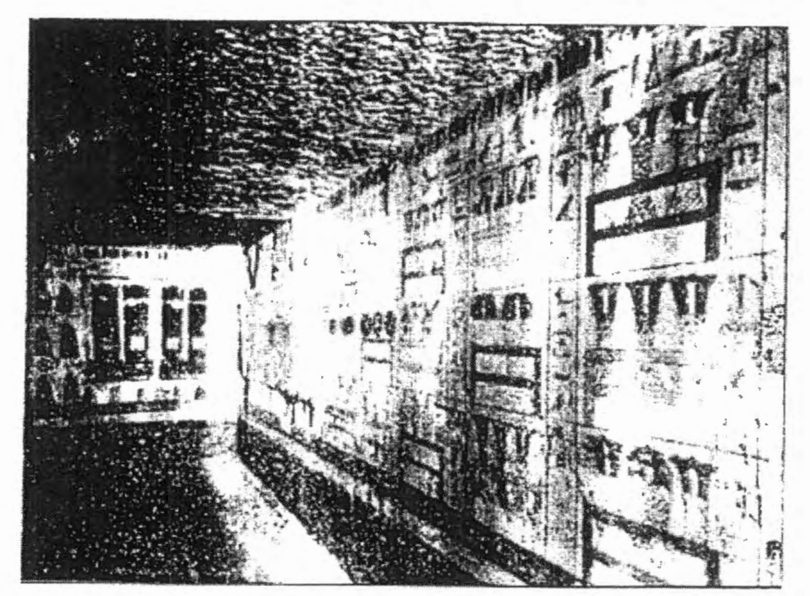
شكل رقم (٧) : السيدة «نفرت» زوجة الأمير «رع حتب» أحد أبناء الملك سنفرو ، وقد عثر على هذا التمثال مع تمثال آخر لزوجها فى قبرهما بميدوم، والتمثالان فى المتحف المصرى بالقاهرة .



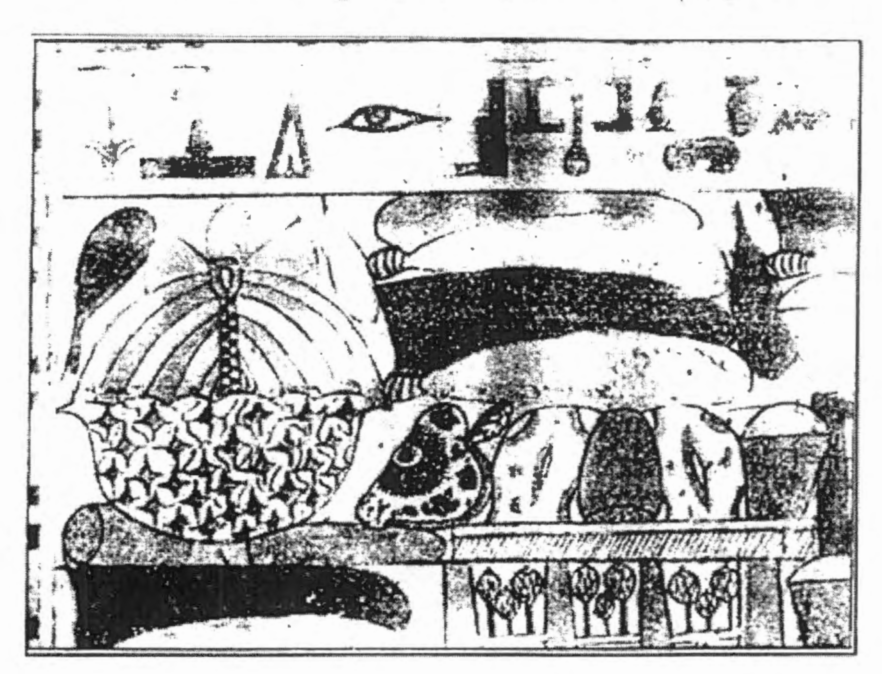
شكل رقم ٨
الجــزء الأعلى من تمثــال «حم إيون» أحد أبناء سنفرو ، عثر على قبره فى الجبانة الغربية للهرم الأكبر وتمثاله الآن فى متحف هيلدزهيم بألمانيا . وقد أشرف «حم إيون» على تشييد الهرم الأكبر فى فترة من فترات بنائه.



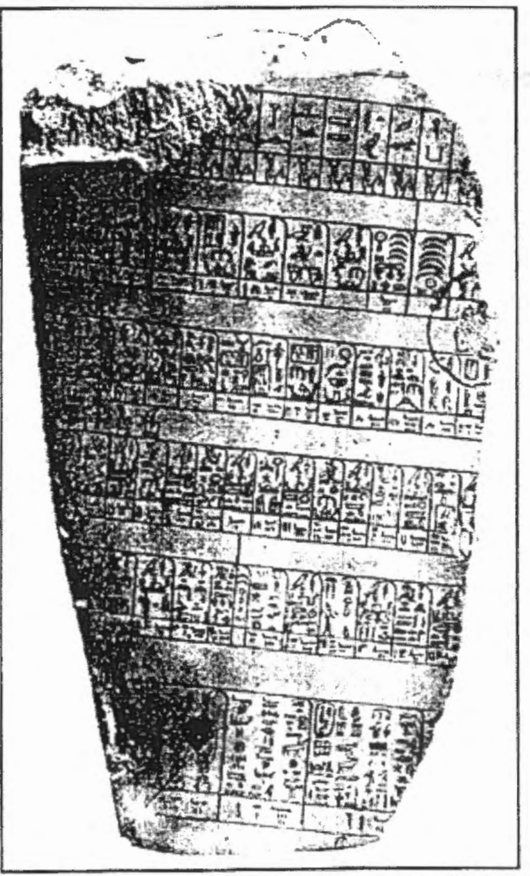
شكل رقم ٩
تمثال الملك خفرع من حجر الديوريت ، وخلف رأسه الإله حورس يحميه . ولا شك فى أن هذا التمثال ليس آية من آيات الفن المصرى فحسب بل هو من أعظم ما أخرجته عبقرية المثال فى جميع العصور والبلاد .



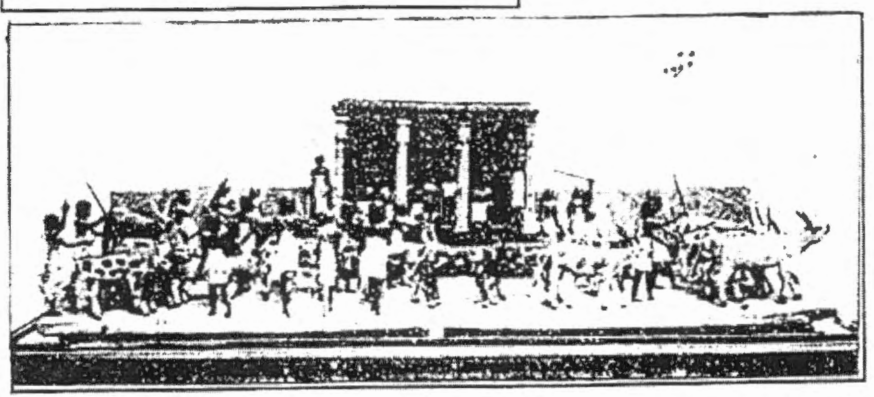
شكل رقم (١٠) : منظر فى مقبرة «بى عنخ» الملقب باسم «سشو» .



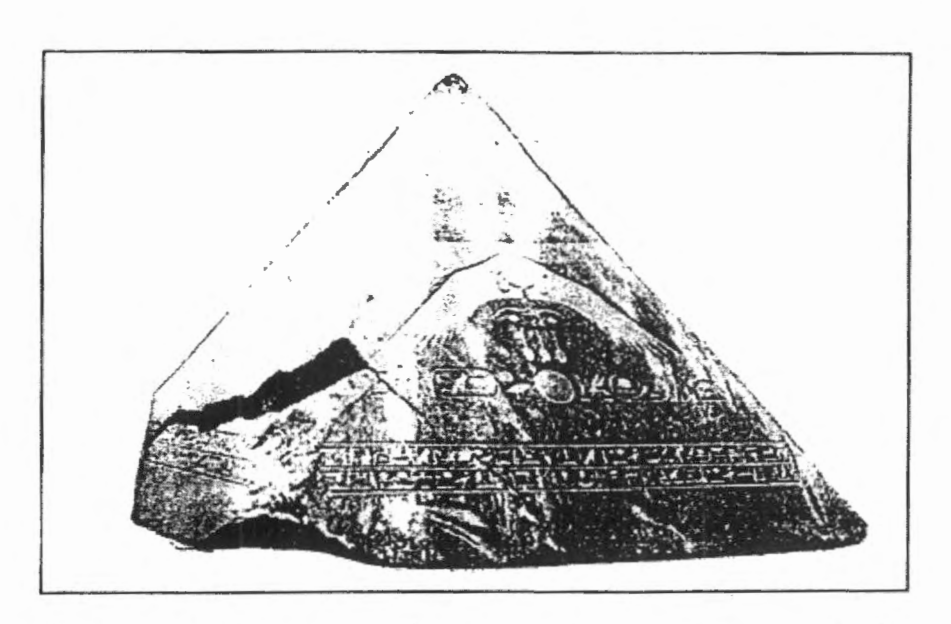
شكل رقم (١١): جزء من الجدار المقابل فى المقبرة ذاتها ، وهى من أواخر أيام الأسرة السادسة وقد لونت جدرانها بمناظر القرابين والأدوات المختلفة . عثر على هذه المقبرة إلى الشرق من معبد (إسيسى) عام ١٩٥٢ .



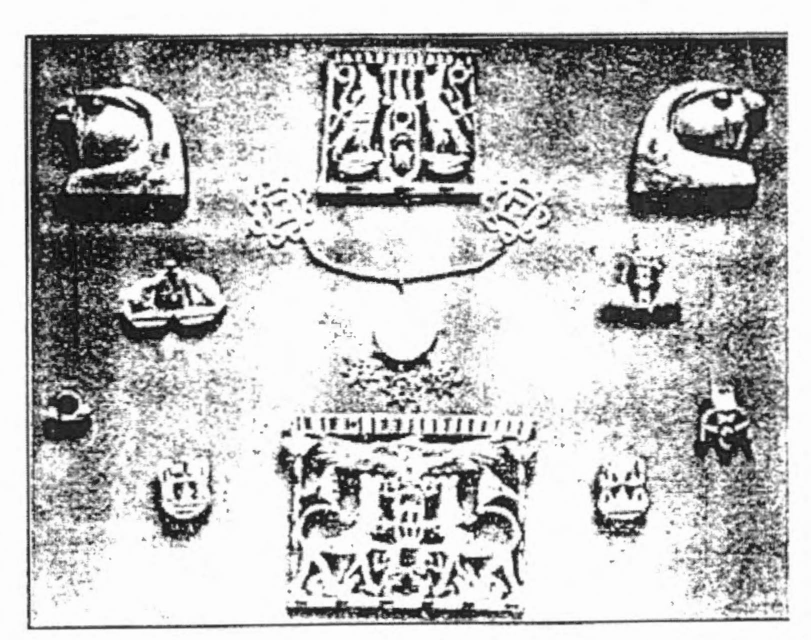
شكل رقم ١٢
القطعة الكبرى من حجر بالرمو ، وعليها سنوات حكم بعض الملوك وأهم ما حدث وما تم فى أعمال كل سنة .



شكل رقم ١٣ : نموذج لأحد الأثرياء وقد جلس يحيط به الكتبة والحراس يستعرض قطيع ثيرانه ويستمع إلى ما يقدمه الرعاة من بيانات - من مقبرة «مكت رع» من الأسرة الحادية عشرة ، وقد عثر عليه فى الأقصر مع أكثر من عشرين نموذجا آخر تمثل مظاهر الحياة اليومية المختلفة.



شكل (١٤) : هرم من الجرانيت كان فوق هرم أمنمحات الثالث بدهشور ، وهو الآن في المتحف المصرى بالقاهرة .



شكل رقم ١٥ : مجموعة من حلى الأسرة الثانية عشرة . ونرى عليها اسم الملك أمنمحات الثانى . وتعتبر الأسرة الثانية عشرة العصر الذهبى لصناعة الحلى فى مصر الفرعونية .

رسائل حقا نخت [١] :

تصادف الباحث فى التاريخ المصرى صعوبات جمة عند محاولته ترك أعمال الملوك والحديث عن الحياة اليومية التى كان يحياها الشعب . لقد وصلت إلينا مناظر كثيرة للحياة اليومية مرسومة على جدران المقابر ، كما وصلت إلينا عشرات الآلاف من قطع الآثار التى كان يستخدمها الشعب ، ويمكننا وصف هذه وتلك ، ويمكننا أيضا الحديث عن أصحابها ومحاولة خلق صورة فى أذهاننا للحياة التى كان يحياها هؤلاء الناس ، ولكن مهما بذلنا من مجهود فإن الصورة تظل ناقصة ، وإن استطعنا رسم خطوطها الرئيسية فإن التفاصيل تظل غير واضحة فضلاً عن أن لونها يظل باهتا ، وبعبارة أخرى لا يمكن أن تكون تلك الصورة كاملة كما نحب .

ولهذا رحب جميع المشتغلين بالدراسات المصرية برسائل ، حقا نخت ، عند إذاعة نبأ اكتشافها لأنها جزء من صميم الحياة ، شيء نابض حـــى ، وكأن ، حقا نخت ، أزاح بيده ستاراً رأيناه خلف بيته وأبنائه ، وتحدث إلينا قليلا فعرفنا منه جانبا من حياته وشخصيته ، ولكن سرعان ما عاد ذلك الستار إلى مكانه مرة أخرى ولم يبق أمامنا غير التعقيب على ما رأيناه .

كان ، حقا نخت ، كاهنا لروح الوزير ، إيبى ، ويدخل فى اختصاصه إدارة الأملاك التى أوقفها ذلك الوزير للصرف من ريعها على مقبرته ، وكان من بينها ضيعتان ربما كانت كلتاهما على مقربة من منف أو أن واحدة منهما كانت فى الشمال والأخرى فى الجنوب . وكان ، حقا نخت ، يسافر من آن لآخر إلى الشمال بعد أن يترك لابنه الأكبر واسمه ، مرسو ، إدارة بيته وأملاكه التى على مقربة من طيبة ، كما كان ينيبه عنه فى القيام بوظيفة الكاهن عند غيابه .

وتصور لنا تلك الرسائل شخصية « حقا نخت » فتراه رجلا حريصا على المال ، خبيثا في معاملاته شديداً في محاسبة إبنه الأكبر ، غير واثق من حسن تصرفه ، ولكن فيه أكثر من نقطة ضعف واحدة إذا كان هناك أمر من الأمور يتعلق بابنه المدلل الصغير أو محظيته الشابه . كان يرسل إلى ابنه الأكبر رسالة بعد أخرى من منف ، ونحن نأسف لأنه لم يصل إلينا إلا جزء من تلك الرسائل ، كما أنه لم يسعدنا الحظ بالعثور على ردود ابنه . ولا يتسع المقام هنا لسرد كل ما ورد في تلك الرسائل لكنا نشير إلى بعض ما يمكننا أن نستخلصه منها .

تثبت لنا هذه الرسائل عودة الصلة بين الشمال والجنوب وعودة الأمن إلى ما كان عليه من قبل إذ كان في وسع هذا الكاهن السفر المستمر وجمع المحاصيل والإتجار في بعض السلع ، دون أن يقع عليه أي اعتداء أو يتعرض للأذى . وأقدم تلك الرسائل هي التي كتبها « حقا نخت » بعد أن عاد من ضيعة « دد إسوت » إلى ضيعة أخرى إلى الجنوب منها . كان الوقت صيفا وكان النيل على وشك الفيضان ويظهر أن « مرسو » أرسل إلى أبيه يظهر تخوفه من عدم احتمال الجسور فأرسل إليه أبوه الرد محذراً متوعداً . ويظهر أن النيل في تلك السنة لم يغمر الحقول كما يجب ، ولهذا لم يأت المحصول وفيرا ونقصت الأقوات في كل مكان ، وبخاصة في الدلتا حيث عمت المجاعة ، وها هو حقا نخت يكتب لابنه « إن الإبن يخاطب أمه وكاهن الروح حقا نخت يتحدث إلى أمه إيبي وإلى حتيت (إحدى قريبات حقا نخت) : كيف حالكم في معيشتكم ورفاهيتكم وصحتكم ؟ لا تقلقوا على فإني حي وبخير . إنكم أشبه بمن يأكل

حتى يشبع ويغمض عينيه بينما يموت الناس جوعا في البلاد كلها . لقد نزلت إلى الجنوب وحصلت على مؤونة لكم بقدر ما استطعت . أليس النيل منخفضا جدا ؟ حسنا فقد جاءنا المحصول متناسب مع ذلك . كونوا صبورين يا من سأذكر أسماءكم فإنكم ترون أنني تمكنت من إعالتكم حتى اليوم » ، ويستمر في خطابه فيذكر أسماء كل فرد في العائلة والمخصص الذي سيرسله لأحله ثم يستمر قائلاً : فلا تغضبوا بسبب ذلك ،

فإن جميع من فى المنزل وكذلك الأطفال يعتمدون على وكل شيء هو ملكى . إن نصف الحياة خير من الموت الكامل ، هم يقولون إن الجائع يحب أن يجوع ، ويريد حقا نخت أن يقنع أقاربه بأنهم أحسن حالا ممن هم فى الشمال، فيقول : لماذا أخذوا يأكلون الرجال والنساء هنا ، لا يوجد أحد فى أى مكان يحصل على مثل هذه المؤن . يجب أن تدبروا أنفسكم حتى أصلكم فإننـــى سأقضـــى شهور ، الشمس ، هنا (١) .

وفى الخطاب نفسه يعطى حقا نخت تعليماته إلى إبنه والى ، حتى ، المشرف على زراعته فيخاطبهما معا ، اعطو هذه المؤن إلى رجالى فقط عندما يقومون بالعمل . ضعوا ذلك فى ذهنكم ، وأعدوا أكثر ما تستطيعون إعداده من الأرض ، احرثوا الأرض ولا تكفــوا عن العمل ، واعلموا أنكم إذا كنتم مجتهدين فسأدعو لكم بخير ، ما أسعدكم لأنى أعولكم ، ولا يترك حقا نخت إبنه الأكبر دون أن يسدى إليه النصح لإنماء ثورته فيكلفه بأن يرسل ، حتى بن نخت ، لاستئجار حقلين ، ولكنه يوصيه ألا يعطى الإيجار إلا من ثمن الأقمشة التى كان قد أرسلها من الشمال ، ويأبى الشيخ إلا أن يذكر لابنه أنه يجب عليه أن يمدح نوع الأقمشة عندما يقدمها للبيع وأن يقول إنها من أحسن الأنواع . ويعود ثانية إلى الأرض التى يجب استئجارها فينصح ابنه بأن يتأكد من أن الأرض جيدة وريها ميسور . ويستطرد الشيخ فيقول لابنه أن يعطى ، حتى بن نخت ، أجراً شهرياً مقداره خمس ويبات من الشعير وأن يعطى عائلته فى أول كل شهر ويبتين ونصف زيادة على ذلك ، ويحذره من مخالفة أمره وأنه إذا أعطاهم زيادة فإنه سيستقطع ذلك من مخصصاته هو ، ولكن قبل أن ينتهى من كتابة خطابه يعود إلى موضوع مرتب ، حتى بن نخت ، مرة أخرى فيقول لابنه بألا يعطيه الويبات الخمسة التى ذكرها بل يعطيه أربعة فقط .

يكفينا هذا القدر لإعطاء صورة عن ذلك الشيخ الشحيح الماكر ، ولننتقل إلى جزء آخر من تلك الرسائل لنرى جانبا من شخصيته . كان حقا نخت يقسو على ابنه الأكبر ويستحثه دائماً على العمل ويهدده فى كل رسالة من رسائله ، ويحاسبه حسابا

عسيرا على دخل كل حقل من من الحقول ، حتى أخشاب الأشجار لا ينساها ولا ينسى بيعها . وكان له ولدان آخران يساعدان « مرسو » فى العمل وكانوا جميعا متزوجين وكان له ابنان آخران صغيران أحدهما يساعد إخوته فى أعمالهم فى الزراعة أما الثانى فكان مازال طفلا وكان يتمتع بحب أبيه وعطفه . ويأمر حقا نخت ابنه الأكبر بأن يعطيه ما يريد من مؤن « ، وبلغه تحياتى ألف مرة ، اعتن به وارسله إلى مباشرة بعد أن تنتهى من زرع الأرض » ولكن « سنفرو » المدلل يرفض السفر . وفى رسالة أخرى نرى حقا نخت يكتب فى رسالة : « إذا كان سنفرو يريد العناية بالثيران فاجعله يعتنى بها ، لأنه لا يحب الجرى هنا وهناك معك فى الزراعة ، ولا يريد الحضور إلى هنا ليكون معى . دعه يفعل ما يشاء ويتمتع بما يريد » .

لقد فقد حقا نخت زوجته منذ وقت غير قصير وأصبح أصغر أطفاله موضع حبه ، وكان فيه ضعف ظاهر له . كان بيت ذلك الكاهن ، كما نستشف من رسائله ، مملوءاً بالأقارب والأطفال . يسأل عنهم جميعاً ، كما يشير من آن لآخر إلى من كان فى ذلك البيت من خدم أو إماء ولكن واحدة منهن وتسمى « إيو إن حب » اصطفاها لنفسه محظية له بعد زوجته وكان يخصها بعطف خاص أثار حسد أبنائه والخادمات الآخريات . ويظهر أن « إيوت إن حب » كتبت له خطابا تشكو فيه من إحدى الخادمات . فما كان من حقا نخت إلا أن صب غضبه على ابنه المسكين « مرسو » : «اطرد الخادمة « سنن» من منزلى فى الحال .. وإذا بقيت « سنن » يوما واحداً فى المنزل فإنك أنت الملوم إذا جعلتها تسبب أى أذى لمحظيتى . لأى غرض أعولكم ؟ وماذا تستطيع محظيتى أن تفعله ضدكم أنتم أيها الأولاد الخمسة ؟ سلم لى على أمى « إيبى » ألف مرة ، ومليون مرة وسلم على « حتبت » وجميع العائلة وسلم لى على « نفرت » أما عن موضوع إيذاء محظيتى فإنى أحذرك . إنك لست شريكا لى ، وخير لك أن تسكت » ، وفى خطاب آخر كتبه بعد ذلك ، طلب حقا نخت من ابنه أن يرسل له محظيته الى الشمال ويقول له فى هذا الخطاب : « انظر إنها محظيتى ومن المعلوم جيدا أنه يجب إحسان معاملة محظية الإنسان » ، ويتحدث كثيرا فى هذا المعنى إلى أن يختمه بقوله : « كيف يمكننى أن أعيش معكم فى مكان واحد إذا كنتم لا تحترمون محظية لأجل خاطرى » .

إن القارىء لهذه الرسائل ، الذى يدرس تفاصيلها ويدقق فى استطراد جملها ، لا يسعه إلا أن يحس بأن آلاف السنين قد طويت ، ويرى أمامه أحد صغار الملاك المحبين للمال الذين مازال يعيش الكثيرون منهم بيننا اليوم فى قرى الريف : نرى بينهم مئات من أمثال « حقا نخت » الذين لا يثقون فى غير أنفسهم ويعتقدون أن

أبناءهم لا يهمهم إلا تبديد ما جمعوه ، وهم برغم حرصهم على أموالهم يحملون فى صدورهم قلوبا رحيمة ولهم نقط ضعف خاصة نحو بعض أبنائهم أو بعض من يظهرون لهم الحب والعطف .

إن فائدة تلك الرسائل لم تقف عند مدنا بمعلومات جغرافية عن بعض قرى الصعيد والوجه البحرى ، أو تنحصر فائدتها فيما نقف عليه من معلومات عن المعاملات بين الناس فى تأجير الأراضى أو أجور العمال ، ولكنها تريناا الكثير من الحياة الداخلية لإحدى العائلات المتوسطة الحال التى عاشت على مقربة من الأقصر قبل أربعة آلاف سنة. وسواء أحسسنا بالعطف على « حقا نخت » والتمسنا له العذر أو رثينا لحال ابنه « مرسو » وما كان يلاقيه من أبيه ، فإننا فى كلتا الحالتين نحس بأننا عشنا معهم بعض الوقت ، ونكاد نتصور « مرسو » المسكين عندما أحضر تلك المجموعة من الرسائل معه إلى القبر الذى كان مكلفا بالعناية بـــه . وهو قبر الوزير « إيبى » لقراءة بعض ما فيها ، ونكاد نتصوره عندما ألقى بها ملفوفة مع بعضها بين المهملات عندما كان العمال يحفرون قبرا آخر ، فلما انتهى العمل قذفوا بها ومع كل الأشياء الأخرى التى لم يكن العمال فى حاجة إليها فى تلك الفجوة فظلت هناك آلاف السنين حتى جاء اليوم الذى رأت فيه النور وأحيت سيرة أصحابها .

يكفينا هذا القدر عن حقا نخت ورسائله ولننتقل الآن لإتمام الحديث عن هذه الأسرة ونتكلم عن الفترة التى تلت وفاة منتوحوتب الثانى حوالى عام ٢٠١٠ قبل الميلاد.

خلفاء منتوحوتب الثانى :

حكم منتوحوتب الثانى بعد استيلائه على إهناسيا أكثر من اثنين وأربعين عاما بذل أثناءها كل ما فى وسعه من جهد لإصلاح ما تصدع من بنيان مصر ، وجعلها بلدا واحدا كما كان الأمر من قبل ، فتحقق له الكثير مما أراد وخلفه على العرش ابنه منتوحوتب الثالث المسمى « سعنخ كارع » الذى اتبع سياسة أبيه فى تعمير البلاد وإنشاء المعابد فى الدلتا والصعيد . وتقدمت الفنون فى عهده تقدما كبيرا خصوصا فن النقش ، كما اهتم اهتماما غير قليل بالمحاجر والمناجم التى نعرف من نقوشها الشىء الكثير ، مثل حملته التى أرسلها فى العام الثامن من حكمه تحت إمرة مدير بيته المسمى « حننو » وكان معه ثلاثة آلاف شخص « ذهبوا عن طريق وادى الحمامات إلى شاطىء البحر الأحمر ، جمعهم « حننو » من شباب مصر الوسطى والصعيد (من إهناسيا حتى الجبلين) وأعد لهم ما يلزم من معدات ، وخصص لكل رجل قدرا من الماء وعشرين رغيفا صغيرا فى اليوم . وحفر لأجل تلك المهمة صهاريجا للمياه

وعشرين بئرا فى الطريق ، فلما وصلوا إلى الشاطىء صنعوا السفن للنزول بها إلى بلاد بونتن ثم عادوا ومعهم كل ما وجدوه فى موانئ تلك البلاد ، وعند عودتهم مروا ثانية بوادى الحمامات فأحضر ، حننو ، ورجاله معه بعض أحجار الجرانيت لأجل تماثيل المعابد .

وأراد منتوحوتب الثالث أن يبنى قبرا ومعبدا يماثلان ما أقامه أبوه فاختار لذلك واديا فى الجبل الغربى من طيبة على بعد لا يزيد عن ثمانمائة متر إلى الجنوب الغربى من الدير البحرى ، وبدأوا بتمهيد المكان وإعداد الطريق ثم أخذوا فى حفر القبر ، ولكن العمل لم يتقدم أكثر من تلك المرحلة . وبالرغم من أن العمل لم يكد يبدأ بداية جدية فقد عثر على بعض آثار هذا الملك فى ودائع الأساس التى كانت فى حفرات تحت المعبد ، كما شيد كثير من رجاله مقابرهم على مقربة من ذلك المكان وأهمها قبر ، مكت رع ، الذى كان من أهم رجال حكومته وكان قبل ذلك من كبار الموظفين فى عهد أبيه ، كما عثر أيضا على قبر إنيوتف الذى تولى بعض وظائف أبيه ، مكت رع ، بعد وفاته .

عثرت بعثة متحف المتروبوليتان على كثير من مقابر موظفى هاتين الشخصيتين الكبيرتين ، كما عثرت فى قبر ، مكت رع ، نفسه على كثير من الآثار الهامة وبخاصة فى حجرة الدفن إذ عثروا إلى جانب التابوت على ما يقرب من ألف ومائتى قطعة مختلفة من نماذج الأسلحة والأدوات المختلفة من فؤوس للقتال وعصى وأقواس وسهام ودروع وغيرها . ولكن الحظ كان يحتفظ للمكتشفين بما هو أهم من ذلك إذ وجدوا فى السرداب ، فى حجرة قطعت فى الصخر تحت أرضية المقبرة وسدت سدا محكما ، مجموعة من النماذج الخشبية وعددها ثلاثة وعشرون تمثل جميع ممتلكات ، مكت رع ، وهى وإن كانت صغيرة الحجم نسبيا إلا أن صانعيها عنوا بتفاصيلها عناية كبرى فأصبحت مصدرا من أهم مصادر دراستنا للحياة اليومية فى ذلك العهد . ففيها الخدم يحملون القرابين ، وأهم تلك النماذج معروضة الآن فى متحف القاهرة وبعضها فى متحف المتروبوليتان فى نيويورك (١) .

لم يزد حكم منتوحوتب الثالث على اثنى عشر عاما ، تلاه بعدها على العرش ابنه المسمى سنوسرت وكان يحمل لقب ، والد الإله ، ولكنه لم يبق طويلا على العرش، ثم تلت وفاته فترة عدم استقرار استمرت نحو خمس سنوات حكم خلالها عدة أشخاص ربما كان من بينهم ، قا كارع – إنيوتف ، والملك ، إيبى خنت إب رع ، وحورس ، جرج تاوى إن ، والملك ، واج كارع سجر سنى ، الذين لم يكن لهم إلا نفوذ

محدود فى الجنوب وبخاصة فى النوبة .

ولكن بعد هذه السنين الخمس المضطربة نرى على العرش الملك « منتوحوتب الرابع وهو المسمى « نب تاوى » ، ولا نعرف عنه إلا أنه حكم فترة لا تزيد عن عامين كان من خلالها مهتما إهتماما كبيرا بإرسال البعثات إلى المحاجر المختلفة ، وبخاصة إلى وادى الحمامات ، لقطع الأحجار وإلى وادى الهودى جنوب شرقى أسوان للحصول على حجر الجمشت (الأماتيست) (١) .

وبالرغم من تلك المدة القصيرة التى قضاها هذا الملك على العرش فقد حدثت خلالها أحداث هامة مثل بعثاته إلى الصحراء واحتفاله بعيد « السد » فى العام الثانى من حكمه أى بعد ثلاثين سنة تماما من الاحتفال الذى أقامه منتوحوتب الثانى فى العام التاسع والثلاثين من حكمه ، مما يجعلنا نرجح أن الإحتفال بالعيد الثلاثينى فى ذلك الوقت بالذات كان يقام كل ثلاثين سنة دون التقيد بحكم ملك من الملوك .

وأهم حادث يرتبط بحكم هذا الملك هو قيام وزيره المسمى « أمنمحات » ومعه عشرة آلاف من أقاليم الجنوب والشمال بحملة إلى وادى الحمامات لقطع الأحجار اللازمة لتابوت له ولتشييد معابد الجنوب ، وأنهم أتموا ما ذهبوا من أجله وتركوا عدة نقوش فى ذلك الوادى يسجلون فيها أعمالهم المختلفة .

كانت تلك البعثة إلى وادى الحمامات آخر شيء نعرفه عن الأسرة الحادية عشرة ، وعن حكم ذلك البيت الطيبى الذى ظل فى الحكم نحو ١٤٣ سنة ، إذ يتغير المنظر فجأة ونرى أمورا كثيرة متلاحقة أهمها استيلاء ملك جديد على العرش وتأسيس أسرة حاكمة جديدة ، وانتقال العاصمة إلى الشمال . ونرى أن ذلك الشخص الذى قام بذلك الانقلاب ، إن كان يجوز استخدام مثل هذا التعبير ، يسمى « أمنمحات » ، فهل هو الوزير الذى ذهب إلى وادى الحمامات ؟ يكاد يكون مؤكدا أنه هو الشخص نفسه ، ونكاد نجزم أيضا أن جمع ذلك العدد الكبير من الجنود لم يكن لأجل إحضار أحجار يكفى لإحضارها بضع مئات من الرجال ، أو على أكثرما عرفناه ثلاثة آلاف رجل كما حدث فى عهد الملك الذى كان قبله ، وهو رقم لم يسمع به من قبل ، وربما كان عدد الجنود كبيرا لأجل إعداد الطريق وحفر الآبار من النيل حتى شاطيء البحر ثم إنشاء السفن والذهاب إلى بونت وليس لإحضار أحجار من وادى الحمامات فقط . وربما جمع الوزير أمنمحات هذه الآلاف العشرة من الجنود توطئة لعمل آخر وهو الاستيلاء على الملك لنفسه ، ووضع حد لعدم الإستقرار الذى أخذ ينتشر فى البلاد منذ وفاة منتوحوتب الثالث أى مدى سبع سنوات كاملة .

الأسرة الثانية عشرة

أمنمحات الأول :

واستتب الأمر لأمنمحات فترة من والاه من حكام الأقاليم فى مناصبهم بعد أن وضع الحدود بينهم وبين جيرانهم . وقبلوا ما فرضه عليهم من أموال وما ألزمهم به من حق الحكومة فى الإشراف على الأمور الداخلية فى الأقاليم ، أما من وقف فى وجهه فقد نحاه وولى مكانه واحدا ممن يثق فيهم . وما من شك فى أن المهمة كانت صعبة وكانت البلاد فى حاجة إلى شخص فى مثل كفاءته وجرأته فتم له ما أراد من إعادة الأمن إلى نصابه .

كان تنظيم الأمور الداخلية أهم الواجبات التى واجهته عند توليه الحكم ، وسواء أكان اختيار مكان للعاصمة على مقربة من منف كان من تفكيره هو أو كان فى عهد الملك منتوحوتب الرابع (نب تاوى رع) فإن رأيه استقر على نقل عاصمة الملك إلى الشمال بعد استتباب الأمر له وسمى المكان الجديد الذى بنى قصوره ودور حكومته فيه باسم « إثت تاوى » أى القابضة على الأرضين مشيرا بذلك إلى الشمال والجنوب .

وتابع أمنمحات سياسة سلفه فى الإهتمام بالجنوب فوصل نفوذ مصر إلى دنقلة، ومن المرجح أنه تأسس فى عهده ذلك المركز التجارى فى مدينة كرمة فى شمالى السودان بعد أن شيد حصن سمنه جنوبى الشلال الثانى .

ولم تكن حدود مصر الشرقية أو الغربية أقل حظاً فى عنايته بها . فقد وضع ذلك الملك النشيط حدا لغارات البدو من كلا الصحراوين ، وبنى سلسلة من التحصينات على حدود الدلتا الشرقية كانت تسمى باسم حائط الأمير ، كما أقام أيضا سلسلة حصون أخرى على حدود الدلتا الغربية مازالت بقايا واحد منها قائمة فى وادى النطرون ، وكان فى داخله معبد له بوابة من الجرانيت نقش عليها إسمه (١) .

لم يكن أمنمحات إلا رجلا عصاميا من الشعب رفعه ذكاؤه وجده وحسن إدراكه للأمور إلى المكان الذى يستحقه ، ولكنه لقى كثيرا من المصاعب ، وقامت كثير من القوى الرجعية ضده فكان من بين أساليب رده على خصومه كتابة البردية المعروفة باسم تنبؤات « نفرتى » (نفر روهو) المحفوظة الآن فى متحف ليننجراد

والتى تحدثنا عنها قبل الآن ، وهى التى أطنبت فى وصف ما سيحل بمصر من فوضى ، وأن إنقاذها سيتم على يدى « ملك سيأتى من الجنوب يسمى «أميني » ابن امرأة من النوبة ويولد فى الصعيد .. سيهزم الأسيويون أمام مذابحه ، ويقع الليبيون صرعى أمام لهيبه ، وسيبنى « حائط الأمير » ، ولن يتيسر للأسيويين بعد ذلك النزول إلى مصر » ، وليس اسم « أمينى » إلا اختصارا عاديا لاسم أمنمحات ، الذى نرى أصله الجنوبى فى ملامح وجهه ووجوه أسرته من بعده . ولم يكن المقصود من كتابة تلك البردية إلا الترويج بين الشعب لهذا الحاكم الجديد ومحاولة إقناع الناس بأن اختياره لإنقاذ مصر أمر أرادته الآلهة منذ أبعد الأزمنة .

وكان من الطبيعى أن يهتم أمنمحات بطيبة ، ذلك البلد الذى نشأ فيه وعاونه على تولى الملك ، وكان طبيعيا أيضا أن يهتم بإعلاء شأن إلهها المحلى « أمون » وأن يقيم له المعابد ، ولكن هذا كله لم يمنعه من نقل عاصمة البلاد إلى مقربة من منف وبناء مقره الجديد فى المنطقة التى تقع الآن على مقربة من قرية اللشت ، وبناء مقره الأبدى على مقربة منها .

ولم يقتصر نشاط هذا الملك على طيبة وعلى عاصمته الجديدة بل نرى آثار نشاطه فى وجهات كثيرة من مصر ، وبقايا معابده منتشرة فى سيناء وفى شرقى الدلتا وبخاصة فى الختاعنة (مركز فاقوس) وفى تل بسطه (الزقازيق) كما نرى بقايا معبد له فى مدينة الفيوم (كيمان فارس – كروكوديلوبوليس) إذ كان أول ملوك تلك الأسرة الذين اهتموا اهتماما خاصا بذلك الإقليم لاستصلاح أراضيه والاستفادة من بحيرته . وورد اسمه على كثير من مقابر ولوحات الموظفين الذين عاشوا فى عصره ، ولكن أكثر ما عثر عليه علماء الآثار كان على مقربة من مجموعته الهرمية فى اللشت إذ عاد أمنمحات إلى التقليد القديم الذى كان سائدا فى الدولة القديمة من بناء الأهرام لتكون مدافنا للملوك وبناء معبد جنازى إلى الشرق منه ، ثم طريق موصل إلى الوادى وتشييد معبد اخر عند بداية ذلك الطريق . وعثروا هناك على كثير من الأحجار المنقوشة من معبديه وعلى كثير من بقايا الأعمدة والتماثيل كما عثروا أيضا على بعض ودائع الأساس تحت أرضية ركن من الهرم ، وبعض أركان المعبد . وكشفت تلك الحفائر أيضا عن حقيقة هامة وهى أن الهرم مشيد بأحجار أخذوا الكثير منها من المعابد أو المقابر الأقدم عهدا ، ومن بينها أحجار منقوشة أتوا بها من معابد لبعض ملوك الأسرة الرابعة من الجيزة والأسرة الخامسة من سقارة ، كما كشفت أيضا عن وجود مصاطب كثيرة داخل سور الهرم وخارجه لكبار موظفى الملك وبعض أفراد عائلته .

ونشط أمنمحات فى استغلال المحاجر والمناجم ، وتسهيل التجارة ونجح فى سياسته مع أمراء الأقاليم الذى هادن الكثير من بينهم بعد أن اطمأن إلى ولائهم له ، ولكنه أبقى لهم على ثرواتهم والجزء الأعظم من نفوذهم فى مناطقهم مع اعترافهم بسلطانه عليهم ودفع الضرائب المفروضة عليهم ، فكانت أيامه نعمة على كثير من هؤلاء الحكام فبنوا المقابر العظيمة فى بلادهم أمثال أمراء بني حسن .

ويمكننا أن نتوقع من أى شخص فى مكان أمنمحات أن يغضب الكثيرين ويبطش بالمناوئين له ، ولهذا لا نعجب إذا وجدنا أيامه الأخيرة مليئة ببعض المتاعب، بالرغم من أن البلاد تمتعت بوجه عام بطمأنينة ورخاء لم تعرف لهم مثيلا منذ الدولة القديمة .

استولى أمنمحات على الملك وقد جاوز سنى الشباب الأولى إذ كان قبل ذلك وزيرا ، ولهذا عندما أتم عشرين سنة وهو ملك ، وبدأت تتقدم به السن أراد الاطمئنان على مصير الملك الذى أنشأه وخاف من أن تعصف به يد الأطماع أو المنافسات بعد موته ، فأعلن ابنه سنوسرت شريكا له فى الملك ، ولكن النفوذ الأكبر ظل فى يد الملك الشيخ وكان يكلف ابنه من آن لآخر بالقيام ببعض الحملات الحربية ليتعرف على بلاده ويوطد نفوذ مصر على حدودها .

ولكن الأيام طالت بأمنمحات حتى وصل حكمه إلى ثلاثين عاما أى أنه حكم منذ عام ١٩٩١ ق.م. إلى عام ١٩٦١ ق. م. ولم يقدر له أن يموت وهو فى شيخوخته ميتة هادئة بل مات غيلة وهو فى قصره ، إذ انتهز أعداؤه فرصة غياب ابنه وولى عهده وشريكه فى الملك سنوسرت ، فى حملة على ليبيا ودبروا مقتله ، وربما كان ذلك الاغتيال بسبب التنافس على العرش بين أفراد العائلة نفسها إذا استطاع المتآمرون أن يصلوا إليه فى مخدعه . ونعرف بعض التفاصيل عن تلك النهاية من برديتين إحداهما هى بردية شخص يسمى « سنوهى » (١) كانت تربطه بالعائلة المالكة رابطة من قرابة ، وكان مع سنوسرت فى حملته عندما وصل رسول من القصر يحمل نبأ مصرع الملك . فأمر سنوسرت بإخفاء الأمر عن الجيش وعاد فى الحال مسرعا إلى العاصمة . وكان سنوهى على مقربة من خيمة الأمير واستمع إلى ذلك الخبر . ولسنا نعرف ما الذى أفزعه حتى هرب فى جنح الظلام وأخذ يسير من بلد إلى آخر حتى

استطاع مغافلة الحراس على الحدود الشرقية وهرب إلى فلسطين ومنها إلى لبنان حيث أقام هناك ، وأثرى وتزعم إحدى القبائل ثم حن فى شيخوخته للعودة إلى مصر ليقضى فيها ما تبقى له من أيام ، وقد حقق له الملك سنوسرت الأول رغبته .

كانت وفاة أمنمحات فى اليوم السابع من الشهر الثالث من شهور الـ ، أخت ، فى العام الثلاثين من حكمه ، فى يوم يوافق ١٥ فبراير سنة ١٩٦١ ق.م. عند حسابه بتقويمنا الحالى . أما البردية الأخرى التى تهمنا فهى البردية المعروفة بإسم نصائح أمنمحات لابنه (١) ، وقد كتبت دون شك بعد موت الملك وكأنها على لسانه من العالم الآخر يتحدث فيها إلى ابنه ويوصيه كيف يسوس الملك ويشرح له كيف قتلوه .

ينصح أمنمحات ابنه ، وقد صار ملكا ، أن يحترس من رعاياه ولا يظهر بينهم وهو وحيد ، وألا يثق فى أخ أو يعتمد على صديق ، ويذكره بما كان يفعله عندما كان يعطى المحتاج ويربى اليتيم ويجعل من لا يملك شيئا يبلغ هدفه . ولكن ، الذى أكل طعامى هو الذى حرض الجنود علي ، والذى أطعمته يدى هو نفسه الذى استطاع بواسطتها أن يحدث الفزع ، ، ويستمر أمنمحات فى ذكر جحود الذين أغدق عليهم نعمه ثم يقول ، كان ذلك بعد تناول الطعام عندما حل المساء ، وخلدت لساعة من الراحة مستلقيا على سريرى ، لأنى كنت متعبا ، وعند ذلك سمع صليل الأسلحة ورأى اشتباك حراسه مع المهاجمين ، ولكن سرعان ما حدثت النكبة قبل أن يتمكن الملك من النهوض من فراشه ، لو أننى أسرعت وبيدى أسلحتى لجعلت الجبناء يتقهقرون شذرمذر ، ولكن لا شجاع فى الليل ولا قتال لمن كان وحده ولن يتم النجاح دون حام ، إذن لقد تمت المؤامرة بالنجاح . ويستمر النص فيذكر أن ذلك قد حدث عندما كان سنوسرت بعيدا ، وتملأ الحسرة نفس الملك من خيانة خدمه وأتباعه الذين رعاهم وعاونهم ، ووضع ثقتهم فيهم فكانوا هم المتآمرون على حياته . ويعدد أمنمحات بعد ذلك ما قام به من إخضاع البلاد لسلطانه وتأمين حدودها واعتراف الناس بأفضاله ، ويذكر أيضا شجاعته فى الصيد وغزوه لإقليم واوات فى النوبة وتأديبه للأسيويين الذين كانوا يغيرون على الدلتا ، ولا ينسى ذكر قصره الذى شيده وزينه بالذهب وحلى

سقفه بأحجار اللازورد ، وكانت أبواب حجراته من النحاس ومصاريع الأبواب من البرونز ، ويختم وصاياه بتحية ابنه وتمنيه النجاح له ليتم ما بدأه ويوصيه بعمل الخير وتشييد المعابد الفخمة المتينة .

كان العام الثلاثون من حكم أمنمحات موافقا للعام العاشر من حكم ابنه سنوسرت إذا احتسبنا الأعوام العشرة منذ إعلانه وليا للعهد وشريكا فى الملك بداية حكمه الحقيقى .

ولم يصل إلى أيدينا حتى الآن أى وثيقة نعرف منها تفاصيل الأيام الأولى لحكم سنوسرت ، لكننا نعرف أنه لم يلق من الصعوبات شيئا لم يتغلب عليه ، واستطاع حقا أن يسير فى الطريق الذى رسمه أبوه العظيم .

خلفاء أمنمحات الأول :

تابع سنوسرت الأول سياسة أبيه وثبت أقدامه لا فى مصر وحدها بل وفى البلاد التى كانت على حدودها . وتوسع جنوبا ، وبدأت كلمة ، كوش ، ترد بكثرة فى النصوص كمنطقة امتد إليها النفوذ المصرى . وعنى سنوسرت عناية كبرى باستغلال مناجم الصحراء ، فنجد اسمه على لوحات أقامها رؤساء بعثاته إلى الصحراء يذكرون فيها تاريخ عملهم ويمجدون فيها الملك الذى كانوا يعملون باسمه . وكانوا يستخرجون الذهب أو النحاس وغيرهما من بعض تلك المناجم ، كما كانوا حريصين أيضا على استغلال بعض الأحجار نصف الكريمة مثل الفيروز من سيناء والجمشت (الأماتيست) من وادى الهودى ، كما حرصوا أيضاً على الحصول على أصلب الأحجار مثل الجرانيت الذى كانوا يستخرجونه من أسوان ومن وادى الحمامات ، والديوريت الذى كانوا يجلبونه من جبال النوبة فى منطقة إلى الجنوب الغربى من أبو سمبل وهى المحاجر التى استغلها المصريون منذ أقدم العصور لأجل عمل الأوانى ، وكان خوفو وخفرع من ملوك الأسرة الرابعة يحصلون منها على الأحجار اللازمة لتماثيلهم . كما نعرف أيضا اهتمام سنوسرت باستغلال محاجر المرمر فى حتنوب فى شرقى النيل على بعد يقرب من خمسة وعشرين كيلو مترا من تل العمارنة الحالية .

وشيد سنوسرت آثاره فى كثير من جهات مصر ، نجدها فى الكرنك وفى كثير من بلاد النوبة وفى الدلتا وفى الصعيد ، وكان للفيوم نصيب خاص من عنايته ، وشيد هرمه على مقربة من هرم أبيه فى اللشت .

وكان من أهم أعمال تشييده من جديد لمعبد رع فى مدينة هليوبوليس (إيون – عين شمس) . بدأ ذلك فى العام الثالث من حكمه وعندما أتم الثلاثين سنة على

العرش واحتفل بعيده الثلاثينى ، أقام أمام المعبد مسلتين من الجرانيت مازالت إحداهما قائمة حتى الآن فى مكانها هناك . كما شيد فى الكرنك بناء صغيرا كان يستخدم أثناء الاحتفالات لتستريح فيه سفينة الإله أمون رع ، وقد عثر على أحجاره داخل الصرح الثالث الذى شيده الملك أمنتحوتب الثالث ، وقد كان عند هدمه كاملا ولهذا عثروا فى السنوات الماضية على جميع أحجاره تقريبا ، وأعادت مصلحة الآثار تركيبها وهو قائم الآن فى المعبد نفسه ولا يبعد إلا قليلا عن مكانه الأصلى ، ونقوشه من أجمل ما أخرجته يد الفنان المصرى فى أى عصر من العصور . وطال حكم سنوسرت الأول حتى أربى على ٤٤ عاما (١٩٧٢ – ١٩٢٨) منها عشرة مع أبيه وأقل من ثلاث سنوات مع ابنه الذى أشركه معه فى الملك فى عام ١٩٣٠ ق.م.

ولم يكن أمنمحات الثانى كأبيه أو جده فى نشاطه الحربى أو المعمارى ، فقد كانت الحالة الداخلية آمنة مطمئنة بفضل جهود من سبقوه ، كما كانت صلات مصر بغيرها من الأمم صلات صداقة ومودة ، وكان يرسل هداياه إلى أمراء سورية وغيرها ويتلقى منهم أيضاً كثيراً من تلك الهدايا . وقد عثر منذ وقت غير بعيد تحت أرضية معبد الطود جنوبى الأقصر على كمية كبيرة من أوانى الذهب والفضة ، والحلى مع غيرها من الأشياء غير المصرية . وكان نشاط أمنمحات الثانى موجها بصفة خاصة إلى استغلال مناجم المعادن والأحجار نصف الكريمة ، وإرسال البعثات إلى الصحراء لتأمينها .

وكذلك كان حال خلفه سنوسرت الثانى فقد شابهه فى كل من سياسته الداخلية والخارجية ولكن زاد عليه فى عمل مهم وهو تكريس جزء كبير من جهده لعمل مشروعات رى كبيرة فى إقليم الفيوم ، وقد شيد هرمه فى اللاهون وعثر على مقربة منه على القرية التى أقامها للعمال والموظفين الذين أشرفوا على تشييد الهرم وما يلحقه من معابد ، وظلت هذه القرية مسكونة حتى عصر الهكسوس ، وعثروا فيها على كثير من أوراق البردى المهمة وعلى غيرها مما كان يستخدمه الناس فى حياتهم اليومية من أدوات .

وعلى مقربة من هرمه أقاموا عددا كبيرا من المصاطب لأهل بيته ، وعلى بعد غير قليل منها قامت جبانة كبيرة كانت مدفنا للكثيرين من رجال بلاطه [١] .

وفى مقبرة من مقابر الأميرات عثرت إحدث بعثات الحفر الأجنبية فى عام ١٩٢٠ على مجموعة كاملة من الحلى داخل صندوق مخبأ فى فجوة فى الجدار الصخرى غاب عن أعين اللصوص القدماء ، وأكثر هذه المجموعة يوجد الآن فى متحف المتروبوليتان فى نيويورك .

لم يزد حكم سنوسرت الثانى على تسعة أعوام ، بما فى ذلك الفترة التى اشترك فيها مع أبيه أمنمحات . وعندما ترك العرش لابنه سنوسرت الثالث فى عام ١٨٩٧ ق.م. استقبلت مصر ملكا كان مقدرا له أن يكون من أعظم من جلس على عرش الفراعنة فى جميع العصور .

طال حكم سنوسرت الثالث حتى زاد على ثمانية وثلاثين عاما (١٨٧٩ – ١٨٤١) وترك وراءه فى أكثر بلاد مصر آثارا تدل على نشاطه ، فبنى المعابد الكثيرة وأقام آثارا له فى أشهر المعابد التى شيدها من سبقه من الملوك ولكن أهم أعماله تركزت فى أمرين ، أحدهما قضاؤه انتام على نفوذ حكام الأقاليم ، والثانى أعماله الحربية سواء فى فلسطين أو فى جنوب الوادى ، وما قام به من حروب ضد القبائل التى أغارت عليه ، وتشييده الكثير من الحصون الحربية فى تلك المنطقة التى جعلت منه بطلا أسطوريا للأجيال القادمة . أما قضاؤه على نفوذ حكام الأقاليم فكان سياسة ناجحة أزالت من البلاد كل أثر لما كانوا يتمتعون به من نفوذ ، وكل أثر للإقطاع .

لقد نقم كثير من رؤساء تلك العائلات القوية على منتوحوتب الثانى عندما وحد البلاد وأخضعهم لسلطته ، وقد استغل أمنمحات الأول ما فى أنفسهم من حفيظة ، فأبقى لهم الكثير من نفوذهم بعد أن وضع الحدود بين تلك الأقاليم فظلوا سادة فى ديارهم طالما كانوا يدفعون الضرائب ريقدمون الولاء ، ويرسلون رجالهم ليحاربوا عندما يطلب اليهم الملك ذلك .

ولكن مع مضى الزمن أخذ نفوذ أولئك الحكام يزداد وثرواتهم تعظم ، فكان من الضرورى وضع حد لهذا الأمر ، ولم يكن هناك من هو أقدر من سنوسرت الثالث لتسديد هذه الضربة فجردهم من مزاياهم وخلع عنهم ألقابهم التقليدية التى كانوا يورثونها لأبنائهم ، فلم يصبح حكام الأقاليم منذ عهده إلا موظفين عاديين كغيرهم .

ولم يقل إهتمام سنوسرت الثالث بالفيوم ولكنه لم يشيد هرمه هناك بل شيده كبعض من سبقه من ملوك هذه العائلة فى منطقة دهشور ، وقد عثر فى عامى ١٨٩٨ – ١٨٩٩ على مجموعة عظيمة من حلى أميرات بيته اللاتى دفن على مقربة من هرمه ، وهى تزين الآن قاعة الحلى فى المتحف المصرى بالقاهرة .

وفي أواخر أيامه أشرك معه في الحكم إبنه أمنمحات الثالث (١٨٤١ - ١٧٩٢ ق.م.) الذى طالت أيام جلوسه على العرش أكثر من جميع من سبقه أو جاء بعده من ملوك هذه الأسرة .

جنى أمنمحات الثالث ثمرة حروب أبيه وإصلاحاته فنعم بعهد من الرخاء والطمأنينة انصرف فيه إلى أعمال الإنشاء ، فشيد كثيرا من المبانى فى مختلف أنحاء البلاد . والتفت إلى الرى ، وحظى إقليم الفيوم أكثر من أى إقليم آخر بجهوده ، فأتم ما بدأه جده سنوسرت الثانى من أعمال لإستصلاح جزء كبير من أراضى تلك الواحة ، بعمل الجسور العظيمة لتحديد البحيرة الطبيعية التى فيه ، وشيد القناطر عند هوارة وعند مدخل الفيوم (روحنت - اللاهون) وشق الترع وبنى على شاطئها ، الذى أصبح على منسوب جديد ، كثيرا من المعابد التى أبقى الزمن على كثير من بقاياها وبخاصة فى الجنوب الغربى من الإقليم مثل معبد مدينة ماضى الذى بناه فى أواخر سنى حكمه عندما كان ابنه أمنمحات الرابع شريكا معه فى الملك ، كما بنى معبدا آخر فى مدينة شدت (مدينة الفيوم الحالية - كيمان فارس) وأقام هرمه عند بلدة هوارة ، وبنى إلى الشرق منه معبده الشهير الذى أسموه فيما بعد « اللابيرنت » ، والذى كتب عنه اليونان والرومان الشيء الكثير ، ولكن لم يبق من آثاره إلا بضعة أحجار متناثرة هناك . وقد عثر فى صيف عام ١٩٥٦ على مدفن ابنة له تسمى « نفروبتاح » وعثر فى داخل حجرة الدفن على ثلاث أوان كبيرة من الفضة وعليها إسمها وإسم أبيها أمنمحات الثالث ، ولم يعثر فى تلك الحجرة على شيء آخر ذى أهمية . وقد وجد تابوتها سليما لم يفتحه اللصوص ، ولكن لم يعثر على موميائها سليمة فى داخله بما تحللت جثتها من مياه الرشح ولم يكن معها إلا القليل من الحلى ، ويظهر أنها دفنت على عجل فى ذلك الوقت المضطرب من تاريخ مصر .

وتلاه على العرش إبنه أمنمحات الرابع ، الذى لم تتوافر فيه مزايا أسلافه العظماء ، فلم نعرف عنه إلا القليل إذ ورد إسمه على بعض لوحات موظفيه ، ومنهم من ذهب إلى المحاجر فى النوبة وإلى محاجر وادى الهودى لاستحضار الجمشت ، كما ورد إسمه أيضا على جدران معبد مدينة ماضى بالفيوم .

وتذكر بردية تورين أنه حكم تسعة أعوام وثلاثة شهور وسبعة وعشرين يوما ، ولسنا نعرف تماما أين دفن وإن كان الرأى الأرجح أنه كان مدفونا فى أحد الهرمين اللذين ما زالت بقاياهما القليلة قائمة حتى الآن خلف قرية مزغونة إلى الجنوب من أهرام أجداده فى اللشت .

وتنتهى أيام تلك الأسرة المجيدة نهاية محزنة . فقد رأينا الضعف يدب فى أوصالها بعد أمنمحات الثالث ، وها هى تنتهى عندما تولت إبنة الملك أمنمحات الثالث عرش مصر ، ولم يطل حكمها أكثر من ثلاثة أعوام وأربعة أشهر وعشرين يوما كما جاء فى بردية تورين بين أعوام ١٧٨٢ و١٧٧٨ قبل الميلاد .

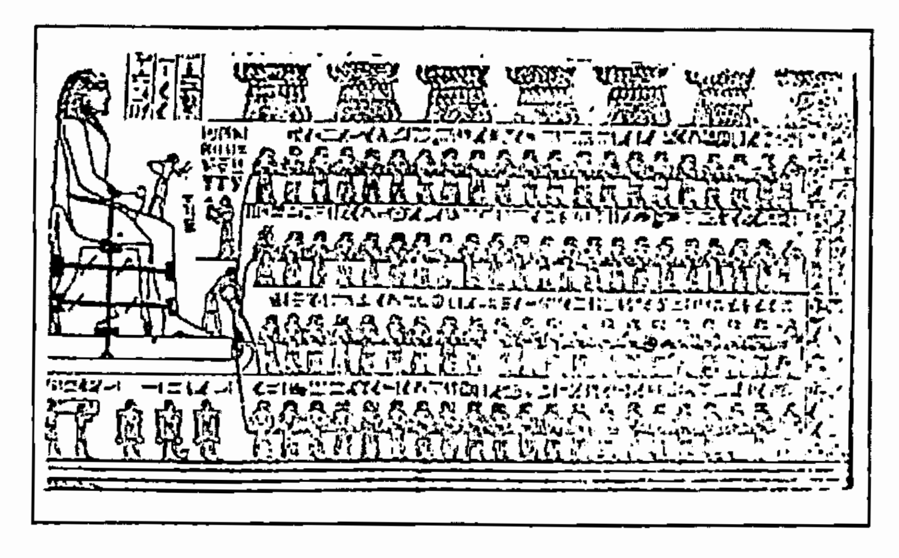
ومن المحتمل أن تلك الملكة واسمها « سوبك . نفرو » شيدت هرمها على مقربة من هرم أمنمحات الثالث فى هوارة ، فقد عثر على بعض آثار باسمها على مقربة من ذلك الهرم فى القرن الماضى .

فإذا ما تساءلنا عما حدث وما الذى قضى على حكم تلك الأسرة، وربما على الملكة أيضاً . فإننا نجد أنفسنا عاجزين عن الجواب المقنع لقلة ما لدينا من وثائق ، فربما كان ضعف الأسرة ناشئاً عن إضطرابات داخلية ومنافسات بين أفراد العائلة الحاكمة ، فقد رأينا مظاهر هذا الضعف منذ أيام أمنمحات الرابع ، ولكنا سنرى عند الحديث على عصر الفترة الثانية وجود عوامل أخرى خارجية بعضها بسبب ثورات قامت فى الجنوب ، والبعض الآخر فى آسيا . ولم يكن على عرش مصر ملك مثل أمنمحات أو سنوسرت فيوقف ذلك التيار الجارف فهوى الصرح ، ولم تنته عائلة أمنمحات فحسب بل دخلت مصر فى فترة مظلمة من تاريخها جاء فى أعقابها غزو أجنبى . وكانت فترة طويلة لم تقل فى مجموعها عن ٢٠٨ سنوات وهى عصر الفترة الثانية التى بدأت إثر موت الملكة سوبك نفرو عام ١٧٧٨ ولم تنته إلا فى عام ١٥٧٠ عندما أتمت مصر تطهير أرضها من ذلك الغزو الأجنبى وبدأت عهداً جديداً فى تاريخها وأسست الأسرة الثامنة عشرة .

ولكن قبل أن نتحدث عن عصر الفترة الثانية يجب أن نقف قليلا لنلقى نظرة على أهم مظاهر الحياة الاجتماعية فى الأسرة الثانية عشرة .

نظرة عامة فى الحياة الاجتماعية :

عرفنا الكثير عن حياة المصريين فى أيام الدولة القديمة مما تركوه مرسوما على جدران مقابرهم ، وبالرغم من أن الغالبية الكبرى من مقابر الدولة القديمة كانت مبنية بالأحجار ، أو من الطوب اللبن فى بعض أجزائها ، فإن بعضها كان من أيام الأسرة الرابعة يقطع فى صخر الجبل ويزينون جدرانها الصخرية بما يشاؤونه من نقوش إذا كان نوع الصخر جيداً ، ولكن إذا كان نوع الصخر رديئاً يغطون الجدران بطبقة من الملاط الجيد ، ويرسمون ويلونون فوق الملاط .



نقل تمثال الحاكم «تحوتى حتب» رسم فى مقبرته بالبرشا فى محافظة أسيوط .

ومقابر الدولة الوسطى وفيرة العدد ، مختلفة الأنواع ، ولكن أهمها فى دراستنا لما طرأ على الحياة الإجتماعية من تطور أو تغيير ، هى مقابر أمراء الأقاليم وعائلاتهم وكبار موظفيهم ، تلك المقابر التى خلفوها وراءهم فى بلادهم وقطعوها فى صخر الجبل فى أماكن مرتفعة تشرف على المناطق المزروعة .

كان أمراء الأقاليم يعيشون فى أقاليمهم منذ الأسرة السادسة كما ذكرنا ، واستمروا فى عصر الفترة الأولى ، وزاد نفوذهم بعد ذلك ، وكان كل واحد منهم يحيط نفسه ببلاط صغير ، وله جيش لحماية الأقليم من إعتداء أى إقليم مجاور ولنشر الأمن والطمأنينة بين السكان . ويكفى أن يزور الإنسان بعض مقابر هذا العصر فى بنى حسن أو فى البرشا أو فى شطب أو أسيوط أو فى الأقصر أو فى أسوان ويرى عظمتها ، ومدى عنايتهم بنقوشها ، ليدرك أن كل واحد من أصحابها كان ملكا صغيرا فى إقليمه . ولسنا ندهش لثرائهم فقد كانت الضرائب كلها تقدم إلى خزائنهم ، ثم يقدمون بأنفسهم بعد ذلك إلى الملك ما يكونون قد اتفقوا عليه . وإذا صدقناما ذكره هؤلاء الحكام فى مقابرهم أو فى اللوحات التى خلفوها وراءهم . فإنهم كانوا مهتمين بنشر الأمن فى بلادهم وعدم الظلم ، وكانوا يعتمدون على جنودهم فى حماية الآمنين من الناس من عبث العابثين .

وما من شك فى أن كل حاكم من أولئك الحكام كان يهتم بجنوده ولهذا أكثروا

من تدريبهم الجثماني حتى تظل لهم مرونتهم وسرعة حركتهم في القتال . صوروا على جدران المقابر مناظر تمريناتهم وأخصها المصارعة . فنرى مناظرها مفصلة في مقابر كثيرة ، وبخاصة في مقابر بني حسن . ولكن المصارعة لم تكن الرياضة الوحيدة التي مارسها الجند ، فقد كان هناك أيضاً حمل الأثقال ، يملؤون غرارة من الرمل أو التراب ويرفعها كل من المتبارين بيد واحدة إلى ما فوق رأسه ، فإذا تمكن كل منهما من ذلك زادوا من كمية الرمل أو التراب حتى يعجز أحدهما . ومن بين المناظر التي على تلك الجدران مناظر المبارزة بالعصى ، كما نرى أيضاً لجنود وهم يحملون بعض أدوات القتال وأهمها الأقواس و لحراب وفؤوس القتال ومن بينها ذلك الدرع الكبير الشبيه بالخيمة يحمله ثلاثة من الرجال ويتقدمون في حمايته للهجوم على الأعداد أو لمهاجمة سور إحدى القلاع ليحدثوا ثغرة فيه ، وذلك بتحريك قضيب ذي نهاية معدنية يحركونه وهم داخل الدرع من ثقب فيحطمون به الأبواب أو يفتحون به ثغرة في الأسوار ، وهم في مأمن من سهام المدافعين عن ذلك الحصن ، أي أن تلك الدروع الكبيرة كانت تقوم في ذلك العهد بما تقوم به العربات المصفحة في عصرنا الحاضر .

ونرى أيضاً على تلك الجدران المناظر المألوفة في الحياة اليومية مثل الحفلات الموسيقية المصحوبة برقص الراقصات . ومناظر الصناع والعمال المختلفين ، والمناظر الدينية التي نرى فيها الكهنة يقومون ببعض الطقوس ، ونرى الأتباع يحملون الأطعمة والأزهار ليقدموها إلى صاحب القبر .

ومن أهم الموضوعات التي أقبلوا على رسمها في مقابر ذلك العهد مناظر الصيد سواء أكان ذلك في الصحراء ، حيث نرى الحيوانات الصحراوية المختلفة أو صيد الطيور في الحقول ، أو على مقربة من المستنقعات ، أو صيد السمك بالطرق المختلفة .

وفي مقابر الدولة القديمة نرى سفنا أكثر مما كان يملكه صاحب القبر للتنقل به على صفحة النيل ، أو لنقل المحاصيل المختلفة ، والقليل منها تلك السفن التي نعرف أن أصحابها اشتركوا بها في الأعياد التي كانت تقام في بعض العواصم الدينية القديمة مثل بوتو أو نخن . ولكن في مقابر عصر الفترة الأولى والدولة الوسطى نراهم يكثرون من رسم سفن ويكتبون إلى جوارها إنها ذاهبة أو آتية من أبيدوس ، إذ أصبحت العادة المتبعة هي نقل مومياء الميت إلى أبيدوس لتزور المعبد أو لتدفن هناك بعض الوقت ، في ذلك المكان المقدس للإله أوزيريس .

وإذا فحصنا تلك المناظر نرى تطوراً واضحا في أشياء كثيرة ، نرى تطوراً في

أشكال الملابس ، وفى الحلى ، وفى الأوانى وفى الأدوات المختلفة ، إذ نرى فيها اختلافاً عما كانت عليه فى الدولة القديمة ، كما نرى تطوراً فى الفن نفسه وفى المواضيع المحببة إلى الفنانين .

وعلى ذكر الفن وتطوره يحسن بنا ألا ننسى أن الرسم بالألوان فوق الملاط قد تقدم ولكن عمل التماثيل ، وبخاصة تماثيل الأشخاص ، قد تأخر كثيراً عن مستوى الأسرتين الرابعة والخامسة اللهم إلا فى بعض حالات قليلة فى تماثيل بعض ملوك الأسرة الثانية عشرة مثل الملك سنوسرت الثالث . لقد أقبل الأفراد من جميع الطبقات على طلب عمل التماثيل فكان الفنانون يصنعونها من جميع الأحجام وفى جميع الأوضاع ، دون التقيد بصورة صاحبها . وعندما كان يختار أحد من الناس تمثالا كان يضيفون اسمه وألقابه . ولم يقتصر ذلك على التماثيل بل كان متبعاً أيضاً فى التوابيت الخشبية ، وبعض اللوحات الجنازية ، ولم يكن الفنانون يعملون تماثيل أو توابيت أو لوحات خاصة وعلى نمط معين إلا للأغنياء وكبار الموظفين ومن كانوا أعلى من هؤلاء فى مرتبتهم .

وتمتاز الأسرة الثانية عشرة بما أنتجه صانعوا الحلى وبخاصة لأميرات البيت المالك إذ جمعت تلك الحلى بين الدقة المتناهية فى الصناعة والذوق الفنى الرفيع ، ونرى تلك المجموعات فى المتاحف المختلفة وبخاصة فى متحفى القاهرة والمتروبوليتان بنيويورك فلا نملك إلا الإعجاب بها وبصناعتها ، وقد فحص الكثيرون من الخبراء تلك الحلى وهم يرددون جميعا رأياً واحداً وهو أن الصائغ الحديث ، مع ما تيسر له من أدوات ووسائل لا يمكن أن يتفوق على الصائغ المصرى القديم الذى عاش فى أيام الدولة الوسطى أى قبل قرابة أربعة آلاف سنة .

تكفينا الآن هذه الإشارات العابرة إلى بعض مظاهر الحياة الاجتماعية ولننتقل إلى نقطة مهمة فى تاريخ هذه الأسرة ، وهى علاقتها بغيرها من البلاد .

الصلة بين مصر وغيرها من البلاد فى الدولة الوسطى :

إذا رجعنا إلى الوثائق المعاصرة من أيام هذه الدولة ، وبخاصة فى الأسرة الثانية عشرة ، نجد أن مصر زادت كثيراً من صلتها بما حولها من بلاد . فقد إهتم ملوكها بتأمين حدودها الغربية والشرقية ، وأقاموا التحصينات ، وبدأوا أيضاً سياسة جديدة نحو واحات الصحراء الغربية منذ أيام أمنمحات الأول فاهتموا بها وكانوا يرسلون الدوريات البوليسية للتفتيش على الطرق لتأمينها . كما نعرف أيضاً أن الواحات ، وبخاصة الواحات الخارجة والداخلة ، وكانت شديدة الصلة بطيبة وأبيدوس،

قد أخذت تزدهر فى ذلك العهد .

ولكن الأمر لم يقف عند حدود مصر . فقد زادت الصلة التجارية والثقافية بين مصر والشاطىء الفينيقى ، وكان ملوك مدينة جبيل وثيقى الصلة بملوك وادى النيل الذين كانوا يرسلون إليهم الهدايا الثمينة ويتلقون منهم بعض الأشياء الثمينة من حاصلات ومصنوعات تلك البلاد . كانت التجارة بين مصر وشرقى البحر الأبيض تأخذ سيرها فى واحد من طريقين أحدهما طريق البر والثانى طريق البحر . ولم تكن تلك الصلة قاصرة على الشاطىء الفينيقى بل كانت تشمل جزر البحر الأبيض المتوسط وبخاصة جزيرة قبرص القريبة من الشاطىء السورى وجزيرة كريت ذات الحضارة المزدهرة فى ذلك العهد ، والتى كان لفنها بعض الأثر فى زخرفة الحلى المصنوعة فى مصر .

كانت هناك صلة وثيقة بين مصر وفلسطين والشاطىء الفينيقى وجزء كبير من سورية ، فهل كانت لمصر سياسة إستعمارية فى ذلك الوقت فى تلك البلاد ؟ وهل يدل وجود آثار مصرية فى بعض بلادها سواء على مقربة من الشاطىء أو فى منطقة البقاع على نفوذ سياسى لمصر ؟ . الجواب على ذلك هو أن مصر لم تكن معنية إلا بالتجارة وإن كان هناك ذكر عارض لحملة حربية أو لحملتين على تلك البلاد ، فإنها كانت دون شك لتأديب بعض القبائل التى استهانت بمصر وكرامتها وهاجمت قوافل تجارتها التى كانت إذ ذاك احتكاراً للملوك .

كان رسل مصر يسيرون جيئة وذهابا على الطريق التجارى الرئيسى بين مصر والشاطىء السورى ، وبين الشاطىء وداخل سورية كما ذكرنا عند الحديث عن سنوهى ، وكانت تقيم فى أكثر من مدن سورية جاليات مصرية لأجل التجارة . وكان لبعض الآلهة المصرية معابد هناك ولكن لم تكن لمصر حاميات فى أى ماكن ، وإذا كان ملوك جبيل قد ارتبطوا برباط صداقة وولاء مع مصر ، أو كانوا متأثرين كثيراً بالثقافة المصرية فإن أولئك الملوك لم يكونوا من موالى مصر أو كانوا يحكمون باسمها، أو يقدمون لها جزية مفروضة عليهم .

كان ازدهار الأسرة الثانية عشرة بين أوائل القرن العشرين وأوائل القرن الثامن عشر قبل الميلاد (١٩٩٢ – ١٧٧٨ ق.م.) ، وكانت مصر إذ ذاك أعظم الأمم ثقافة وقوة فى بلاد الشرق القديم ؛ لأن بلاد الرافدين فى ذلك الوقت كانت تجتاز فترة ضعف فى تاريخها ، لم يخرجها منها إلا الملك حمورابى عام ١٧٢٨ ق.م. ولهذا لا يكون مستغرباً إذا وجدنا نفوذ مصر الثقافى يتغلغل فى بلاد فلسطين وسورية ، ولا يدهشنا أن نرى المصريين يستفيدون من هذه الظروف ويقوون صلاتهم التجارية بتلك

البلاد . وليس من المستغرب أيضاً أن يبدأ بعض سكان تلك البلاد فى التفكير فى المجىء إلى مصر يحملون خيرات بلادهم للإتجار بها (١) .

ولكن صلة مصر بالجنوب كانت ذات طابع آخر ، إذ تعتمد مصر فى حياتها على النيل ، وكانت منذ فجر تاريخها تهتم بالجنوب وتعنى بمعرفة طرقه وتهتم بالحصول على خيراته . وأخذ ملوك الدولة القديمة منذ أيام الأسرة الخامسة يرسلون الحملات للإتصال بأهله ، وقد رأينا عند حديثنا عن تاريخ الأسرة السادسة أن أهل النوبة لم يكونوا يرحبون دائما بتلك الحملات وكانوا يهاجمونها فى بعض الأحيان . ولكن ما جاءت أيام الأسرة الثانية عشرة حتى كانت الأمور قد تغيرت فى تلك البلاد وذلك بسبب تقدم الجنس الزنجي نحو الشمال واختلاطه بثقافة حامية الأصل ، وسيطرته على السكان المحليين فأصبح مع مرور الأيام خطراً على مصر نفسها .

ولهذا نجد ملوك الأسرة الحادية عشرة يهتمون بالجنوب ، ونجد الملك أمنمحات الأول منذ توليه العرش يهتم بهذا الأمر ، ويتم ملوك الأسرة إخضاع المنطقة بين الشلال الأول والشلال الثانى إخضاعاً تاما للنفوذ المصرى ويبنون هناك الحصون وقد بلغ عددها سبعة عشر حصنا ، ويضعون فيها الحاميات ويحرمون على أحد من السكان الزنوج أن يتعدى الشلال الثانى فى طريقه نحو الشمال سواء بطريق النيل أو بطريق البر إلا بقصد التجارة وفى جماعات قليلة .

ولم تقف هذه الأسرة عند ذلك بل دفعت بحدود مصر إلى جنوبى الشلال الثالث وهناك ، عند مكان يقال له « كرمة » ، أقاموا حصنا ومخزنا كبيراً لإيداع ما يحمله التجار من بضائع . وكان يقيم هناك حاكم مصرى ، وكانت هناك أيضاً مدينة مصرية صغيرة وفيها صناع مصريون . ولسنا نعرف على وجه اليقين كم من الحكام تولوا تلك الوظيفة ، ولكن واحداً منهم واسمه « زفاى حعبى » (٢) مات هناك فدفنوه حسب تقاليد البلاد ، لا حسب التقاليد المصرية ، وضحوا بأكثر من مائتى شخص

(وربما كانوا نحو ٢٧٠) من خدمة وأتباعه ودفنوهم فى الممر المؤدى إلى قبره ،[١] ثم أقاموا كوما كبيراً فوق القبر ووضعوا فوقه تمثالا له داخل هيكل مشيد من الطوب .

لم تكن عادة دفن الأتباع قاصرة على الزعماء أو الملوك فى السودان فى ذاك الوقت بل كانت عادة عامة فى كثير من حضارات العالم القديم ، وقد وجد « ريزنر » الذى حفر منطقة كرمة قبل الحرب العالمية الأولى كثيراً من القبور التى دفن فيها الخدم مع سادتهم ومن بينهم قبر لطفلة صغيرة إحتضنتها مربيتها داخل القبر وقد رقدت خادمة أخرى على مقربة منهما ، وقد دفنت كل من المربية والخادمة وهن أحياء وكانت العادة المتبعة هى أن يعطوا أولئك الخدم أو الأتباع شراباً مخدراً ويضربوهم ضربة قاتلة على رؤوسهم إذا رفضوا تناوله . والفكرة فى دفنهم مع سادتهم هى أن يقوموا على خدمتهم فى الحياة الأخرى كما كانوا يخدمونهم فى هذه الدنيا .

لم يقتصر الاهتمام بالجنوب على ملك دون آخر ، فنراهم جميعاً وقد أظهروا الكثير من العناية بالنوبة وبمياه النيل ونكن واحداً من بينهم وهو « سنوسرت الثالث » اهتم اهتماما خاصا بالحد الجنوبى لمصر ونزل بنفسه إلى الجنوب على رأس الجيش عدة مرات واعتنى عناية كبير بتجديد للحصون وتقوية الحاميات ، وأقام عدة لوحات للحدود جنوبى الشلال الثانى ، وحرم على جميع الزنوج الجنوبيين إجتياز ذلك الحد وكتب فى تلك اللوحات أنه برىء من ابن يأتى بعده ولا يحافظ على تلك الحدود ، ويحارب من أجلها . وبعد موت هذا الملك بخمسمائة عام تقريبا نرى ملكا عظيما آخر يقدر أعماله وجهوده فى المحافظة على حدود مصر الجنوبية ، نرى الملك العظيم «تحوتمس الثالث» يرفع « سنوسرت الثالث » إلى مصاف الآلهة ويجعل منه إلها حاميا للنوبة ، ويقيم المعابد لعبادته ويقف أمامه يقدم له القرابين كإله من الآلهة .

العناية بالرى والتوسع فى الزراعة :

لقد أشرت أكثر من مرة فى هذا الفصل إلى اهتمام ملوك هذه الأسرة بإقليم الفيوم ، والواقع إن إهتمامهم بهذا الإقليم لم يكن إلا أحد مظاهر عناية تلك الأسرة بمسألة من أهم المسائل الحيوية لمصر وهى الانتفاع بمياه النيل ومحاولة زيادة الأراضى المزروعة .

وبالرغم من أننا لا نعرف كم كان عدد سكان مصر فى الدولة القديمة . وكم

كان عـددهم فى الدولة الوسطى ، فإن ظواهر الأمـور تدل على إزدياد عـدد السكان خلال ذلك العهـد المزدهر الذى سادته الطمأنينة خلال حكم الأسرة الثانية عشرة . وسواء أكان اهتمام ملوك الأسرة بموضوع مياه النيل راجعاً إلى ضرورة إقتصادية أو كان إصلاحا عاديا للتقديم بالبلاد ، فإننا نعرف أنهم كانوا يسجلون إرتفاع النيل عند الشلال الثانى ، عند حصن سمنة ، وذلك ليطمئنوا على حالة الفيضان ويتخذوا من الإحتياطات ما يكفى لمجابهة الحالة المنتظرة بستوى فى ذلك إذا كان الفيضان عاليا أو أقل من المعتاد .

ولم يكن إهتمامهم بإقليم الفيوم راجعا فقط إلى استغلال البحيرة لتكون خزانا للمياه فى أيام الفيضان ثم الاستفادة من تلك المياه فى أوقات التحاريق ، بل استفاد الإقليم كله من عمل الجسور اللازمة ؛ لذلك الخزان وتم إستصلاح مساحة تقرب من سبعة وعشرين ألف فدان ، كما يرجح أيضاً أن تكن الأراضى المزروعة فى الإقليم قد تحسنت بسبب تلك المشروعات ، وبدأت تنشأ مدن جديدة حول البحيرة نفسها على منسوب + عشرين مترا فوق مستوى مياه البحيرة زيادة على المدن القديمة التى كانت قائمة قبل ذلك (١) .

وليس لدينا أدلة ثابتة على قيام ملوك تلك الأسرة بأى مشروعات أخرى لاستصلاح الأراضى فى غير إقليم الفيوم ولكن إهتمامهم بمقاييس النيل ونجاحهم الكبير فى استصلاح الأراضى فى الفيوم يجعلنا نرجح أن جهودهم فى زيادة الثروة الزراعية لم تقف عند حد الفيوم وربما كان لهم نشاط آخر فى استصلاح أراضى بعض مناطق الدلتا ولكن لم تصلنا عن ذلك أى وثائق معاصرة حتى الآن ، وربما كان المستقبل كفيلا بذلك .

تلك نظرة عامة على الأسرة الثانية عشرة وعلى الدولة الوسطى بصفة عامة ، رأينا فيها إزدهار الأدب والفن ، ورأينا أيضاً كيف تغلبت مصر على ضعفها فى عصر الفترة الأولى وكيف استعادت ثقتها بنفسها ، واستأنفت السير فى الطريق الذى رسمته لنفسها منذ أن كونت أصول حضارتها . ولم تقف مصر خلال أيام الدولة الوسطى

جامدة تترسم خطى الدولة القديمة بل نرى تطورها فى مختلف الميادين ، ونرى تطورها فى السياسة الخارجية بل وفى الناحية الدينية أيضاً .

لقد عاد للملك ما كان له من نفوذ وسلطان ، وعاد الموظفون إلى تملقه والتمسح فى أعتابه ، وأختفت من لوحات الأفراد ، أو كادت ، تلك النغمة الحلوة وهى الإعلاء من قيمة الفرد واعتماده على ما يقدمه من عمل صالح فيضمن النجاح فى الدنيا والآخرة ، وحلت محلها النغمة التقليدية القديمة وهى أن الخير كل الخير فى عطف الملك ورضاه . وما من شك فى أن أكثر ملوك الدولة الوسطى لم يكونوا عتاة أو متجبرين فى الأرض بل نعرف عن أكثرهم أنهم كانوا فخورين بعدلهم بين الناس وسهرهم على رعايتهم ، ولهذا سرعان ما اطمأن الناس إلى حكامهم وتركوا أمر سعادتهم بين أيديهم ورجعوا إلى تقاليدهم القديمة فى تمجيدهم . ولكن ذلك كله لم يغن شيئاً عندما أخذت تتجمع فى الأفق سحب قاتمة ، وعندما بدأت رياح الأحداث فى مصر وفى خارج مصر تدفع بتلك السحب فوق البلاد ، وإذا بمصر تتعرض مرة أخرى لفترة ضعف ، هى ما نسميه عصر الفترة الثانية .

الفصل السادس

عصر الفترة الثانية

القسم الأول
الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة
(١٧٧٨ ـ ١٥٩٤ ق.م.)

- الأسرة الثالثة عشرة (١٧٧٨ ـ ١٦٢٥ ق.م.)
- الأسرة الرابعة عشرة (١٦٢٥ ـ ١٥٩٤ ق.م.)



سوبك حوتب الأول

القسم الثاني
الهكسوس

- الأسرة الخامسة عشرة (١٥٩٤ ـ ١٥٦٧ (؟) ق.م.)
- الأسرة السادسة عشرة (١٦٧٠(؟) ـ ١٦٦٠ (؟) ق.م.)
- الأسرة السابعة عشرة (١١٦٠ (؟)ـ ١٥٧٠ ق.م.)

عصـــر الفتــرة الثــانيــة

القسم الأول

الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة

(١٧٧٨ - ١٥٩٤ ق.م.)

بين عهدين :

كانت الأسرة الثانية عشرة من أزهى عصور مصر دون شك ، وكان الملك أمنمحات الثالث من أعظم الفراعنة ليس فى تاريخ تلك الأسرة فحسب ولكن فى تاريخ مصر كلها . وقد اشترك معه فى حكم مصر فى آخر أيامه ابنه أمنمحات الرابع كما أسلفنا ، ثم تلته الملكة ، سوبك نفرو ، التى كانت إبنة لأمنمحات الثالث . وفجأة أخذ نجم هذه العائلة فى الأفول وتولاها الضعف ، وخرج الملك من يدها إلى أسرة أخرى وهى الثالثة عشرة . ويقف التاريخ - أو بعبارة أدق - يقف المؤرخون حائرين يتلمسون الأسباب لهذا التغيير وهذا الضعف الشامل الذى أصاب البلاد فلا يعرفون له سببا واضحا .

ويريد بعض الباحثين أن يرى أن سبب هذا الانحلال راجع إلى ظهور أعداء لمصر ، فى سورية وفلسطين وفى الجنوب ، ويعتمدون على وجود عدد غير قليل من الدمى والأوانى كتبت عليها تعاويذ سحرية لسحق أصحابها (١) .

ولو درسنا هذه التعاويذ والدمى لوجدنا أنها خاصة بأمراء من النوبة أو من آسيا وقفوا موقفا عدائيا من مصر ، فأراد بعض من أحاطوا بالملك أن يقنعوه بأنه من

الممكن سحقهم بواسطة السحر ما دامت تعوز مصر الجيوش ، وفي هذا الدليل الكامل على ضعف البلاد ووقوفها مكتوفة الأيدى أمام ذلك الخطر الذى أخذ يهدد كيانها . وإنى أقدم هنا مثلا واحدا لما هو مكتوب على دمية من تلك الدمى : « باكويت المسمى جاى ، حاكم أباتس بن أهاسى وأونكات وجميع حلفائه الذين معه وجميع رجالهم الأقوياء وعدائيهم وجميع أصدقائهم وأتباعهم ، وكل ما تحدثه نفسه بالثورة أو التآمر ، والذين يحاربون أو يفكرون فى الحرب ، أو الذين يفكرون فى الخروج عن الطاعة فى جميع تلك البلاد ، وإذا درسنا هذه المجموعة لوجدنا أن بين أصحابها كثيرين من أمراء الجنوب وأمراء الإمارات السورية ، وأسماء أصحابها أحيانا سامية وأحيانا أخرى مصرية . ونعرف من بين البلاد التى ذكرت على هذه الدمى أسماء جبيل (بيبلوس شمالى بيروت) وعسقلان ويافا كما ظهرت فيها لأول مرة كتابة إسم أورشليم -Au shamem) أورشاميم) .

وهناك ظاهرة أخرى وهى وجود دمى لبعض المصريين أيضا ، ومعنى ذلك أن مصر كانت تعانى شدة كبرى ، وأن مصريين فى مصر نفسها وأمراء سورية والسودان الذين كانوا يدينون لها بالطاعة أخذوا فى الثورة عليها وإن فرعون أصبح عاجزاً عن قمع الثورة فالتجأ إلى السحر لعله ينقذه مما هو فيه .

وهنا نعود مرة ثانية لنتساءل عن سبب هذا الإنهيار وتعليله فلا نجد إلا فروضا يمكننا أن نسوقها ، ولكن لا نجد فى النصوص المصرية ما يؤكدها تماما . وأول هذه الفروض أن ملوك الأسرة الثانية عشرة جاءوا وكانت مصر محكومة بحكام أقوياء فحاربوا بعضهم وهادنوا أو حالفوا البعض الآخر ، ولكن بقى للكثيرين منهم الجاه والثروة فى أقاليمهم فانتهزوا فرصة الضعف الذى انتاب البلاد بعد أمنمحات الثالث واستعادوا سلطانهم القديم ، خصوصا وأنه منذ بدء الأسرة الثانية عشرة كانت الخلافات والحزازات الداخلية فى العائلة تقطع أوصالها ، وكانت المؤامرات فى البيت المالك سببا من أسباب انهياره . وإلى جانب هذين الفرضين توجد حقيقة هامة ربما كانت هى أقوى الأسباب ، وهى أنه منذ عام ٢٠٠٠ ق.م. تقريبا بدأت بعض الشعوب الهندو – أوروبية تأتى من الشرق والشمال من موطنهم الأصلى فى أواسط آسيا لتستقر فى بلاد الرافدين وفى سورية . وترتب على هذه الهجرات اضطراب فى تلك الولايات ، وقد حاربت بعض هذه القبائل سكان البلاد الأصليين وأجلتهم عنها ، كما استقرت قبائل أخرى مع السكان وعاشوا فى وئام ؛ لأن هذه الهجرات لم تتخذ طابع الغزو المنظم ، وإنما جاءت هذه الشعوب تباعا فى طلب العيش . ولم يمض غير قرنين من الزمان حتى أصبح منهم أمراء يحكمون البلاد ، بل إننا نستطيع أن نرى بين

أسماء أمراء سورية الذين ذكرت أسماؤهم على الدمى أن بعضهم يتسمى بأسماء غير سامية وربما كانوا من هؤلاء الغزاة الشماليين .

وأمام هذه الأخطار كلها لم يكن لمصر المفككة العرى من سبيل إلا الاستسلام للقضاء .

ملوك الأسرة الثالثة عشرة وآثارهم :

لا يمكن أن يكون قد زاد حكم ملوك هذه الأسرة عن خمسة وخمسين عاما؛ لأن مدة حكم الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة لم يكن يزد على قرن ونصف كما سنرى ، وأن المدة التى تفصل الأسرة الثانية عشرة عن الأسرة الثامنة عشرة لم تزد على قرنين من الزمان ، بينما نرى أن المؤرخ المصرى مانيتون قد ذكر أنها تزيد عن خمسة عشر قرنا . وقد واجه مانيتون الصعوبة التى نواجهها الآن . فقد كانت أمامه قوائم طويلة لعائلات مختلفة فى نواحى مصر ، وكان كل منها يدعى الملك وأنه حاكم الشمال والجنوب ، فاعتبر مانيتون أن كل بيت من هذه البيوت حكم البلاد كلها ثم تلته البيوت الأخرى ، بينما الواقع أنها كانت تحكم فى وقت واحد عندما كانت مصر مفككة الأوصال . كان هناك بيت قوى فى طيبة وكان هناك بيت آخر فى قفط وثالث فى أسيوط ورابع فى شرق الدلتا وخامس فى غربها . وكان نفوذ بعض هذه البيوت يزداد حينا ويتقلص حينا آخر ، ولكن أهمها جميعا هو ما نسميه الأسرة الثالثة عشرة وهو البيت المالك الذى حكم على الأرجح فى منف فى الشمال وخلف آثارا كثيرة فى طيبة ، وفى أماكن كثيرة فى البلاد ، والذى ظهر من حكامه بعض ملوك امتد نفوذهم جنوبا إلى بلاد النوبة وشمالاً إلى لبنان .

وأول ملك معروف لنا هو « سخم – رع – خو – تاوى » الذى تسمى أيضاً باسم « أمنمحات ، سوبك ، حوتپ » . ويريد بعض المؤرخين أن ينسب إليه أنه تزوج من الملكة « سوبك نفرو رع » ولكن يعوزنا الدليل على ذلك . وتلاه على العرش ملك آخر اسمه « سعنخ تاوى سخم كارع » وقد جاء اسمه فى بردية تورين مثل سابقه ، وعثر على آثار له فى مختلف جهات مصر ، ولكن بدأت تسجيلات مقاييس النيل فى سمنه وكمه تنقطع فى عهده مما يجعلنا نرجح أن بدء عدم استقرار الأمور فى النوبة راجع إلى أيامه .

ولدينا عشرات من أسماء الملوك الذين عثر على تماثيل ولوحات لهم فى نواح متعددة من مصر فى شمالها وجنوبها ، ومن بين هؤلاء الملوك واحد يدعى « خع – سخم – رع ، سوبك حوتپ » ، عثر على أكثر من تمثال له فى صان الحجر ، وعثر

على تمثال له في جزيرة أرقو بين الشلالين الثالث والرابع . ومن الأسماء الظاهرة بين هؤلاء الملوك اسم الملك « سمنخ كارع إميرا مشع » واسم الملك « خع سخم رع – نفر حوتب » الذى يقترن اسمه بلوحة عثر عليها فى بيبلوس وتمثل أمير ذلك الإقليم واسمه « يوناتان » جالسا أمام أسمائه مما يدل على امتداد نفوذ مصر إلى بعض مناطق سورية فى عهده ، وربما كان هذا الملك ممن كانت لهم السيطرة التامة على شرقى الدلتا على الأقل .

ولابد من الإشارة إلى ملك آخر وهو « سواج – إن – رع » الذى جاء ذكر اسمه على لوحة عثر عليها فى الكرنك ، وعليها صورة عقد يتنازل فيه حاكم إقليم الكاب عن منصبه لأحد أقاربه مقابل ٦٠ دبنا (٩١ جراماً = دبناً) من الذهب ، وهى تشمل ذهبا وحبوبا وثيابا .. الخ .

أما الملك « نحسي » فإن ألقابه ووصفه بأنه « حبيب ست رب أواريس » تجعلنا نرجح أنه كان ذا صلة بأيام الهكسوس ، الذين كانوا قد بدأوا يستقرون فى شرقى الدلتا منذ أواسط أيام هذه الأسرة . ومن أبرز الأسماء فى هذه الأسرة اسم الملك « خنجر » الذى عثر على هرمه فى سقارة القبلية والذى نعرف أيضا أنه أمر وزيره « عنخو » ليقوم بإصلاح معبد سنوسرت الأول فى أبيدوس محتذيا بما قام به ملك يسمى « نفر حوتب » الأول وهو من هذه الأسرة أيضا ، ونعرف من إحدى اللوحات أنه جمع رجال بلاطه وأمرهم بدراسة الكتب القديمة لإعادة تشييد معبد أوزيريس فى أبيدوس كما كان وقت إنشائه منذ القدم (١) .

وكان ملوك الأسرة الثالثة عشرة ، وربما الرابعة عشرة أيضا ، يدفنون فى جبانة منف ، وقد أشرنا إلى هرم الملك « خنجر » فى سقارة القبلية الذى كشفت عنه حفائر مصلحة الآثار فى عام ١٩٢٩ ، وكشفت فى الوقت ذاته على مقربة منه عن هرمين آخرين لم يكن قد انتهى العمل فى أحدهما ، ولم يستطع القائمون بهذا الكشف أن يعرفوا اسمى صاحبيهما .

وفى عام ١٨٩٤ كشف عن قبر ملك يسمى « حور – إو إب » وكان فى الناحية الشمالية من هرم أمنمحات الثالث فى دهشور داخل السور المحيط بالهرم ، وعثر فى هذا المدفن على أشياء ثمينة ومن بينها تمثاله الخشبى الشهير الذى يمثله واقفا فى

ناووس من الخشب وقد مثله الفنان عاريا وفوق رأسه علامة الرمح ، كا ، وهو الآن فى المتحف المصرى .

وفى عام ١٩٥٧ أذيع فى الصحف نبأ الكشف عن هرم ملك يسمى ، أمينى عامو ، فى دهشور ، كتبوا اسمه على أوانى الأحشاء التى هشمها اللصوص ، ولكن فحص هذا القبر لم ينته بعد ، ومازال هناك أمل كبير فى العثور على أشياء أخرى .

وليس لدينا حتى الآن دليل على أن هذا الملك حكم فى الأسرة الثالثة عشرة ، وربما كان ملكا فى زمن آخر بين هذه الأسرة السادسة عشرة ، ولكن مهما كان الأمر فإن الكشف عن قبر فى هذه المنطقة من الجبانة المنفية وعلى بعد مئات قليلة من الأمتار من مدفن الملك ، حور إوا إب ، يعطينا بعض الأمل فى أننا سنعرف أيضاً أسماء غيره من ملوك عصر الفترة الثانية متى تم حفر ذلك العدد الكبير من المرتفعات التى تملأ هذه المنطقة ، وتمتد مسافة طويلة على حافة بركة دهشور ، وهى كلها إلى الشرق من هرم سنفرو القبلى وإلى الجنوب من هرم أمنمحات الثالث .

ومن الجدير بالذكر أيضاً أنه قد عثر على آثار بعض ملوك الأسرة الثالثة عشرة فى منطقة الختاعنة فى مركز فاقوس ومن بينها هريم من الحجر ، ومن الصعب جدا أن يقول أحد إن كانت بعض مقابر ملوك ذلك العهد كانت فى شرقى الدلتا حيث عثر على تلك الآثار ، أو أنهم جاءوا بها من منف لاستخدامها فى البناء فى عصور تالية .

الأسرة الرابعة عشرة (١٦٢٥ - ١٥٩٤ ق.م.) :

ويحدثنا مانيتون أنه بعد انتهاء حكم الأسرة الثالثة عشرة تلاهم ملوك الأسرة الرابعة عشرة ، وكان مقر حكمهم فى مدينة سخا فى غربى الدلتا . وجاء فى أقوال مانيتون أن عدد ملوك هذه الأسرة ستة وسبعون ملكا حكموا مائة وأربعة وثمانين عاما . وتذكر بردية تورين نحو واحد وعشرين ملكا منهم ، أما ثبت الكرنك فلم يشر إليهم . ومهما كانت قيمة كتابة مانيتون ومهما كثر عدد الملوك الذين جاء ذكرهم فى بردية تورين ، فمن المرجح أن هذه الأسرة بدأت فى الوقت الذى بدأت فيه الأسرة الثالثة عشرة ، ولكنها استمرت مدة أطول ؛ لأنها كانت بعيدة عن مقر الهكسوس فى الشرق . أما آثار ملوك هذه الأسرة - إن كان مازال لدينا أمل فى العثور على آثار لهم - فإنها إما مازالت كامنة تحت حقول المنطقة ، لم تكشف عنها يد حتى الآن ، أو أن

تكون الأيام قد عفت عليها لكثرة ما تعرضت له بلاد الدلتا من محن على مر السنين.

ومهما يكن من أمر ، فإن الأسرة الرابعة عشرة كانت تحكم فى سخا فى وقت من الأوقات ، بينما كان شرقى الدلتا خاضعا للهكسوس الذين بدأت طلائعهم تستقر هناك . أما طيبة ، وجزء كبير من الصعيد ، فقد ظلت تحت نفوذ البيوت الحاكمة هناك .

القسم الثانى

الهكســـــوس

مقدمـة :

لم يحظ عصـر من عصـور التاريخ المصـرى بعناية المؤرخين كمـا حظيت به تلك الفترة التى تعرضت فيها مصر لمحنة غزوها بشعب أجنبى أطلق عليه الناس اسم الهكسوس . وإذا أردنا حصر الأبحاث الجدية التى نشرت عنه لبلغت العشرات ، ومع ذلك فإن هناك كثيرا من النقط الغامضة التى مازالت موضع نقاش عنيف بين المؤرخين ، وهناك نقط أخرى مازلنا نجهل تأويلها ، ومازال علم الآثار يضيف من آن إلى آخر عن ذلك العصر كثيرا من المعلومات ، سواء أجاءت هذه المعلومات من مصر نفسها أو من خارج حدودها وبخاصة فى فلسطين . ولكن قبل أن نتحدث عن تاريخ هذه الفترة وأثرها فى تاريخ مصر ، يجمل بنا أن نعود قليلا إلى الوراء بل ونترك أيضا حدود مصر ونلقى نظرة على ما كان يجرى فى غربى آسيا .

ففى القرن التاسع عشر قبل الميلاد أى فى أواخر أيام الأسرة الثانية عشرة كان نفوذ مصر السياسى والاقتصادى والثقافى سائدا فى غربى آسيا . وكانت مصر دون شك أقوى بلاد الشرق الأدنى ، وكانت تتدفق عليها خيرات آسيا والنوبة وشمال السودان وشمال إفريقيا وجزر البحر الأبيض . وبالرغم من انتهاء أيام الأسرة الثانية عشرة حوالى عام ١٧٨٠ ق.م. (١٧٧٨ على وجه التحديد) (١) ، وتعرضها داخليا للضعف والإنحلال فإن نفوذها فى خارج حدودها لم يتأثر كثيرا ، ولم يجد بعض ملوك الأسرة الثالثة عشرة صعوبة فى الإبقاء على ولاء أمراء بعض الولايات وبخاصة فى بيبلوس وأوجاريت (رأس الشمر على مقربة من ميناء اللاذقية فى سوريا، كما ظل النفوذ المصرى أيضاً فى كرمة (فى نقلة) كما كان من قبل .

ولم تكد مصر تحاول النهوض من كبوتها حتى اضطرتها ظروف أخرى خارجية إلى التعثر ثانية ، فقد بدأت شعوب بلاد الرافدين وسورية وما جاورها عصرا

جديدا من تاريخها . فإننا نعرف من وثائق مدينة ماري (إسمها الحديث تل الحريري في سورية ، قريبا من حدود العراق) (١) ، والتي يعود تاريخها إلى منتصف القرن الثامن عشر ، أن الملك الأشوري ، شمشي أداد الأول ، (Shamshi - Adad 1) كان حاكما علي جزء كبير من الجزء الأعلى من بلاد الرافدين ، ولكن ابنه ، إشمادجن ، (Ishma-Degan) لم يستطع المحافظة على قوة أشور السياسية فاستطاعت ماري أن تحرر نفسها . وهذا هو نص خطاب تلقاه ، زمري ليم ، (Zimri - Lim) حاكم ماري وهو يلقي كثيرا من الضوء على الموقف السياسي في هذه المنطقة من بلاد الشرق في ذلك العهد .

، لا يوجد ملك واحد يمكن أن يقال عنه إنه أقوى الجميع ، فإن عشرة أو خمسة عشر ملكا يتبعون ، حمورابي ، (ملك) بابل ومثل هذا العدد يتبعون ، ريم سين ، (Rim-Sin) (ملك) لارسا (Larsa) ومثل هذا العدد يتبعون ، إيبال بي إيل ، (Ibal Pi El) (ملك إشنونا Eshnuna) ومثل هذا العدد يتبعون ، أموت بي إيل ، (Amut Pi El) (ملك) قطنا (Qatna) ، و،عشرين ملكا يتبعون ، يريم ليم ، (Yarim Lim) (ملك يمخد) (Yamkhad) (٢) ولكن هذه الاتحادات الصغيرة من المدن لم تبق طويلا فإن حمورابي ملك بابل هزم لارسا وماري واستولى عليهما ومن المحتمل أيضا أن يكون قد حكم مملكة أشور ، ولكن لم يمض إلا زمن قليل حتى بدأت قبيلة من الجبال الشرقية تنزل إلى السهل وهذه القبيلة هي التي يطلق عليها المؤرخون إسم ،الكاسيين، (Kassites) ، التي استقرت وأسست حكمها في الجزء الشرقي من مملكة بابل .

أما في شمالي بلاد ما بين النهرين أي في أشور ، فإن شعبا أجنبيا آخر وهو شعب ، الحريين ، (Hurrians) جاء أيضاً من الشرق ولم يلبث إلا قليلا حتى صار له نفوذ كبير في البلاد ، وكان من الطبيعي أن يحدث التصادم بين الكاسيين والحريين ، وأن يشتد بينهما التنافس ، ولكن الحريين آثروا ترك ما سبق أن استولى عليه الكاسيون واتجهت أنظارهم نحو الجنوب الغربي فهاجموا بعض المدن هناك وكانت من بينها مدينة آلالاخ (Alalahk) عاصمة مملكة ، يمخد ، وتلا ذلك اضطراب عام في جميع البلاد السورية نشأ من جراء هذه الهجرات التي تدفقت عليها من ناحية الشرق ، ولم تكن هناك مندوحة من أن تتأثر مصر بما كان يجري على حدودها ، وكان من

المحال أن تبقى بمنأى عن نتائج هذه الهجرات والغزوات فى بلاد الشرق الأدنى .

وقد سبق أن تحدثنا بالتفصيل عن حالة مصر وضعفها النسبى فى عهد الأسرة الثالثة عشرة ، وأشرنا إلى أنه من المحتمل أن تكون بعض الشعوب المهاجرة قد بدأت تستقر فى شرقى الدلتا منذ أواسط أيام هذه الأسرة وأن ذلك كان بداية ظهور الهكسوس فى مصر .

وبعد هذه المقدمة يبقى أمامنا موضوع الهكسوس نفسه ، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ – من هم الهكسوس ؟

٢ – حكم الهكسوس فى مصر ؟

٣ – طردهم من مصر .

ولنبدأ الآن بالقسم الأول من الموضوع .

١ – من هم الهكسوس ؟

كتب مانيتون يقول[١] : « فى عهد الملك توتيمايوس[٢] (Toutimaios) ، ولا أدرى السبب فى ذلك ، أصابتنا ضربة من الله ، ودون أن نتوقع ذلك جاءنا غزاة من جهة الشرق من أصل مجهول ، ساروا تملؤهم الثقة فى النصر ضد بلادنا وتمكنوا بقوتهم من الإستيلاء عليها بسهولة دون ضربة واحدة وبعد أن تغلبوا على حكام البلاد حرقوا مدننا دون رأفة ، وهدموا معابد الآلهة من أساسها وعاملوا جميع الأهالى بعداء قاس ، فذبحوا البعض وأخذوا نساء وأطفال البعض الآخر ليكونوا إماء وعبيدا لهم . وأخيرا عينوا واحدا من بينهم إسمه « ساليتيس » (Salitis) ليكون ملكا عليهم فأقام فى منف وفرض الضريبة على شمالى مصر وجنوبيها وكان يترك دائما الحاميات فى أكثر المواقع المناسبة » . ويزيد مانيتون على ذلك بأن ساليتيس بنى حصنا فى أواريس فى شرقى الدلتا ويذكر أنه ترك فيها حامية عدد رجالها ٢٤٠,٠٠٠ مزودين بأسلحتهم ، وكان يذهب لزيارة هذا الحصن ويتفقد رجاله فى شهور الصيف من كل عام . ويذكر مانيتون عددا من ملوك الهكسوس كما يذكر بعد ذلك قصة إخراجهم من

مصر [1] . ولكن هناك فى الوثائق المصرية القديمة بعض ما يزيد من معلوماتنا عنهم فقد أشارت الملكة حتشبسوت في معبدها المنحوت فى الصخر فى بنى حسن (اسطبل عنتر إلى الهكسوس بقولها ، لقد أقمت ما كان قد تداعى ، وكذلك ما كان قد تهدم فى الوقت الذى كان فيه الأسيويون يحكمون فى أواريس فى الشمال ، وكانوا بجحافلهم المتجولة يعيشون بين الناس فسادا محطمين ما كان قائما . إنهم كانوا يحكمون دون (اعتراف بسلطان) رع ، وكان رع لا تنفذ له إرادة إلهية حتى جاء عهدى العظيم [2] . وفى لوحة كارنارفون أو لوحة الكرنك الجديدة أو بردية ساليه التى سنتحدث عنها فيما بعد ، لا نجد ما يفيدنا فى البحث عن أصل الهكسوس أكثر من نعتهم بأنهم ، أسيويون ، .

من ذلك كله نرى أنه لا جدال بين العلماء فى أن الهكسوس أتوا من الشرق وأنهم جاءوا من آسيا ، ولكن إذا أردنا أن نقترب أكثر من ذلك لنعرف من أى جنس كانوا فإننا نصل إلى النتيجة الآتية : وهى أنهم ليسوا من شعب واحد وإنما من شعوب متعددة ، وأنه وإن غلبت فى أسمائهم الأسماء السامية فإننا نجد أيضا أن فيهم عناصر غير سامية لا شك أن بعضها ، كاسى ، والبعض الآخرى ، حرى ، وكلا الجنسين من أصل هندو – أوروبى نزل من أواسط آسيا كما سبق القول .

وكلمة الهكسوس ليست اسما ساميا أو آريا بل كلمة مصرية وهى تحريف للقب معروف منذ الأسرة الثانية عشرة وهو ، حقا خاسوت ، أى حاكم البلاد الأجنبية ، وكان لقبا يطلقه المصريون على زعماء القبائل البدوية التى كانت تعيش فى شرقى مصر ، ونراه مكتوبا فوق منظر قدوم البدو الساميين فى إحدى مقابر بنى حسن كما جاء أيضا فى قصة سنوهى أثناء حديثه عن إقامته بين بدو لبنان – سورية . ولا جدال فى أن هؤلاء الهكسوس جاءوا من طريق فلسطين وربما كانت جحافلهم

المختلطة مستقرة هناك قبل مجيئهم إلى مصر ، فلما ضغط عليهم غيرهم هاجروا إلى وادى النيل وحملوا معهم كثيرا من عاداتهم ومظاهر ثقافتهم .

وكانت هناك آراء فى أنهم جاءوا عند غزوهم لمصر بالخيل والعربات الحربية ، وأنه كانت لهم مملكة واسعة شملت رقعة كبيرة من آسيا مدللين على ذلك بتشابه الحصون الحربية ووجود أنواع خاصة من الفخار ، ولكن أحدث الأبحاث العلمية لا تقبل هذه الآراء الخاصة بإمبراطورية هكسوسية بحال من الأحوال . كما أنه يعوزنا الدليل على أن الغزاة الأجانب جاءوا بالخيل والعربات، بل أنهم لا يستعملوها إلا فى أواسط أيام حكمهم فى مصر وبعد أن مر عليهم فيها نصف قرن على الأقل (١) ، أو ربما بعد ذلك أيضا قبيل طردهم من مصر .

٢ – حكم الهكسوس :

تعتمد معلوماتنا عن هذا الموضوع على مصدرين أولهما ما كتبه مانيتون وما جاء على الآثار ، أما ثانى المصدرين فهو ما أخرجته الحفائر الأثرية فى مصر وفلسطين.

وتجمع المصادر المصرية على أن الهكسوس كانوا قوما مخربين وأنهم أذلوا مصر وخربوا معابدها ، ولكن النقد الصحيح لا يمكن أن يقر الاعتماد على وجهة نظر أحد الخصمين فقط فإن ما وصل إلى يدنا من هذه النصوص كتبه المصريون بدافع الوطنية الخالصة أو بدافع آخر من الزهو والدعاية من جانب الملوك المتأخرين مثل حتشبسوت الذين قاموا بإصلاح ما أصاب بعض المعابد أثناء حرب التحرير .

فمثلا نقرأ فى نص حتشبسوت إنهم لم يعرفوا الإله « رع » ولم يوقروه بينما نرى الكثيرين من ملوكهم جعلوا اسم رع جزءا من أسمائهم مثل « عا أوســر رع » و « نب خبش رع » و « عاقنن رع » (٢) ، بل أن بعض ملوكهم كتبوا أمام أسمائهم أنهم « ابن رع » جريا على عادة من سبقهم من ملوك مصر . وفى هذا دليل على عدم صحة ما ادعته حتشبسوت .

أما عن سوء معاملتهم للمصريين فإن هذا أمر طبيعى ، فويل للمغلوب من

الغالب فى كل زمان ومكان ، وليس عجيبا أن نسمع بأن القاهر كان ظالما أو مستبدا بل العجيب أن نتوقع أن نسمع من المغلوب رضاءه عن قاهريه وسالبى حريته ومن أذاقوه طعم المذلة والهوان .

وإذا رجعنا إلى الآثار نفسها لوجدنا أن مدة احتلال الهكسوس لمصر لم تدخل أى تطور ملحوظ على الفن المصرى أو الحياة المصرية ، فكل شيء سار فى مجراه الطبيعى وإذا كانت هناك بعض عناصر جديدة فى الفن المصرى أو فى الفخار فإنها كانت نتيجة منتظرة لزيادة اتصال مصر بغربى آسيا عندما كان الهكسوس فى شرقى الدلتا وكان أهلهم الأقربون يعيشون فى فلسطين وسورية .

أما ديانتهم – أو ديانة الذين لم يعتنقوا ديانة المصريين من بينهم – فإنها تركزت فى عبادة الإله سوتخ وهو دون شك أحد مظاهر الإله « ست » المصرى الذى كان معبودا فى شرقى الدلتا منذ الدولة القديمة (١) وأنه لم يكن غريبا على البلاد . والمرجح أن الهكسوس رأوا فى هذا الإله شبيها أو صورة من الإله الأسيوى « بعل » ، فقبلوا أن يعبدوه وجعلوا منه المعبود الأكبر فى البلاد ، فكان فى هذا الإجراء بعض ما آذى شعور السكان الذين كانوا يعبدون آلهة أخرى . ولكنا نعرف أيضا أن الحمار كان ذا شأن فى ديانتهم وسواء أكان هذا الحيوان رمزا للإله سوتخ أو رمزا لمعبود آخر فأنهم كانوا يجلونه ويدفنونه فى مقابرهم وكان الهكسوس يرسمون الإله سوتخ فى مظهر أسيوى أكثر منه مصريا فإنه كان قريبا من مظاهر الآلهة الأسيوية أمثال « بعل » و « رشب » (Reshep) و « تشوب » (Teshub) فإن رداءه ولباس رأسه الذى يخرج منه القرنان صورة تامة للآلهة الأسيوية (٢) وهناك أثر هام لتاريخ ست والهكسوس على السواء ، وهذا الأثر هو اللوحة المعروفة باسم لوحة عام ٤٠٠ (٣) ، التى عثر عليها مرييت فى صان الحجر ثم دفنت ثانية وبحث عنها بترى وبارازنتى دون جدوى إلى أن عثر عليها مونتيه فى حفائره هناك . وقد أقام الملك رمسيس الثانى هذه اللوحة تخليدا لزيارة أبيه وجده لهذه المدينة فى وقت من الأوقات وكان ذلك فى أيام الملك حور محب عندما كان الجد أحد قواد الجيش وكان الأب ضابطا فيه . حدثت هذه الزيارة حوالى عام ١٣٣٠ ق.م. ، وكان قد مضى إذ ذاك على بدء عبادة « ست

، فى هذه المدينة ٤٠٠ سنة (١) فلو رجعنا أربعمائة سنة إلى الوراء لرأينا أن عام ١٧٣٠ وهو بدء إعلان تتويج الإله ست إلها للبلاد كلها يوافق بدء سيطرة الهكسوس على مصر (٢) .

أما السبب الذى حدا برمسيس الثانى إلى إقامة هذا الأثر فهو ولا ريب تمجيد لهذا الإله الذى كان يحتل المكانة الأولى فى المدينة التى جاءت منها عائلة هذا الملك.

ملوك الهكسوس :

إذا أردنا حصر ملوك الهكسوس سواء من ذكرهم مانيتون أو من ذكرهم الإفريقى (Africauss) أو من وصلت إلينا أسماؤهم مكتوبة على الآثار لوجدنا أمامنا جدولا طويلا من الأسماء وبخاصة ما جاء منها مسطرا على الجعارين .

ولنبدأ الآن بمانيتون . فنراه قد قسم ملوك مصر فى عهد الهكسوس إلى ثلاث أسرات أولاها وهى الأسرة الخامسة عشرة تتكون من ستة ملوك يبدأون بالملك ساليتيس ثم يليهم ملوك الأسرة السادسة عشرة (فى مختصر الأفريقى) وعدد ملوكها اثنان وثلاثون ثم بعد ذلك ملوك الأسرة السابعة عشرة المعاصرون لملوك طيبة وعددهم ثلاثة وأربعون .

وقد تكلم عن هؤلاء الملوك وآثارهم بالتفصيل كل من الدكتور باهور لبيب (٣) والدكتور شتوك (٤) فى رسالتيهما عن هذا العصر ويكفينا فقط أن نشير إلى بعضهم مثل الملوك الثلاثة الذين يتسمون باسم أبوفيس (إبيبى باللغة المصرية) والذين عثر على آثار كثيرة تحمل أسماءهم فى أماكن عديدة من مصر ، ومن بينها تماثيل وأحجار منقوشة وبعض آثار صغيرة مثل الخنجر المصنوع من البرونز الذى عثر عليه فى سقارة فى مدفن شخص يسمى « عبد » وكان هذا الخنجر باسم شخص سامى آخر اسمه « نحمان » .

ومن أهم ملوك الهكسوس الذين لا يمكن إغفال ذكرهم الملك المسمى « خيان »

وربما كان هو الذى ورد فى قائمة مانيتون تحت اسم جناس (Jannas) ونعرف من آثاره الكثيرة أنه كان يحمل لقب ، حقا خاسوت ، من بين ألقابه ، وكان أيضا رئيس الجند ، وكان ابن الشمس ، كما كان يسمى الإله الطيب مثل ملوك مصر السابقين . ومن المهم جدا أن نعرف أن آثار هذا الملك عثر عليها فى جهات مختلفة من مصر، وفى سورية ، وفى فلسطين ، ومنها أيضا الأسد الذى يحمل اسمه الذى رؤى فى بغداد يوما ما لدى أحد تجار الآثار وغطاء اناء من المرمر جاء من حفائر السير أرثر إيڤانز فى كريت .

وما من شك فى أن ، خيان ، كان من أعظم ملوك الهكسوس ولكن وجود بعض الجعارين باسمه فى سورية وفلسطين ، أو تمثال صغير لأسد لا يزيد طوله عن ٤٥,٢سم فى بغداد أو غطاء آنية متوسطة الحجم فى كريت لا تجعلنا ننساق وراء من يذهب بهم الخيال إلى جعل هذه الأشياء أساسا لنظرية اتساع ملك الهكسوس ، وأنهم كانوا على رأس امبراطورية شملت مصر وسورية وفلسطين والعراق وجزر البحر الأبيض المتوسط فإن هذا غير مقبول ولا يستند على أى دليل جدى ؛ لأن جميع هذه الآثار من السلع التى يمكن أن يقال عنها إنها سلع تجارية وسهل حملها من مكان إلى مكان ، وعلى هذا فإن الإتجاه الحديث يخالف المؤرخ الكبير إدوارد ماير فيما رآه (١) .

٣ - طرد الهكسوس

كان مركز حكم الهكسوس فى شرقى الدلتا ، ولكن نفوذهم امتد مع الزمن فشمل الدلتا بأكملها والصعيد ، وإن كنا نجهل الصلة التى كانت بين الهكسوس وأبناء البلاد ، ونجهل أيضاً تقسيمها الإدارى فى ذلك العهد ، فإننا نستطيع أن نستشف مما وصل إلينا من وثائق أنه ليس بمستبعد أن يكون الهكسوس قبلوا دفع الجزية ممن والاهم من أمراء البلاد الذين ظلوا على رأس إماراتهم عندما غزوا مصر وآثروا السلامة فلم يدافعوا عن وطنهم .

فإذا كان هناك حقيقة أمراء مستقلون فإن أحدا منهم لم يجرؤ على ادعاء الملك وتلقيب نفسه بألقاب الفراعنة المصريين كما كان الأمر فى الأسرة الثالثة عشرة ، ومرت أيام الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة دون أن يكون هناك بين أمراء البلاد من يستطيع مقاومة نفوذهم ، ولكن فى الأيام الأخيرة من حكمهم بدأ بعض أمراء الصعيد يحسون بقوتهم ، وكان أكثرهم نفوذا وأعظمهم سلطانا أمراء طيبة الذين

أخذوا يتحالفون مع جيرانهم فى شمالى طيبة وجنوبيها ، ولكنهم ظلوا يدفعون الجزية لملوك الهكسوس . وجاء اليوم الذى رأى فيه هؤلاء الأمراء أنهم أصبحوا ذوى حول وقوة ، وأن قوة أعدائهم فى الشمال أخذت فى الإنحلال فلم يترددوا فى اعتبار أنفسهم ملوكا لإقليمهم ، وبدأوا يكتبون أسماءهم فى خانة ملكية مسبوقة بألقابهم التقليدية بأنهم ملوك الوجهين القبلى والبحرى ، وهؤلاء هم ملوك الأسرة السابعة عشرة الذين كانوا معاصرين للمتأخرين من ملوك الهكسوس فى الدلتا .

ولسنا نعرف على وجه اليقين مدى العلاقة بين هؤلاء الملوك الطيبين وملوك الهكسوس ، فمن المرجح أن الطيبيين امتنعوا عن دفع الجزية ، أو أن ملوك الهكسوس رأوا خطرا فى ترك أمراء طيبة وشأنهم فبدأ الاحتكاك بين الفريقين . والوثيقة الأولى التى تتحدث عن بدء النزاع ليست وثيقة معاصرة وإنما هى وثيقة من عصر متأخر من عصر الرعامسة أى يرجع تاريخ كتابتها إلى بضع قرون بعد طرد الهكسوس من مصر ، وربما كان مرور بهذا الزمن وطبيعة هذا النص كافيين لإدخال كثير من الخيال على محتوياته . تلك الوثيقة هى بردية سالييه ١ (١) . ونعرف من هذه الوثيقة أن الطاعون كان قد إجتاح البلاد ، مشيرين بذلك إلى وجود الهكسوس فى مصر ، وأن البلاد كانت خاضعة لهم وأن الملك أبوفيس جعل من الإله سوتخ معبودا لمصر ولم يقدم قربانا لإله غيره ، وبنى له معبدا إلى جوار قصره ، وكان يعبده دون حياء كما كان يعبد الناس فى مصر إله الشمس رع – حورحتى . وكان سقننرع فى ذلك الوقت حاكما على طيبة ولم يقبل أن يعبد إلها غير الإله أمون – رع .

ونعرف من سياق القصة فى بردية أن سقننرع كان يعترف بسيادة ملك الهكسوس ، ولهذا استقبل رسول أبوفيس بحفاوة عندما جاءه من أواريس ليبلغه بأن أفراس النهر فى مياه طيبة تقلق نوم أبوفيس وهو فى قصره فى الدلتا ولهذا فهو يطلب منه إسكاتها ، وأن يهجر أفراس النهر ذلك المكان ، وذلك إلى جانب طلبه الآخر وهو ضرورة عبادة الإله سوتخ . وحاول سقننرع تهدئة خاطر الرسول ، ثم تملكته الحيرة فجمع رجاله لاستشارتهم . ولكن البردية ليست تامة لسوء الحظ ، وإن كنا نستطيع أن نخمن أن السبب فى كتابة مثل هذه القصة هو تسجيل انتصار الملك سقننرع على عدوه وربما كان الانتصار نفسه هو الذى أجبر الهكسوس على الاعتراف باستقلال حكام طيبة ، أو على الأقل أجبرهم على السكوت .

أما الملك أبوفيس فربما كان واحد من ثلاثة تسموا بهذا الاسم وذكرهم مانيتون ضمن ملوك الأسرة السادسة عشرة ، وبنى أحدهم وهو أبوفيس (عاقننرع) معبدا ، أو على الأقل أصلحه أو بنى جزءا منه فى أواريس ، ولهذا نرجح أن يكون هو الملك الذى أراد مناوأة سقننرع وبدأت فى أيامه المعركة الأولى من سلسلة المعارك التى انتهت بطردهم من مصر . وإذا كانت بردية ساليه ١ هى الفصل الأول من كتاب التحرير فإن الفصل الثانى نقرؤه عندما نفحص مومياء سقننرع ، وقد أبقى عليها الزمن وهى محفوظة الآن فى المتحف المصرى ، فنرى أن صاحبها مات متأثرا من جراح كثيرة فى صدره وضربه فأس فى رأسه مما يجعلنا نرجح أن يكون هذا الملك قد مات فى الحرب [1] ، وخط بدمه صفحة نقية فى تاريخ بلاده . أما الفصل الثالث من القصة فإننا نقرؤه بشىء من التفصيل فى نص معاصر كتب فى أيام الملك كامس (كاموسه Kamosé) ووصل إلينا أولا منذ أعوام طويلة على لوحة صبى فى أحد المكاتب أملاها عليه مدرسه كقطعة إملاء ثم عثر على جزء من لوحة من الحجر الجيرى فى الكرنك عام ١٩٢٨ . واللوحة الأولى هى المشهورة باسم لوحة كارنارفون وقد نشرها جاردنر [2] ، واللوحة الثانية التى نشرها لاكو [3] وهى دون شك جزء من اللوحة الأصلية التى نقلت عنها لوحة كارنارفون .

ويبدأ هذا النص القديم بالتاريخ . فنعرف أن ذلك كان فى السنة الثالثة من حكم الملك كامس وهذا هو النص :

« الملك القوى فى طيبة كامس له الحياة إلى الأبد . إنه ملك صالح وقد حباه رع ليكون ملكا حقا وسلم إليه القوة وأيم الحق . وكان جلالته فى القصر وقال للمجتمعين من كبار رجال الذين كانوا حوله : أريد أن أعرف مدى سلطانى إذا كان هناك حاكم فى أوراريس ، وآخر فى كوش ، وأجلس شريكا بين أسيوى ونوبى ويحكم كل منا جزء من مصر ، إن هذا الذى يشاركنى فى الأرض يجعلنى لا أستطيع الوصول إلى منف وهى تابعة لمصر ، لأنه يتحكم فى مدينة الأشمونين . والناس فى نصب لأنهم جميعا فى خدمة الأسيويين . سأحاربه وسأبقر بطنه؛ لأن رغبتى هى أن أخلص مصر وأسحق الأسيويين » . وقد أجابه مجمع رجاله بما يأتى : « انظر إن

منطقة الأسيويين تمتد حتى القوصية ، ثم حركوا ألسنتهم وقالوا بصوت واحد ، ولكننا فى طمأنينة ونحكم مصرنا ، والفنتين بخير ، وجميع البلاد حتى القوصية إلى جانبنا والرجال يحرثون لنا أراضينا ، وترعى ماشيتنا فى الدليل ، ويأتينا الشعير علفا لخنازيرنا . لم يأخذ أحد ماشيتنا غصبا ولم يعتد علينا معتد . إنه يتملك على أرض الأسيويين ونحن نتملك على أرض مصر . أما إذا جاءنا أحد واعتدى علينا فإننا نقاومه ، . ويستمر النص فيقول إن ما فاهوا به أحزن قلب الملك وصاح فيهم بأنه سيطرد هذا الذى يشاركه الملك ، وأنه سيذهب إلى الشمال لينقض عليه وأنه واثق من أن النصر آت ، وأن البلاد كلها ستهتف لهذا الحاكم فى طيبة وستقول عنه ، كامس هو حامى مصر ، .

إذن لقد بدأ النضال مرة أخرى ولم يكن هذه المرة دفعا لتحرش كما حدث فى أيام سقننرع بل أن الشبل نما وترعرع وأصبح شبيها بأبيه ، وأحس أنه لابد من تطهير البلاد مما تحمله أرضها من رجس وشر . ونفهم من باقى النص أن أول معركة خاضتها جيوش طيبة كانت فى مدينة نفروسى فى إقليم الأشمونين وأن حاكمها المسمى تيتى بن بيأوبى جعل من إقليمه عشا للأسيويين ، أى أنه كـــان ممالئا لهم ، وكانت فى بلده حامية للهكسوس ولكنه انتصر عليهم ، وعند هذا الكـــلام ينتهى النص.

كانت هذه كل معلوماتنا عن حرب كامس مع الهكسوس حتى شهر يوليه ١٩٥٤ ، إذ شاء الحظ الحسن أن يعثر رجال مصلحة الآثار ، أثناء ترميمهم لبعض آثار الكرنك على لوحة ، استخدمها القدماء لتكون بين أحجار الأساس التى يقوم فوقها أحد التماثيل الكبيرة للملك بينزم أحد فراعنة الأسرة الحادية والعشرين . كانت اللوحة كاملة لحسن الحظ ، وهى من الحجر الجيرى وارتفاعها ٢٢٠ سم (ولكنها كانت فى الأصل ٢٣٥ وتهشم الآن جزء من أعلاها وجزء من أسفلها) ، وعرضها ١١٠ وسمكها ٢٨ سم ، وتغطى الكتابة أحد سطحيها وجانبيها ، وعليها ٣٨ سطرا من الكتابة تكمل لنا قصة كفاح كامس ضد الهكسوس (١) .

ونعرف الآن أن النص الذى أمر كامس بكتابته تسجيلا لانتصاره لم يكن على لوحة واحدة وإنما كان على لوحتين أقيمتا على الأرجح على جانبى مدخل أحد

الهياكل فى معبد الكرنك ، وكان الجزء الأل من النص مكتوبا على لوحة مماثلة للوحة التى عثر عليها أخيرا ، ولكنها تعرضت لسوء الحظ للتحطيم ولم يبق منها إلا أجزاء قليلة هى التى عثر عليها داخل البيلون الثالث فى الكرنك من عهد الأسرة الثامنة عشرة ، ولكن نصها الكامل تقريبا معروف لنا من لوحة كارنافون . أما الجزء الثانى وهو الذى كان على الجانب الأيسر من المدخل فقد ظل سليما حتى استخدمه ملوك الأسرة الحادية والعشرين فى أساس أحد التماثيل كما ذكرنا .

والنص الذى على اللوحة الجديدة يكمل ما سبقه على اللوحة الأخرى ، وينحى باللائمة على ملك الهكسوس ويذكر هزيمته أمامه وخوف الأسيويين من جيش مصر و « أن نساء أواريس لن يلدن بعد ذلك » . ويصف كامس غريمه « أبيبى » بأنه زعيم « رتنو » ويتحدث على حربه على سطح الماء فى معركة نيلية ويذكر انتصاره واستيلاءه على الكثير مما كان لدى عدوه ، وبخاصة ثلاثمائة سفينة مصنوعة من خشب الأرز ، كانت تفيض بمحتوياتها من الذهب واللازورد والفضة والفيروز وفؤوس القتال المصنوعة من النحاس ، والكثير من زيت الزيتون والبخور والدهن والعسل والكثير من أنواع الأخشاب الثمينة . ويذكر كامس على هذه اللوحة أنه أسر رسولا اتخذ طريق الواحات بعث به أبيبى (أبوفيس) إلى كوش يحمل رسالة مكتوبة بخطه يحرض فيها أمير كوش (النوبة العليا) على مهاجمة مصر من الجنوب أثناء اشتغال كامس بحربه ، ويعده بأن يتقاسم معه مدن مصر .

وخشى كامس أن يحدث هجوم عليه من طريق الواحات فأرسل حملة من رجاله احتلت الواحات البحرية؛ لأنها على رأس الدروب الموصلة إلى مصر الوسطى . ثم يعدد كامس المدن التى استولى عليها ، وفرح أهل طيبة بانتصاراته واستيلائه على البلاد الواقعة بين الأشمونين وأطفيح ، ولكن الاستيلاء على الوجه البحرى كله وعلى أواريس عاصمة الهكسوس لم يتم على يديه بل تم على يدى أخيه أحمس كما سنرى .

وقبل أن ننتقل إلى نقطة أخرى أحب أن ألفت النظر إلى حقيقة هامة وهى وجود جنود من الميجا ، وهم من النوبيين الحاميين سكان شرقى السودان والصحراء الشرقية ، بين رجال كامس كما جاء فى لوحة كارنافون ، وهذا فى حد ذاته دليل على أن أمراء البيت الطيب كانوا قد استعادوا صلتهم بعض الشىء بالجنوب وكان بعض أبناء النوبة مشتركين فى حرب الاستقلال (١) .

ولسنا نعرف كيف انتهت أيام البطل الثانى من أبطال الجهاد ولكنا نرى فجأة أمامنا البطل الثالث وهو الملك أحمس كامس الذى تسلم منه راية الجهاد وأعلنها حرباً لا هوادة فيها فتم له النصر وأجلي العدو عن مصر كلها . ولسنا نعرف قصة حروب أحمس من أى أثر ملكى ، ولكن الأيام قد أبقيت على مقبرة أحد قواده واسمه ، أحمس بن إبانا ، من أهل منطقة الكاب على مقربة من إدفو ، فإن هذا القائد يحدثنا عن تاريخ حياته وتنقله فى الخدمة العسكرية كقائد لإحدى السفن ، ويذكر لنا كيف تبع سيده الملك أحمس فى حربه مع الهكسوس وكيف سقطت أواريس بعد حصارها وكيف فر الهكسوس إلى مدينة شاروهن (Sharuhen) فى جنوبى غزة وأن المصريين حاصروها ثلاث سنوات حتى سقطت فتم لهم النصر على أعدائهم . ومكان مدينة شاروهن الآن هو تل فرعه (Tell Far'ah) وهى المنطقة التى أطلق عليها فلندرزبترى اسم بيت بلث (Beth Peleth) فى تقارير حفائره [١] . وبعد أن اطمأن أحمس تماما إلى سحق أعدائه وجه همه إلى إعادة تنظيم بلاده ولم يجد هناك ما يمنعه من القيام بحملة إلى الجنوب .

وهكذا خرجت جحافل جنود مصر من طيبة لمحاربة الهكسوس فلم تعد إلى وطنها إلا بعد القضاء عليهم ووضع الحجر الأول فى صرح الإمبراطورية المصرية .

خاتمة الهكسوس :

احتل الملوك الثلاثة سقننرع وكامس وأحمس مكان الصدارة فى تاريخ عائلتهم ولكن يجب ألا ننسى أنهم كانوا آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة الطيبية . نعرف قبلهم ثمانية على الأقل كان بعضهم يتسمى باسم ، أنتف ، والبعض الآخر باسم ، سوبك إم ساف ، والبعض الآخر بأسماء أخرى ، وقد اهتم بدراستهم الأثرى ونلوك الذى قام بحفر مقابرهم فى منطقة الطارف ودراع أبو النجا وقارنهم بما جاء فى بردية أبوت [٢]، ثم قام بدراستهم حديثا شتوك فى كتابه الذى أشرنا إليه أكثر من مرة فى هذا البحث .

وقد عثر ماربيت على قبور بعضهم مثل قبر الملكة « إعج حوتب » زوجة سقننرع وأم الملك أحمس ، والتى تزين حليها بعض خزائن المتحف المصرى ، ونعرف أيضا من بين ملكات هذا البيت اسم الملكة « تتى شرى » التى لعبت دورا كبيرا فى تاريخ الأسرة وكانت جدة للملك أحمس ، واشتهرت فى عصرها وبعد عصرها ملكة أخرى وهى الملكة أحمس نفرتارى التى تزوجت زخويها كامس وأحمس واحدا بعد الآخر .

ولا شك أن هذا البيت المالك كان متأثرا فى الناحية الفنية بما وصل إلى مصر من تأثيرات أسيوية فى بعض قطع الحى ، إذ نرى فى زخرفتها ما يجعلنا نقارنها بالطرز الزخرفية المعروفة لنا بأنها كانت شائعة فى سورية وفى كريت . ولكن إذا درسنا الآثار المصرية بوجه عام لا نرى أثرا كبيرا لاحتلال الهكسوس فقد ظلت التقاليد الفنية فى صناعة التماثيل وفى اللوحات وفى الحلى بوجه عام ، تتبع ما كانت عليه فى آخر أيام الأسرة الثانية عشرة اللهم إلا بعض التطور الذى يحتمه مرور الزمن. وكذلك اللغة ، لم يدخلها عنصر غريب أو يحدث فيها تطور يذكر ، وإذا قرأنا النصوص المبكرة فى الأسرة الثامنة عشرة فإننا نرى أن تكاد تختلف نحوها أو مفرداتها عن لغة الأسرة الثانية عشرة .

أما عن الهكسوس أنفسهم فإن حروب أحمس فرقت شملهم ثم جاءت حروب تحوتمس فقطعت دابرهم ، ومحتهم محوا تاما من صفحات التاريخ كقوة حربية أو كأمة لها كيانها . كان إحتلال الهكسوس لمصر أول ما تعرضت له من ذلة على يد أجنبى ، لهذا كان انتقام المصريين من أعدائهم على قدر ما أحسوه من مرارة ، وظلت هذه المرارة فى نفوسهم لم يقض عليها الزمن حتى فيما كتبه مانيتون عن طردهم من مصر بعد مرور نحو ١٣٠٠ عاما . بل وحتى الآن وبعد مضى أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة عام مازال المصريون يلعنونهم ، كما لعنهم أجدادهم ، كلما مروا فى دراستهم للتاريخ القديم بهذه الفترة من تاريخ بلادهم .

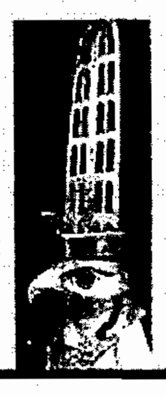
وبالرغم من أن أحمس الأول ينتسب إلى الأسرة السابعة عشرة فإن مانيتون وضعه على رأس أسرة جديدة وهى الأسرة الثامنة عشرة التى بدأت بحكمه عام ١٥٧٠ قبل الميلاد ، وقد أحسن مانيتون فإن حكم هذا الملك كان بداية عهد جديد فى تاريخ البلاد .

الخاتمة

من خلال هذا الكتاب تم سرد الجزء الأول من حضارة وادي النيل ، وقد تناولت بالشرح والتفصيل الأسرات الفرعونية وما ارتبط بها من أحداث تاريخية بداية من مولد الحضارة ونشأتها منذ أقدم العصور من عصر الأسرات المبكر (العصر العتيق) الأسرتان الأولى والثانية ، ثم بداية تكوين نظام الدولة بدءاً من الدولة القديمة المكونة من الأسرة الثالثة حتى نهاية الأسرة السادسة ، وما تبعها من اضمحلال وهو ما يسمى بعصر الفترة الأولى وهي الأسرات من السابعة وحتى العاشرة ، مروراً بعصور الازدهار حيث تكونت الدولة الوسطى من الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة ، ثم بعد ذلك أعقبها عصر الفترة الثانية وينقسم إلى القسم الأول وفيه الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة ، وأخيراً اختتمت هذا الجزء بالقسم الثاني وهي فترة احتلال الهكسوس وهي من الأسرات الخامسة عشرة حتى السابعة عشرة .

وبمشيئة الله سوف أستعرض في الجزء الثاني من هذا الكتاب ما تبقى من الأسرات الفرعونية بداية من الدولة الحديثة والمكونة من الأسرات الثامنة عشرة حتى العشرين ، انتهاءاً بالعصر المتأخر من الأسرة الواحدة والعشرين ، ثم فترة حكم الفرس والذي انتهى في الأسرة السابعة والعشرين ثم تلاه الغزو الفارسي الثاني بعد الأسرة الثلاثين والتي انتهت بها الدولة الفرعونية وذلك عندما تم تسليم مصر إلى الاسكندر الأكبر من دون قتال .

والله الموفق والمستعان ،



المراجع

● أولا : المراجع العربية :

١ـ العمارة في مصر القديمة — تأليف : د . محمد أنور شكري

٢ـ حضارة مصر والشرق القديم — تأليف : الدكاترة : ابراهيم رزقانه، محمد أنور شكري ، عبد المنعم أبو بكر، حسن محمود ، عبد النعيم حسين .

٣ـ الحضارة المصرية — تأليف : جون ولسون . — ترجمة : د . أحمد فخري

٤ـ الماضي الحي — تأليف : إيفار لسنر — ترجمة : شاكر ابراهيم سعد

٥ـ الرمز والأسطورة في مصر القديمة — تأليف : رندل كلارك . — ترجمة : أحمد صليحة

٦ـ تاريخ مصر القديمة [جرمان] — تأليف : د . رمضان السيد

٧ـ فن الرسم عند قدماء المصريين — تأليف : وليم بيك . — ترجمة : مختار السويفي .

٨ـ تاريخ العمارة المصرية القديمة — تأليف : د . اسكندر بدوي

٩ـ هيرودوت يتحدث عن مصر — تأليف : هيرودوت — ترجمة : د . محمد صقر خفاجة .

١٠ـ فجر الحضارة — تأليف : و . ج . بري — ترجمة : لويس اسكندر

١١ـ علماء الآثار — تأليف : تشارلز مايكل دوزني — ترجمة : محمد عبد الفتاح ابراهيم

١٢ـ فن التصوير المصري القديم — تأليف : نينا ديفز — ترجمة : د . حسن صبحي بكري ، وعبد الغني الشال

١٣ـ أهرام مصر — تأليف : إ . إ . س . إدواردز . — ترجمة : مصطفى عثمان

١٤ـ أسرار الهرم الأكبر — تأليف : محمد العزب موسى

١٥ـ المواد والصناعات عند قدماء المصريين — تأليف : ألفريد لوكاس — ترجمة : د . زكي اسكندر و محمد زكريا غنيم .

١٦ـ في رحاب المعبود توت — تأليف : د . سامي جبره . — ترجمة : عبد العاطي جلال

١٧ـ مصر الفراعنة — تأليف : سير الن جاردنر . — ترجمة : د . نجيب ميخائيل ابراهيم

١٨ـ عندما حكمت مصر الشرق — تأليف : جورج شتايندورف ، وكيث سيل — ترجمة : محمد العزب موسى .

١٩ـ آثار الأقصر — تأليف : د . محمد عبد القادر محمد .

٢٠ـ الآثار المصرية في وادي النيل — تأليف : جيمس بايكي . — ترجمة : لبيب حبشي ، وشفيق فريد .

٢١ ـ وادى الملوك	تأليف : عزيز مرقص منصور	
٢٢ ـ الفن المصرى [جزءان]	تأليف : د . ثروت عكاشة .	
٢٣ ـ مصر فى عيون الغرباء [جزءان]	تأليف : د . ثروت عكاشة .	
٢٤ ـ مصر والنيل فى أربعة كتب عالمية	تأليف : مختار السويفى .	
٢٥ ـ المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية	تأليف : د أحمد قدرى [بالانجليزية]	ترجمة : مختار السويفى . ومحمد العزب موسى .
٢٦ ـ نفرتيتى الجميلة التى حكمت مصر فى ظل ديانة التوحيد	تأليف : جوليا سامسون	ترجمة مختار السويفى .
٢٧ ـ سرقة ملك مصر	تأليف : محسن محمد .	
٢٨ ـ مجوهرات الفراعنة	تأليف : سيريل ألدريد .	ترجمة مختار السويفى .
٢٩ ـ المجمل فى تاريخ مصر	تأليف : د . ناصر الأنصارى .	
٣٠ ـ على هامش التاريخ المصرى القديم	تأليف : عبد القادر حمزة .	
٣١ ـ الموسوعة الأثرية العالمية	تأليف : مجموعة من علماء الآثار الأجانب	ترجمة : د . محمد عبد القادر محمد و د . زكى اسكندر .
٣٢ ـ تاريخ الحضارة المصرية [العصر الفرعونى]	تأليف : نخبة من المؤرخين وعلماء الآثار المصريين .	
٣٣ ـ تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى	تأليف : جيمس هنرى برستيد .	ترجمة : د . حسن كمال .
٣٤ ـ فى موكب الشمس [جزءان]	تأليف : د . أحمد بدوى	
٣٥ ـ موسوعة الفراعنة	تأليف : باسكال فيرنوس ، وجان يويوت .	ترجمة : د . محمود ماهر طه .
٣٦ ـ الأدب الثورى عبر التاريخ	تأليف : محمد مفيد الشوباشى .	
٣٧ ـ مصر القديمة [١٦ جزءاً]	تأليف : د . سليم حسن .	
٣٨ ـ الأدب المصرى القديم [جزءان]	تأليف : د . سليم حسن .	
٣٩ ـ معجم الحضارة المصرية القديمة	تأليف : مجموعة من المؤرخين وعلماء الآثار الأجانب .	ترجمة : أمين سلامة .
٤٠ ـ الحضارة المصرية	تأليف سيريل ألدريد .	ترجمة : مختار السويفى .

● ثانيا : المراجع الأجنبية :

41 - GREAT PYRAMID
BY :PETER TOMPKINS.

42 - THE EGYPTIANS.
BY : CYRIL ALDRED .

43 - EGYPT TO THE END OF THE OLD KINGDOM
BY : CYRIL ALDRED .

44 - THE EGYPT OF THE PHARAOHS - AT THE CAIRO MUSEUM.
BY : JEAN - FRANCOIS GOUT.
PREFACE BY JEAN LECLANT. TRANSLATED BY ANTHONY ROBERTS.

45 - IN THE SHADOW OF THE PYRAMIDS.
BY : JAROMIR MALEK.

46 - ANCIENT EGYPT.
BY : GEORGE HART.

47 - SUNRISE OF POWER.
BY : JOYCE MILTON.

48 - EGYPT DRAWINGS.
BY: DAVID ROBERTS (1839).

49 - VALLEY OF THE KINGS.
BY : JOHN ROMER.

50 - ATLAS OF ANCIENT EGYPT.
BY : JOHN BAINES & JAROMIR MALEK.

51 - THE TOMBS OF THE NOBLES AT LUXOR.
BY : LISE MANNICHE.

52 - WARRIOR PHARAOHS.
BY : P. H. NEWBY.

53 - DEATH IN ANCIENT EGYPT.
BY : A. J. SPENCER.

54 - ARCHAIC EGYPT.
BY : W. B. EMERY.

55 - THE ANCIENT EGYPTIANS.
BY : JILL KAMIL.

● ثالثا : من مصادر الصور والأشكال الداخلية :

٥٦ ـ متحف الأقصر للفن المصرى القديم [كتالوج] ـ أصدار : مركزالبحوث الأمريكى بمصر ، والمعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية . ترجمة : عبد العزيز صادق .

٥٧ ـ الماضى يبعث حيا ـ تأليف : إدنا بجوير ، ترجمة : ابراهيم زكى خورشيد .

٥٨ ـ مجلة « شل » [١١ عددا] .

٥٩ ـ المتحف المصرى ـ موجز فى وصف الآثار الهامة ـ إصدار ١٩٥٤ .

60 - EGYPT 1900 - SHELL COMPANIES IN EGYPT

61 - ART THROUGH THE AGES

62 - EGYPT REVEALED - SCENES FROM NAPOLEON'S DESCRIPTION DE L'EGYPT

BY ROBERT ANDERSON AND IBRAHIM FAWZY

63 - THE SPLENDERS OF EGYPT.

BY . MICHAEL DAVISON.

64 - WONDERS OF TUTANKHAMUN

By . DAVID P SILVERMAN .

65 - UPPER EGYPT.

BY : DINO SASSI

66 - DAS ALTE REICH - AGYPTEN IM ZEITALTER DER PYRAMIDEN. [KATALOG]

67 - VALLEY OF THE KINGS [CATALOGUE].

68 - DENDERAH - KARNAK - LUXOR [CATALOGUE].

69 - EGYPT [CATALOGUE].

BY ABBAS CHALABY.

الفهـــرس

****

تم بحمد الله الجزء الأول وإلى اللقاء في الجزء الثاني ،.